الإسلام فى آسيا الوسطى

(بين الفتحين العربى والتركى)

تأليف

الدكتور حسن أحمد محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٢

تقديم

يجد الباحث فى صدر التاريخ الاسلامى أن تكوين الدولة الاسلامية خضع لعوامل متنوعة ، أولها عقيدة وحدانية نزاعة الى خير البشرية على اختلاف أقاليمها وأجناسها وألوانها ، وثانيها جغرافية طبيعية توجيهية للمسلمين من العرب وغير العرب ، وهم فى طريقهم الدائب نحو المشارق والمغارب من الأرض فى خدمة الدين وتعاليمه وحضارته على مر الأجيال والعصور •

ولهذين العاملين الأساسيين ثالث ورابع وخامس وهلم جرا منطقيا مما لا تتسع له هذه المقدمة القصيرة • ولا سيما أن هذا الكتاب الجيد ينطوى فيما ينطوى على شرح غير مباشر للعامل الجغرافى دون غيره من العوامل الكثيرة فى تكوين الدولة الاسلامية العالمية •

ومن الدليل العابر الدال على أهمية هذا العامل الجغرافى الطبيعى أن المسلمين الأولين حين فتحوا الشام الخصيب لم يتجهوا مباشرة الى أطراف أرمينية الجبلية الوعرة وآسيا الصغرى الشاسعة • بل اتجهوا نحو وادى النيل وأرضه الخضراء •

ويتضح ذلك كذلك من الحركات الاسلامية الآسيوية التى يمتلىء بها هذا الكتاب الكبير • اذ اتجهوا بعد العراق الى أراضى ايران السهلة

دون أن يفكروا وقتذاك فى أقاليم بحر قزوين وجبال القوقاز . بل اتجهوا الى خراسان احتراما للتضاريس الطبيعية ثم انثالوا من خراسان الى ما وراء النهر وتركستان الشرقية وبلاد السند والملتان الواقعة فى شمال شبه القارة الهندية .

وقدم المؤلف بذلك برهانا مستفيضا على صحة القاعدة الذهبية القائلة بأن الجغرافيا توجه التاريخ . كما برهن على قوة العقيدة الاسلامية وقدرتها على الوصول السريع الى قلوب مختلف الشعوب الآسيوية .

ومنذ أن أصدر الأستاذ سير توماس أرنولد كتابه الشهير الذى عنوانه (الدعوة الى الاسلام) أخذ موضوع انتشار الاسلام بصفة عامة يلقى مزيدا من عناية المهتمين بالدراسات الاسلامية . وظهرت دراسات مستهدية بالمنهاج الذى رسمه الأستاذ أرنولد فى كتابه لشرح امتداد الاسلام الى أوروبا وأفريقيا . وظلت المكتبة العربية بحاجة الى دراسة انتشار الاسلام فى آسيا ومنجزاته الكبيرة التى حققها بين الشعوب التى كسبها للاسلام . ولهذا كان اختيار الدكتور حسن أحمد محمود هذا الميدان موضوعا لدراسته اشباعا لحاجة كبيرة فى المكتبة العربية الاسلامية .

ولم يشأ المؤلف أن يدرس انتشار الاسلام فى آسيا كلها بل تدرج فى قصة الفتوح الاسلامية الآسيوية حتى وصل الى آسيا الوسطى وتوسع فى خطة تأليفه لتشمل ايران وتركستان وشمال الهند . لأن الاسلام وصل الى تركستان عن طريق ايران وامتد اشعاع الدارس الايرانية الاسلامية الى جميع أنحاء تركستان الغربية والشرقية . ثم ان المسلمين امتدوا الى أطراف السند كذلك عن طريق ايران . كما أن الأتراك المسلمين الذين سيطروا على غزنة اتجهوا الى شمال الهند . وبذا صارت ايران وتركستان وشمال الهند عالما اسلاميا حضاريا قائما بذاته .

وحرص المؤلف على عدم الاسترسال فى شرح الأحداث السياسية

بل اكتفى منها بما يوضح جوانب الدعوة الى الاسلام مع التركيز حول المؤثرات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التى اجتمعت لنجاح تلك الدعوة • ولذا جاءت دراسته بحثا جديدا لنواحى الحضارة الاسلامية فى آسيا الوسطى •

ويسرنى أن أقدم هذا الكتاب الجديد الى المعنيين بتاريخ حضارتنا الاسلامية عامة وأرجو أن تنتفع به المكتبة العربية وأهلها من المتخصصين وغير المتخصصين •

محمد مصطفى زيادة

مقدمة

موضوع انتشار الاسلام موضوع غامض ، لم ينل حظه من الدراسة الشاملة حتى بعد المحاولة الكبيرة التى قام بها السير توماس أرنولد فى كتابه الشهير « الدعوة الى الاسلام » •

والحق أن وثائقه اما نادرة أو متفرقة ، كما أن أغلب من أرخوا للاسلام عنوا بالأحداث السياسية ، وأغرقوا فى الحديث عن الغزوات والوقائع والحروب والانتصارات • كما كتب كثيرون فى الثقافة الاسلامية فأكثروا من التفاصيل ، أو كتبوا فى نظم الحكم ، أو عرضوا لحياة المسلمين الاقتصادية أو الاجتماعية •

لذلك آثرت أن استهدى بدراسة السير توماس أرنولد ، وأكتب فى موضوع انتشار الاسلام ، موضحا بعض ما شابه من غموض ، مثيرا الاحساس بأهميته ، مستنهضا همة المشتغلين بالتاريخ الاسلامى للاسهام فى الكتابة فيه حتى يكتمل تاريخ الدعوة الى الاسلام منذ مشرقه الأول حتى اليوم •

وهذه الدراسة تفرض علينا منهجا معينا ، يقضى بألا تكون الدراسة اغراقا فى ذكر الأحداث السياسية ، مع عدم اهمال هذه الأحداث لنستخرج منها العبرة ، ونستقى منها ما يوضح غوامض الدعوة الاسلامية• فالدراسة اذن ليست دراسة سياسية مفصلة •

كما لابد من أن نعرض للظروف التى مكنت الاسلام من النجاح ، ونتائج دخول الجماهير فى الاسـلام ، على ألا تكون الدراسة من الضيق بحيث تشمل الناحية العقيدية فقط ، اذ لا بد أن تكون النظرة أرحب ، فنعرض للمفهـوم الحضـارى الواسع ، مع العنـاية بالآثار الاقتصـادية والاجتماعية والفكرية •

بعبارة أخرى يمكن أن نلخص هذا المنهـاج فى الكلمـات القليلة الآتية : ان اتصال البلاد ــ التى سنعرض لها بالدراسة ــ بالاسلام جاء عن طريق الفتوح العربية ، وأن ظروف تلك البلاد قبيل الفتح مكنت الفتح من أن يحقق نجـاحا سريعا • ولا بد اذن من دراسـة ظاهرة الفتوح ، وأسلوب الدولة فى نشر الاسلام ، ومعاملة الشـعوب الخاضعة لها ، وأهم أسباب نجاح الاسلام فى دعوته ، مع التأريخ لحركات الدخول فى الاسلام ، وما كان للدخول فيه من نتائج منوعة •

وقد اخترت آسيا الوسطى ميدانا لهذه الدراسة • ولم أقتصر على آسيا الوسطى كمفهوم جغرافى ، لأن الاسلام فى تركستان وفد اليها من ايران • كما أن الاسلام فى الهند وفد عن طريق ايران أول الأمر ، ثم عن طريق تركسـتان وغـزنة بعد ذلك • اذن المفهوم الاسـلامى لآسـيا الوسطى يتسع كثيرا عن المفهوم الجغرافى ليشمل ايران وكيف دخلت فى الاسلام وتأثرت به وانطبعت الحياة الاسلامية فيها بتراثها القديم •

وعن طريق ايران دخل الاسلام تركستان • وكانت مدارس ايران الاسـلامية اشـعاعا فكريا امتد الى ما وراء النهر وتركسـتان الشرقية • والحركة الاسلامية فى تركستان تأثرت بالحركة الاسـلامية فى ايران ، والأحياء الفارسى نبع من خراسان وما وراء النهر وغلب على تركستان • وعن طريق ايران دخل العرب اقليم السند • والأتراك الذين غلبوا على غزنة اندفعوا الى شـمال الهند لينشروا الاسـلام ، وحملوا معهم مقوماتهم

السياسية والعقيدية والفكرية • ودخلت حركة الاحياء الفارسى الهند مع الغزنويين ، واذا بايران وتركستان وشمال الهند تكاد أن تكون عالما اسلاميا قائما بذاته ، يدين بالاسلام ويتذوق الأدب الفارسى الجديد •

وقد اخترت من تاريخ الاسلام فى هذه البلاد عصرا واضحا يبدأ بالفتح العربى ، وينتهى فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، وهو العصر الذى غلب فيه الأتراك السلاجقة على ايران والعراق ، وغلب فيه الأتراك الغزنويون على شمال الهند •

وحددت موضوع الكتاب على هذا النحو « الاسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى » •

وقد عرضت لكل قطر على حدة فبدأت بايران ثم تركستان ثم الهند • وأفردت لكل اقليم بابا خاصا ، وجعلت الدراسة فى كل باب تسير على النهج التالى : أحوال البلاد قبيل الفتوح ـ الفتوح ـ انتشار الاسلام وأسباب نجاحه ـ نتائج الدخول فى الاسلام •

وقد حاولت بقدر الطاقة أن أوضح معالم انتشار الاسلام بين الفتحين العربى والتركى • ولست أدعى أنى وفيت الموضوع حقه ، انما حسبى أنى أشرت الى أهميته ، وأثرت بعض الجوانب المظلمة منه ، وفتحت الباب لمزيد من الدراسات التى أرجو أن تكون أكثر توفيقا •

والخير أردت وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب •

حسن أحمد محمود

الباب الأول

انتشار الإسلام في إيران

الفصل الأول

ايران قبيل الفتح العربى

شهد الشرق الأدنى فى مستهل القرن السابع الميلادى تطورا هاما فى تاريخ العرب ، ذلك أن الهجرات العربية القديمة التى كانت تخرج خروجا موسميا من شبه الجزيرة وتمضى الى بادية العراق ، وتصل الى أقليم الجزيرة ثم تنحسر انحسارا تلقائيا . هذه الهجرات قدر لها أن تنهج نهجا جديدا ، اذ حمل العرب رسالة نشر الاسلام والثقافة العربية فى ايران وما وراءها من أقاليم آسيا الوسطى .

وكان نجاح العرب فى حمل هذه الأمانة وأداء هذه الرسالة يتوقف على عاملين :

العامل الأول أن يتحد العرب فى دولة عربية واحدة تجمع شملهم وتوجه حركاتهم ، وأن يتحد هؤلاء العرب ليس من أجل توسع مادى قد تنقضى أسبابه ، انما من أجل رسالة سامية ، هى نشر الاسلام . والعامل الثانى أن تضعف الدولة الساسانية التى كانت سدا منيعا يقف فى وجه الحركات العربية ويردها على أعقابها ، لأن ايران تحتل موضعا جغرافيا هاما ، فهى حلقة اتصال بين آسيا الوسطى بشعوبها ولغاتها ، وبين عالم البحر الأبيض المتوسط بشعوبه ولغاته ومقوماته .

وكانت بحكم هذا الموقع تتحكم فى مقدرات الشرق وتياراته السياسية والفكرية . وكان واضحا أن نجاح التوسع العربى يتوقف على ازالة الساسانيين وسقوطهم .

العامل الأول نعرف عنه الكثير ، ويكفى أن نذكر أن الدولة

الاسلامية بعد أبى بكر خلصت من متاعبها الداخلية ، وبدأت الجيوش العربية تتجه نحو العراق وايران .

لكن يعنينا فى المقام الأول أن نعرض للعامل الثانى أى لأحوال الدولة الساسانية فى السنوات القليلة التى مضت من القرن السابع الميلادى السابقة على أحداث الفتح العربى . لنتعرف على مواطن الضعف فى الحياة الايرانية ونلتمس لتوفيقات الفتح تعليلا مقبولا .

كانت ايران فى تلك الفترة تحكمها الأسرة الساسانية ، هذه الأسرة التى تحتل من تاريخ ايران القومى مكانا عظيما بسبب التطورات التى صحبت ظهورها خصوصا بعد الثورة التى أعلنها أردشير مؤسس هذه الأسرة سنة ٢١٢ م (١) .

ويبدو أن هذه الثورة حققت للساسانيين أغراضهم فى الحكم والسلطان غير أنها حققت لايران مكاسب قومية . حققت لها الوحدة الاقليمية ، وحمتها الى حد كبير من عدوان البيزنطيين والأتراك ، وبعثت تراثها القومى باحيائها الديانة المجوسية القديمة . كما ساعد الساسانيون على أن تنتشر الحضارة الايرانية فى آسيا الوسطى ، حتى استطاعت أن تحل محل الحضارة الهندية (٢) .

وقد استطاع الساسانيون أن يحققوا للأمة الايرانية مكاسب اقتصادية بافادتهم من الطرق الدولية وتجارة العبور وما درته من أرباح وفيرة .

ولكننا نستطيع أن نقول فى طمأنينة ان الظروف التى فرضت الساسانيين فرضت عليهم أن ينهجوا نهجا أدى الى ضعفهم واضمحلالهم .

ولتوضيح ذلك الرأى نقول : ان ايران الساسانية كانت ضحية لوضعها الجغرافى قبل كل شىء ، ذلك أن السياسة الايرانية كان من

---

(١) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ص ٧٤ .

(٢) Barthold : Histoire des Turcs d'Asie Centrale, p. 33

أهدافها تحقيق الطمأنينة للوطن الايرانى وحمايته من ثلاثة أعداء : البيزنطيين والترك والقبائل العربية التى كانت لا تكف عن الاغارة على بادية العراق .

وبذلك حارب الساسانيون فى ثلاث جبهات فى وقت واحد : حاربوا البيزنطيين فى أرمينيا وآسيا الصغرى ، والعرب فى بادية العراق واقليم الجزيرة كما واجهوا الخطر التركى الذى كان قد بدأ يطل من وطن الأتراك ويغير على الحدود الايرانية . هذه الجبهات الثلاث قدر لها أن تستنفد دم الساسانيين وأن تقضى على ما بقى فيهم من رمق المقاومة .

فحروبهم مع الأغريق والرومان والبيزنطيين ظهرت منذ فجر الدولة الأول ، وبدأت الدولة الساسانية تدخل هذه المعركة حماية لايران فى عهد ملكها سابور الأول سنة ٢٦٠ م ، ذلك أن هذا الامبراطور استطاع أن يوغل فى أرمينية وأن يأسر الأمبراطور الرومانى فاليريان [١] عند الرها وأن ينشر النفوذ الساسانى على أطراف العراق .

وقد اتخذ هذا الصراع صورة عنيفة ابتداء من القرن الرابع الميلادى وعلى الأخص فى عهد الامبراطور قسطنطين بعد امتداد حركة التبشير بالمسيحية الى ايران ذاتها [٢] . ووجد الايرانيون قوما منهم يدخلون فى المسيحية ويكون ولاؤهم للكنيسة البيزنطية عبر الحدود . وبدا واضحا أن النزاع بين الساسانيين والبيزنطيين أصبح نزاعا بين المسيحية وبين الديانات الشرقية ، وقد تبنى العرب بعد فتحهم ايران السياسة الايرانية القديمة ، سياسة النضال مع الهالينية أو المسيحية الشرقية .

واستطاع الايرانيون من بعد قسطنطين أن يحققوا انتصارات عدة :

---

(١) كريستنسن ص ٢١ . المصير الذى انتهى اليه فاليريان مجهول والمحقق أنه مات أسيرا ولعله لقى حتفه فى جنديسابور . أسد رستم الروم ج ١ ص ٤٧ .

(٢) أنظر الفصل الممتع عن النصارى فى ايران الذى كتبه كريستنسن ص ٢٤٥ - ٣٠٠ .

ففى عهد الملك بهرام الخامس (٤٢١ - ٤٢٨) [١] ، استطاعوا أن يستولوا على أرمينية مرة أخرى ، وأن يدخلوا بلاد الشام ، ويقال ان آثار التخريب التى تركوها فى بلاد الشام ظلت باقية بعد انسحابهم بنحو مائة سنة • ولم يقف البيزنطيون مكتوفى الأيدى فى هذا الصراع من أجل البقاء • فقد عملوا على محاولة تطويق ايران ومد نفوذهم الى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وتحريض الأحباش على احتلال اليمن وتحريضهم على غزو مكة واقامتهم امارة الغساسنة [٢] •

على أن السياسة الساسانية فى محاربة البيزنطيين مضت الى أبعد من هذا فى عهد كسرى الثانى الذى استطاع أن يستولى على الرها وأنطاكية ودمشق ، وأن يدخل بيت المقدس ، وأن يستولى على مصر • بل توغل النفوذ الساسانى فى آسيا الصغرى ووصل الى البسفور [٣] • واضطر البيزنطيون أن يقوموا بحملتهم المشهورة فى عهد هرقل سنة ٦٢٢ • م [٤]، واستطاعوا أن يستردوا مصر وبلاد الشام ، وتحالفوا مع الأتراك والخزريين فى القوقاز • وانتهت الدولة الساسانية فى عهد آخر ملوكها يزدجرد الى حالة كبيرة من الضعف بعد أن استنزف هذا الصراع مع البيزنطيين ما كان قد بقى فيها من رمق المقاومة •

وفى الوقت نفسه ، شهدت ايران ظهور خطر جديد على حدودها الشمالية الشرقية ونعنى به الخطر التركى • والأتراك كانوا يغيرون من وطنهم القديم اغارات غير منظمة على الحدود الايرانية ولكن هذه الغارات بدأت تشتد على خراسان منذ القرن الرابع الميلادى ، وأصبحت هذه

---

(١) ايران فى عهد الساسانيين ص ٢٦٣ • أسد رستم ج ١ ص ١١٨ •

(٢) ايران فى عهد الساسانيين ص ٣٥٨ •

(٣) أسد رستم ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٩ ، كريستنسن ص • ٤٢٠ - ٤٢١ •
Legacy of Persia, p. 40

(٤) كريستنسن ص ٣٥٨ •

الغارات خطرا عظيما يتهدد هذه المنطقة الهامة التى كانت قلب الحضارة الايرانية [١] •

وكان الساسانيون يسترضون الأتراك حينا ليتفرغوا للبيزنطيين ، ويسترضون البيزنطيين ليتفرغوا للأتراك • غير أن العصر الساسانى شهد خطرا تركيا فادحا فى مناسبتين : الأولى سنة **٥٧٩** والثانية سنة **٥٩٠** [٢] ، وفى هاتين المناسبتين كاد الخطر التركى يخترق قلب ايران • وكان البيزنطيون فى حربهم مع الساسانيين يمدون أيديهم للأتراك فى أكثر من مناسبة ليشترك الطرفان فى جهد مشترك للقضاء على الساسانيين •

وفى الوقت نفسه كانت الدولة الساسانية تصارع العرب • وقد أقام الساسانيون دولة المناذرة كامارة عازلة تدفع عنهم خطر البدو وتحمى أطراف الدولة من ناحية العراق [٣] ، غير أن الدولة الساسانية قضت على هذه الامارة قضاء تاما فى مستهل القرن السابع الميلادى ، فأدى ذلك الى افساح المجال أمام الغزوات العربية لتتوغل فيما بعد فى منطقة العراق •

الخلاصة أن ايران فى عصر الساسانيين أصبحت ضحية لوضعها الجغرافى • وبعض المؤرخين يشبه الأمة الايرانية التى قدر لها أن تصارع هذه القوى بالأمة الألمانية التى سقطت فريسة الصراع مع القوة الصقلية فى الشرق والقوة اللاتينية فى الجنوب • أو بعبارة أخرى بدت الدولة الساسانية سنة **٦٢٨** •م كأنها جثة لا حراك بها ينهشها الأعداء من كل

---

(١) أسد رستم جـ ١ ص ٢٢٦ •

(٢) استغل الأتراك فرصة الحرب الفارسية البيزنطية بين موريقيوس وكسرى أنو شروان فطالبوا بزيادة الأتاوة السنوية التى كان الفرس يدفعونها لهم • وقد غضب الامبراطور الايرانى ورفض دفع الأتاوة المطلوبة فقام خاقان الترك من ولخ عاصمته بعشائره وجموعه وقصد ايران غازيا فبعث الفرس جيشا كبيرا لصدهم فهزمهم وفشل الخاقان فى المعركة كما أسر ابنه فى معركة أخرى ودخل الفرس عاصمة الترك •

أنظر : أسد رستم جـ ١ ص ٢٠١ •

(٣) كريستنسن ص ٣٥٨ •

طرف : البيزنطيون من الغـرب ، والعـرب من الجنوب ، والأتراك من الشمال الشرقى •

وهنالك حقيقة أخرى نحب أن نشير اليها لكى نكشف القناع عن خفايا الأوضاع الداخلية فى ايران وهى من صنع الســاسانيين ومن نتائج ثورتهم : وهى أن الثـورة التى أعلنها أردشير مؤسس الدولة الســاسانية قامت على دعوة دينية ، باحياء الدين المجوسى القديم ، دين زردشت ، هذا الدين الذى كان قد ضعف منذ أيام المقدونيين وغزواتهم (١) •

كان هذا البعث الدينى من أهم الأســباب التى ســاعدت على نجاح الحركة الساسانية غير أن هذا الاحياء كانت له نتائجه السيئة ، فقد أدى الى تسلل الزردشت الى حياة الشعب كلها : تحكموا فيها وسيطروا على جميع مظاهر النشاط البشرى فى ايران • فمثلا تسللوا الى الحياة الاقتصادية ، فمنحوا الاقطاعات العظيمة ، وأصبحوا طبقة من كبار الملاك، وتمتعوا بالاعفاء من الضرائب بل أباحت الدولة لهم أن يفرضوا الضرائب اذا شاءوا ، يقول كريستنسن « ولا يســتند تأثير رجـال الدين الى سلطانهم الروحى والى حق القضاء الذى خولتهم الدولة والى سلطانهم فى اثبات شــهادات الميلاد وعقود الزواج وغيرها ، والى قيامهم بالتطهير ورعاية القرابين فحسب ، ولكن تأثيرهم يستند أيضا الى أراضيهم التى يملكونها • ومن ناحية أخرى كانوا يتمتعون باستقلال بعيد المدى ، وأنهم كانوا يكونون بالتقريب دولة داخل الدولة (٢) » •

ومعنى هذا أن أيديهم أطلقت فى الشئون الاقتصادية ، وفى الوقت نفسه امتد سلطانهم الى النواحى الادارية ، وشــاركوا الملك فى شــئون الحكم • وبهذا أضافوا الى السيطرة الاقتصادية سيطرة ادارية • وكانت المتاعب التى سببوها قد مهـدت الطريق أمام بعض المذاهب الأخـرى كى

---

(١) كريستنسن ص ٣٥٨ •

(٢) كريستنسن ص ١٠٥ •

تتسلل الى حياة الايرانيين • وفى العصر الساسانى انتشرت مذاهب أخرى لقيت قبولا من الشـــعب الايرانى الذى ضـاق بالمجـوس وباستبدادهم وتحكمهم • من هذه المذاهب « الديانة المانوية » وتنسب الى مصلح يسمى مانى ، ظهر فى المدائن أيام سابور الأول • وكانت دعوته تجمع بين تعاليم المسيحية واليهودية والمجوسية ، وتكاد أن تتجه اتجاها روحيا صرفا [1] • ثم المزدكية نسبة الى رجل ايرانى ظهر فى اقليم خراسان يسمى مزدك • وكانت تعاليمه تجنح الى شيوعية الثروة والأسرة • هذا بالاضافة الى بعض المظاهر الاشتراكية الأخرى • وقد لقى هذا المذهب قبولا من الجماهير التى عانت من ظلم الطبقات الممتـازة • وتفشت بينهم ودفعت بهم الى الثـورة السافرة التى هدت كيان الدولة وأضعفت من سلطانها [2] •

ولا يعنينا هذا التسرب ، انمـا الذى يعنينا أن الزردشت اسـتغلوا أوضاعهم الاقتصادية والادارية فى توريط الدولـة فى حـركة اضطهاد دينى كبرى •

ويذكر المؤرخون أن الساسانيين خرجوا عن تقاليدهم الموروثة التى تقوم على الحرية الدينية الى أبعد الحدود وسايروا المجوس فى هذه الحركة الاضطهادية الكبيرة • فكانت جماهير المضطهدين عدة العـرب فى فتحهم وهم الذين رجحوا كفة العرب فى الصراع الذى شهدته أرض ايران •

ويمكننا أن نضيف الى ما سبق ذكره ، بعض التطورات الاجتماعية التى أسهمت فى زلزلة الكيان الايرانى • ذلك أن الحياة الاجتماعية عند الايرانيين كانت تقوم على أساس الطبقية الجامدة الى أبعد الحدود ، وهى من هذه الوجهة تشبه الى حد كبير الحياة الاجتماعية عند الهنود [3] • ويخيل الينا أن سبب هذا الجمود فى الحياة الاجتماعية يرجع الى أن نظام الطبقات

---

(١) عن المانوية بالتفصيل • أنظر كريستنسن ص ١٦٩ ــ ١٨٤ •
(٢) كريستنسن ص ٣٢٥ ــ ٣٢٧ •
(٣) المصدر السابق ص ٣٠٢ ، ٣٠٥ •

هذا كان نظاما له قداسته ، ووردت اشارات اليه فى الكتاب المقدس عند الايرانيين المسمى بكتاب الاوستا ، وهو الكتاب الذى كان ينظم الحياة الطبقية ويخلع عليها صفة القداسة •

وقد قسم هذا الكتاب المجتمع الايرانى الى أربع طبقات منها ثلاث ممتازة هى : (١)

طبقة رجال الدين ، وطبقة العظماء وتشمل الملك والاقطاعيين وقواد الجيش ورجال الحرب ، ثم طبقة الزراع •

أما الطبقة الرابعة فهى طبقة أصحاب الحرف من العمال والصناع • وأفرادها يكلفون بخدمة الطبقات الثلاث الممتازة • وقد ورد ذكر هذه الطبقات فى الكتب العربية والفارسية فأشار اليها الطبرى والمسعودى والدينورى كما ذكرها الفردوسى فى الشاهنامة • قيل ان جمشيد هو أول ملك ايرانى قسم الايرانيين الى أربع طبقات •

وكانت طبقة الزراع تشكل الغالبية العظمى من الايرانيين ، فلما اضطهدت سياسيا واقتصاديا بسبب فساد النظام الاقطاعى الذى كان متحكما صارت مستعدة للثورة على الاضطهاد •

وقد اتحدت هذه الطبقة فى أواخر عصر الساسانيين مع طبقة أصحاب الحرف فى طبقة واحدة سميت طبقة العمال المدنيين وأخذت تحس بوجودها وتطالب بحقها فى حياة أفضل • ولكن طبقة العظماء أنكرت هذا الحق وأصرت على منع أفراد طبقة العمال المدنيين من مزاولة نشاطهم الاجتماعى والسياسى مما جعلهم يرحبون بالفتح العربى •

ويمكننا أيضا أن نضيف الى هذا ان ايران كانت فى الحقيقة مقسمة الى اقليمين مختلفين فى الاتجاه الحضارى والفكرى ، لأنهما كانا مختلفين فى عناصر السكان والتوجيه الجغرافى والحياة الاجتماعية : فقد كانت

---

(١) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ص ٧٥ ـ ٨٧ •

مقسمة الى اقليم العراق العجمى ، وهذا الاقليم ثقافته سامية منذ القدم ، وحياته زراعية وكانت عاصمته المدائن •

أما الاقليم الآخـر فهو ايران الخالصـة التى اكتسبت صبغة ايرانية صحيحة ومثلت الحياة فى عصر النهضة الايرانية ، وكانت عاصمتها مدينة اصطخر • وقد ظهر هذا الانقسام بين الاقليمين بوضوح فى حوادث الفتح العربى • فبينما استسلم العراق السـامى للفتح العـربى تركزت المقاومة الفعليـة للعنصر الايرانى وللثقـافة الايرانيـة فى هـذا الاقليم الايرانى الخالص •

هذه هى الظروف التى أحاطت بالحياة الايرانية والتى تفسر لنا الكثير من أحداث الفترة الهامة التى بدأت فى تاريخ الشرق الأوسط منذ سنة ٦٣٤ (٢١ هـ) فصاعدا وهى سنة البداية الأولى الحقيقية للفتح العربى لبلاد العراق وايران •

الفصل الثانى
الفتح العربى للعراق وايران (١)

كان الفتح العربى للعراق وايران فى الحقيقة أهم الأحداث فى تاريخ الشرق الأوسط ، لما ترتب عليه من نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ هذا الشرق وحضارته ، فقد اختفت الدولة الساسانية التى كانت تلعب الدور الرئيسى منذ القرن الثالث الميلادى ، وكان وجود الدولة الساسانية يعد أهم ملامح تاريخ الشرق الأوسط •

ومن الغريب أن هذه الأحداث على أهميتها غامضة الى أبعد الحدود فهى ما زالت فى حاجة الى مزيد من البحث ، ولعل السبب فى هذا أن المصادر البيزنطية المعاصرة للفتح العربى لايران لم تعن بتدوين أخبار هذا الفتح ، بسبب انشغال الدولة البيزنطية بأحداث الفتح العربى لأراضيها ، على حين نجد الكتب الفارسية قد ضاع أكثرها بعد انتهاء المقاومة • فلم يبق الا أن ندرس هذه الأحداث من المصادر العربية ، علما بأن العرب دونوا هذه الأخبار بعد حوادث الفتح بفترة طويلة •

وأحداث فتح العراق وايران تشبه من وجوه كثيرة أحداث الفتح العربى لبلاد الأندلس من حيث ارتباط الفتحين بطبيعة الاقليمين الجغرافية وأثر هذه الطبيعة فى أحداث الفتح واتجاهاته كما أن وجه الشبه يظهر أيضا فى طول الفترة التى وقعت فيها الأحداث والتى تم فيها الفتح • فالمعروف ان الامبراطورية الايرانية كانت تتألف من أقاليم جغرافية ثلاثة :

---

(١) لدراسة الفتح العربى للعراق وايران بالتفصيل •
انظر : البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٥٠ ــ ٤١٠ •
وشكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى ص ٣٧ ــ ٧٦ •

العراق العربى والعراق العجمى الذى يقع بين دجلة والفرات ويمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الايرانية ، والاقليم الثالث وهو الهضبة الايرانية الصميمة التى تمتد من سلسلة جبال ايران حتى هضاب آسيا الوسطى •

كل اقليم من هذه الأقاليم يمثل مرحلة من مراحل الفتح قائمة بذاتها لها اتجاهاتها ومقوماتها ، كما أن كل مرحلة منها ترتبط بمعركة شهيرة قررت مصير الاقليم ومكنت العرب والثقافة العربية من التغلب والانتشار• ولنضرب لذلك مثلا فنقول : ان اقليم العراق العربى تقرر مصيره بعد معركة الحيرة ، واقليم العراق العجمى تقرر مصيره بعد القادسية ، والاقليم الأخير تقرر مصيره بعد معركة نهاوند • وسنحاول أن نعرض لأحداث الفتح فى كل مرحلة من هذه المراحل •

بدأت المرحلة الأولى بداية تختلف عن بداية الفتح عادة ، ذلك أن بعض القبائل العربية المقيمة بأطراف العراق والتى كانت قد أحرزت نصرا على الفرس فى بعض المناوشات المحلية التى حدثت قبيل ظهور الاسلام ، كانت ترقب الأحداث الكبيرة التى جرت فى شبه جزيرة العرب ، فكانت ترقب حركة الردة وتوفيق المسلمين فى القضاء عليها ، وكانت تعجب لمسلك الدولة الجديدة من هذه الأحداث وتعجب بصفة خاصة بالانتصارات التى أحرزها خالد بن الوليد فى محاربة المرتدين •

ولهذا نرى هذه القبائل تكتب الى الخليفة وتطلب الاذن ببداية الفتوح • وربما كان طلبها ذاك رغبة منها فى أن تنساق مع الحركة الدافقة وأن تستفيد منها ، أو ربما رغبة منها فى تأكيد اعتناقها الاسلام بالمشاركة فى الجهاد •

لهذا كتب المثنى بن حارثة الشيبانى الى الخليفة أبى بكر يطلب أن يأذن له بفتح العراق [1] ، فاذن له وانضم اليه خالد بن الوليد فكانت البداية الأولى للفتوح العربية للعراق •

---

(١) انظر رواية البلاذرى عن المثنى بن حارثة قال

« قدم المثنى على أبى بكر فقال له يا خليفة رسول الله استعملنى على =

ومن غريب الأمر أن الدولة الساسانية لم تكن تعلم بأهمية هذه التطورات التى جرت على حدودها الغربية والتى كان مسرحها بلاد العرب • الدليل على ذلك أنها واجهت التقدم العربى بالأسلوب القديم نفسه ، الذى كانت تواجه به الغزاة العرب قبل الاسلام • اذ عهدت الى الحاميات المحلية وبعض العرب المرتزقة بدفع هذا الغزو • وانتهى الأمر بأن دخل العرب مدينة الحيرة • وكان نصر العرب عند الحيرة الذى قرر مصير العراق العربى والسبب أن فتح الحيرة تم بعد معاهدة معروفة تسمى معاهدة الحيرة [1] ، وهى تشبه المعاهدات المألوفة من حيث ضمانها لحرية العقيدة وحرمة النفس والمال ، وتنظيمها لوضع أهل الذمة ، فكانت هذه المعاهدة ذات أثر عظيم فى نفوس الطبقات الفقيرة من سكان العراق العربى والعراق العجمى • بل كان فتح الحيرة نموذجا للفتوح العربية التى شهدتها ايران فيما بعد • وأصبحت الحيرة بعد فتحها قاعدة عربية كبرى تتركز فيها الامدادات والقوات لاتمام المراحل الأخرى [2] •

أما المرحلة الثانية وهى فتح العراق العجمى فتتمثل فيها المقاومة الحقيقية للامبراطورية الايرانية مستخدمة أسلحتها كلها ، اذ يبدو أن الايرانيين خصوصا بعد فتح الحيرة ، اعتقدوا أن الفتح العربى ليس غارات تغير ثم تعود ، انما هى أهداف تريد أن تنطلق ، وكان على الدولة ـ اعتمادا على تراثها القديم ـ ان تركز الجهود لتلقين العرب درسا ، فكان

= من أسلم من قومى أقاتل هذه الاعاجم من أهل فارس فكتب له ابو بكر فى ذلك عهدا • وكان مذعور بن عدى العجلى قد كتب الى ابى بكر أيضا يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليته قتال الفرس • وكذلك فعل سويد بن قطبة الذهلى من بكر بن وائل ومعه جماعة من قومه • الفتوح ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ •

(١) لخص البلاذرى بعض نصوصها على هذا النحو :

فصالحوا (خالدا) على مائة الف درهم ويقال على ثمانين الف درهم فى كل عام وعلى أن يكونوا عيونا للمسلمين على أهل فارس وألا يهدم لهم بيعة ولا قصرا وألا يبغوا المسلمين غائله ••• فكان الذى أخذ منهم أول مال حمل الى المدينة من العراق •

انظر : البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٥٢ •

(٢) شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ص ٤٤ و ٦٣ •

أن قامت بحشد قواتها كلها ، والقاء هذه القوات فى معركة فاصلة [١] .
وكانت الدولة الساسانية قد نعمت ببعض الاستقرار الداخلى تمثل فى تولى يزدجرد والتفاف الناس حوله وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته . كما عمدت الدولة الى التجنيد العام الشامل ، ووزعت الفرق فى كل انحاء الأرض التى احتلها العرب . وفى الوقت نفسه أثاروا السكان وألبوهم على المسلمين حتى نقضوا العهود والمواثيق [٢] .

ويبدو أن العرب من ناحيتهم لم يكونوا أقل ادراكا لقيمة هذا الصراع وأثره فى تقرير مصير الاسلام . وكان عمر فى ذلك الوقت قد تولى الخلافة ، واتخذ المسلمون خطوات بعيدة الأثر .

ويتمثل موقف المسلمين فى كتاب عمر الى سعد وفى وصية المثنى لسعد بن أبى وقاص . ويستفاد من كتاب عمر من ناحية ومن وصيته المثنى من ناحية أخرى أن المسلمين واجهوا الخطة الفارسية بالاجراءات الآتية :

الانسحاب وخروج المثنى والقواد الآخرين بحامياتهم من الأرض التى احتلوها . ثم التراجع والتفرق فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود الأرض العربية والأرض الفارسية . فنزل المثنى فى ذى قار ونزل الناس الطف . ومقابلة تجنيد الفرس العام بتجنيد عربى عام فالمثنى استنفر الناس وكتب عمر الى عماله على الكور والقبائل ألا يدعوا احدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبوه ووجهوه الى المدينة [٣] .

فكانت المعركة الشهيرة معركة القادسية ، التى تمثل الصراع الحقيقى

---

(١) يتمثل عنف المقاومه الفارسية فى حملة ابى عبيد بن عمرو الثقفى فى مستهل خلافة عمر فى معركة الجسر وقتل فيها ابو عبيد ، ثم قتل أخوه الحكم ، واستشهد كثيرون من المسلمين . وبلغ من كثرة الخسائر ان الخليفة عمر مكث سنة لا يذكر العراق . وانه كان يدعو الناس الى العراق فيتحامونه ويتثاقلون عنه حتى هم أن يغزو بنفسه .

(٢) شكرى فيصل : حركة الفكر الاسلامى ص ٥٦ .

(٣) شكرى فيصل ٥٦ ــ ٥٧ .

بين الدولة الساسانية وبين المسلمين ، ويتمثل فيها عنف المقاومة من ناحية الفرس ثم عمق الايمان من ناحية العرب ، واستمرت ثلاثة أيام انتهت بنصر حاسم كان أشبه بالمعجزات [1] .

والمعارك الحاسمة فى تاريخ البشرية يتريث المؤرخون عندها قليلا ليبينوا أثرها فى سير الأحداث . وممن درس آثار القادسية فى تاريخ الشرق الأوسط المؤرخ الفرنسى Grousset اذ يقول : « ان هذه المعركة أثبتت أن الدولة الساسانية كانت قد فسدت أمورها وتعفنت نظمها بدليل أنها جمعت أسلحتها كلها لخوض معركة فاصلة ، ولم يكن للعرب من سلاح غير سلاح الايمان . وفى هذه المعركة الفاصلة سقط علم أردشير فى يد الفاتحين العرب وانتصرت الجمهورية الفتية على الامبراطورية العتيقة » .

وكما قررت الحيرة وما تلاها من وقائع مصير العراق العربى فان موقعة القادسية قررت مصير العراق العجمى ، اذ أن الفرس كفوا عن المقاومة فى هذه المنطقة وأسلموها غنيمة للعرب الذين انفتحت أمامهم سهول العراق . بدليل أن العرب دخلوا العاصمة المدائن دون مقاومة . والبلاذرى [2] يعطينا صورة طريفة عن اللقاء الأول بين العرب البدو وبين حضارة مترفة حين دخلوا قصور آل ساسان ورأوا ما فيها من تحف ، وما فيها من فن . على كل حال استطاع العرب أن يسيطروا على هذا الاقليم كله .

والمرحلة الثالثة وهى فتح ايران ، تتمثل فيها المقاومة الحقيقية للفتح العربى ، فقد تم فيها اللقاء الحقيقى بين العنصر العربى والعنصر الايرانى ، بين الثقافة العربية والثقافة الايرانية ، وتمكن العرب من مهاجمة قلب الأمة الايرانية ومهاجمة ايران نفسها ، لأن العراق بقسميه كان ولاية

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٤ ـ ٢٧١ ـ كريستنسن ص ٤٨٣ .

(٢) البلاذرى ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

خاضعة للنفوذ الفارسى • وهنا نجد وجها للاختلاف بين التقاء العرب فى هذه المرحلة الايرانية وبين التقائهم بالبيزنطيين ، فالعرب لم يفلحوا فى اختراق قلب المقاومة البيزنطية فبقيت آسيا الصغرى صامدة حتى مجىء السلاجقة •

وفى هذه المرحلة أيضا تم التقاء العرب بالطبيعة الايرانية الخالصة ، الطبيعة الجبلية والهضبية واضطر العرب الى القتال فى أجواء تختلف عما ألفوه • وبدا واضحا أن الدولة الساسانية حاولت الافادة من هذه الطبيعة بقدر المستطاع • فقد تحصنت المقاومة الساسانية عند سفح الهضبة أو عند سفح الجبال فى معركة جلولاء • وكان الأعاجم قد تحصنوا وخندقوا وجعلوا عيالهم وثقلهم بخانقين ، وتعاهدوا ألا يفروا ، وجعلت الأمداد تقدم عليهم من حلوان والجبال ••• فاقتتلوا قتالا شديدا لم يقتتلوا مثله رميا بالنبل وطعنا بالرماح حتى تقصفت ، وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت [(١)] ••

وكان انتصار العرب فى هذه المعركة يحمل أكثر من معنى ، اذ أن معناه أن الفتح العربى لن يعبأ بطبيعة جغرافية ، انما هو مد يريد أن ينطلق مهما كانت النتائج • ومعناه صدق ما ذكرنا من سوء الأحوال فى الدولة وان قليلا من المقاومة الناجحة كان كفيلا باستخدام الطبيعة فى صد الفتح العربى •

ثم مضى العرب فى نصرهم ومضى الساسانيون فى هزائمهم حتى كانت معركة نهاوند التى استطاع العرب فيها أن يقضوا على المقاومة الساسانية قضاء تاما وأن يوغلوا فى صميم الوطن الايرانى وقلب الهضبة الايرانية •

وقد كان الزحف العربى من الحيرة حتى نهاوند زحفا غير منظم حقق نصرا للعرب تعقبوا بعده العدو المهزوم الذى ولى الأدبار • وكان

---

(١) البلاذرى ص ٢٧٣ •

واضحا أن نجاح الفتح العربى كان يتوقف على أن يتحول العرب من هذا الفتح البطولى الى الفتح المنظم الذى يعتمد على خطة مرسومة وعلى ملاءمة حقيقية بين الفتح وبين الطبيعة الجغرافية • وفعلا بدأ الفتح العربى بعد هذه المعـركة الفاصلة يسـير وفقا للخطط المدروسـة ، ويمتاز بطابع التنظيم والملاءمة بين التوسع وبين الحقائق الجغرافية • وكان تنظيم الفتح على هذا النحو من أهم الأسباب التى عملت على نجاح التوغل العـربى فى الوطن الايرانى كله •

ويمكننا أن نقـول ان من أسـاليب هذا التنظيم الجـديد ، انشـاء البصرة [1] والكوفة [2] ، واتخاذهما معسكرين الغرض منهما أن تحشـد فيهما القوات العربية وتخرج منهما لتنفيذ أهداف مرسومة واضحة •

واذا تأملنا فى تطور الزحف العربى بعد انشاء البصرة والكوفة فانا نستطيع أن نقول ان هذا الفتح كان على شـكل (كماشة كبرى) يمضى الجزء الشمالى منها يخترق شمال ايران ، وفعلا استطاع العرب أن يستولوا على منطقة خراسان بل وصل الزحف العربى الى حدود أفغانستان فى عهد عثمان بن عفان • والطرف الجنوبى من حركة الزحف كان يخترق ايران الجنوبية ويتجه نحو الشرق ووصل هذا الزحف فعلا حتى حدود السند•

وقد حاولت بقايا الأسرة الساسانية أن تعتصم ببلاد الصين وأن تعتمد على الصين فى استعادة الأراضى التى فتحها العرب • لكن هذه الحركة لم تحقق الأغراض المرجوة منها واستسلم الايرانيون للفتح •

اتمام فتح ايران كلها : الرى ـ طبرستان ـ قزوين ـ أذربيجان :

كانت الكوفة والبصرة همـا القاعدتان العربيتـان للتوسع الكبير فى ايران وانهاء المقاومة الفارسية • وبدأت القوات العربية المنحدرة من هاتين

(١) البلاذرى ص ٣٥٤ •
(٢) البلاذرى ص ٣٨٤ •

القاعدتين تجرؤ على التوغل فى المناطق الجبليـة الشـمالية • وأول من اضطلع بهذه المهمة الشاقة من قواد عصر الفتح عروة بن زيد الطائى [1] الذى فتح مدينتى الرى وقومس واحتك للمرة الأولى فى تاريخ الاسلام بجموع الديلم ، هؤلاء الديلم الذين سيطفون على سطح الحياة الاسـلامية فى عهد بنى بويه •

وقد قاوم الديلم العرب مقاومة باسلة ، وكبدوهم خسـائر كبيرة ، ولكنهم أذعنوا للحكم العربى آخر الأمر •

وتوالت البعوث العربية من القـواعد العربية الى هذه الجهات حتى صالحت على الجزية « ولا يهـدم لهم بيت نار » • ويبدو أن الديلم الذين نعموا بالاستقلال طوال الحكم الســاسانى ، لم يسلس قيادهم للعرب مرة واحدة فقد أعلنوا الثورة المرة فى اثر الأخرى سنة ٢٥ هـ وأخضعوا من جديد ثم عاودوا الثورة فى عهد معاوية حتى استقام أمرهم للاسلام نهائيا •

وحركة الفتح العربى لم تقف عند هذا الحد ، فقد امتدت الى منطقة بحـر قزوين ذاتها • وكان فتح منطقة قزوين من قاعدة الكوفة أيضا ، ذلك أن المغيرة بن شـعبة عهد الى البراء بن عازب [2] باتمـام هذه المهمة الشاقة فاستولى على حصن أبهر ثم هاجم قزوين •

ومن الغريب أن الديلم وقفوا من هذه المعركة العنيفة وقفة المتفرج، وقفوا على الحياد دون أن ينحازوا الى أى الطرفين [3] • ويبدو أن وقوف الديلم على الحياد فى هذه المعركة الحاسمة كان سببا فى انتصار العرب• وقد قدر العرب للديلم هذا الصنع فعوملوا معاملة المسلمين ، أظهروا الاسلام

---

(١) البلاذرى ص ٣٢٥ •

(٢) البلاذرى ص ٣٢٦ ، ٣٢٩ •

(٣) البلاذرى ص ٣٢٩ •

ونزلوا على كل ما نزل عليه أساورة البصرة من الاسلام [١] • وتحولت أرضهم من أرض خراجية الى أرض عشرية [٢] •

وقد تابع العرب التقدم فاستولوا على جيلان وزنجان • بل امتد الزحف العربى الى أذربيجان باستيلائهم على مدينة أردبيل • ويبدو أن أهل أذربيجان عاهدوا العرب وصالحوهم • « ثم ان المرزبان صالح حذيفة ابن اليمان عن جميع أهل اذربيجان على ثمانية ألف درهم على ألا يقتل منهم احدا ولا يسبيه ولا يهدم بيت نار [٣] » وتولى هذه المنطقة الوعرة ولاة من العرب نذكر منهم حذيفة بن اليمان وعتبة بن فرقد السلمى [٤] •

وقد عاود أهل اذربيجان الثورة فى عهد الخليفة عثمان فحاربهم العرب مرة أخرى [٥] • واستقاموا على الطاعة طوال أيام عثمان • وفى خلافة على بن أبى طالب ولى هذه البلاد سعيد بن سارية الخزاعى حينا والأشعث بن قيس الكندى حينا آخر [٦] •

وكان الفتح العربى مقدمة لهجرات عربية الى هذه البلاد البعيدة • فقد هاجرت قبائل عربية الى أذربيجان وأقامت بها وشاركت مشاركة فعلية فى الدعوة الى الاسلام [٧] • ويبدو أن الحركة الاسلامية فى أذربيجان كانت قد قطعت شوطا بعيدا فى أيام على بن أبى طالب • اذ يستفاد من رواية البلاذرى أن أكثرهم أسلموا وقرءوا القرآن • وأن الخليفة أنزل أردبيل جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب ومصرها وبنى مسجدها [٨] •

---

(١) البلاذرى ص ٣٢٩ •
(٢) البلاذرى ص ٣٣٤ •
(٣) البلاذرى ص ٣٣٤ •
(٤) البلاذرى ص ٣٣٤ •
(٥) البلاذرى ص ٣٣٥ •
(٦) المصدر والصفحة نفساهما •
(٧) البلاذرى ص ٣٣٧ •
(٨) البلاذرى ص ٣٣٧ •

وفى أذربيجان اتصل العرب بجماعات الأكراد كما اتصلوا بالخزريين والديلم فى قزوين • وقد اتجه العرب الى فتح جميع معاقل الأكراد فى منطقة اذربيجان وأرمينية وأذعنت قبائل الأكراد جميعها [1] •

ومما ساعد على تثبيت هذا النصر العربى تمصير مدينة الموصل [2] اذ مصرها هرثمة بن عرفجة البارقى ، والتمصير هنا معناه اختطاط الخطط واسكان القبائل وإنشاء المسجد الجامع ودار الامارة [3] • وأصبحت مدينة الموصل منذ ذلك الوقت قلعة عربية تسيطر على مواطن الاكراد وتضمن استمرار ولائهم للدولة العربية •

ويبدو أن العرب فى العصر الأموى جعلوا منطقة اذربيجان وأرمينية والموصل والجزيرة ولاية واحدة تولاها أحيانا محمد بن مروان بن الحكم، وأحيانا أخرى سعيد بن عبد الملك بن مروان [4] •

والعرب فى هجومهم على ايران لم يتخذوا البر وحده سبيلا اليها ، اذ يكشف البلاذرى عن محاولة جريئة فى تاريخ الفتح العربى ، وذلك بغزو ايران عن طريق البحر وقد تكللت هذه الجهود بالنجاح فى عهد عمر بن الخطاب : ذلك ان العلاء بن الحضرمى عامل عمر على البحرين وعمان استطاع أن يتم سيطرة العرب على الخليج وقام باعداد حملة بحرية قادها الحكم بن أبى العاص وشحنت السفن بالمقاتلة من قبائل عبد القيس والأزد وتميم ، وقد تم لهم الاستيلاء على ساحل ايران الجنوبى وبذلك طوقت ايران من البر والبحر فى وقت واحد [5] •

---

(١) البلاذرى ص ٣٣٩ •

(٢) قال البلاذرى (ص ٣٣٩) :

« وحدثنى العباس بن هشام الكلبى عن أبيه عن جده قال : أول من اختط الموصل وأسكنها العرب ومصرها هرثمة بن عرفجة البارقى » •

(٣) البلاذرى ص ٣٤١ •

(٤) البلاذرى ص ٣٤٠ •

(٥) انظر البلاذرى ص ٣٩٣ ـ ٣٩٥ •

ولأهمية النص نلخصه كمايلى : كان العلاء بن الحضرمى عامل عمر بن الخطاب =

بهذه الحملات المتابعة أتم العرب فتح ايران واخضعوا جميع شعوبها من الفرس والديلم والأكراد والأرمن والخزر •

واذا كان الفتح العربى نجح فى اخضاع ايران على هذا النحو فان تثبيت هذا الفتح والمحافظة عليه ، كان أبلغ أثرا من حوادث الفتح نفسها ، ونستطيع أن نقول ان الأمويين هم الذين نجحوا فى المحافظة على هذه المكاسب وتثبيت النفوذ العربى فى ايران •

ذلك أنه بعد الفتنة التى أعقبت مقتل عثمان وضح أن العرب قد يفقدون ما فتحوه • فقد انتشرت الفتن بين القبائل العربية التى دخلت البلاد بعد الفتح مباشرة • كما أن أهل الذمة من الايرانيين انتهزوا الفرصة لنقض المعاهدات التى عقدها العرب معهم ، هذه المعاهدات التى أتاحت لهم الحماية ومنحتهم الحريات الدينية والمدنية لقاء دفع الجزية •

وقد سادت ايران فى عصر الفتنة ظاهرة خروج أهل الذمة على النفوذ العربى والتى تسمى « ظاهرة كسر الخراج » أو الخروج على السيادة العربية • كما بدأ الأمراء الترك فيما وراء النهر يستعيدون نفوذهم مرة أخرى •

وكان ظهور الأمويين من أهم الأسباب التى عملت على المحافظة على الوحدة الاسلامية ، والابقاء على الفتوح العربية ، وهم أصحاب الفضل فى « التنظيم الثغرى » • اذ استطاعوا أن ينظموا الحدود تنظيما ثغريا ، والتنظيم الثغرى متأثر الى حد كبير بالنظام البيزنطى فى حماية الحدود ،

= على البحرين وقد وجه هرثمة بن عرفجة البارقى من الأزد ففتح جزيرة فى البحر مما يلى فارس ، ثم كتب عمر الى العلاء أن يمد به عقبة بن فرقد السلمى ، ثم ولى عمر ، عثمان ابن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان فدوخهما واتسقت له طاعة أهلها • ووجه أخاه الحكم بن أبى العاص فى البحر الى فارس فى جيش عظيم • ونزل توج وفتحها • ولما أحس الفرس بهذا التهديد البحرى اشتبكوا مع المسلمين عند راشهر (حزمشهر) فهزم الفرس وثبتت أقدام العرب فى جنوب فارس • والبلاذرى يشبه هذا النصر البحرى بنصر القادسية •

وأساسه أن تنشأ سلسلة من الحصون على الحدود ، يركز فيها المقاتلة والجنود والمجاهدون والمرابطون وتحشد المؤن والذخائر ، وتقوم الحصون الثغرية بسلسلة من الغارا تالموسمية اما فى الشتاء واما فى الصيف • وهذه الغارات الغرض منها قبل كل شىء تثبيت خط الحدود والدفاع عنه • وكانت هذه السياسة الثغرية تتضمن أيضا توطين العرب المهاجرين فى مناطق الحدود وجعل هؤلاء المستوطنين أساسا للسياسة الدفاعية •

وكان هذا التنظيم الثغرى يساعد فى وقت الضعف على حماية الحدود من اغارات العدو • كما انه كان فى وقت القوة مركزا للوثوب أو قاعدة للهجوم الى ما وراء الحدود • وقد استطاع الأمويون خاصة فى عهد زياد ابن أبى سفيان وفى عهد المهلب أن يجعلوا منطقة خراسان ثغرا اسلاميا • كما جعلوا منطقة اذربيجان ثغرا اسلاميا وكذلك منطقة كرمان • وبذلك استطاع الأمويون أن يتخذوا القواعد الثغرية أماكن للتوسع فى الجهات المحيطة بايران •

بذلك تمكن العرب فى عهد الراشدين من فتح ايران وتمكن الأمويون من تثبيت هذا الفتح والمحافظة عليه •

ونعتقد أن الفتح وتثبيته كان من أهم الأحداث فى تاريخ الشرق اذ ذاك ، وليس السبب فى ذلك ان العرب استطاعوا ان يزيحوا الساسانيين من عالم الشرق الأوسط ، وأن يخلصوا المنطقة من النزاع التقليدى بين الايرانيين والبيزنطيين ، أو أن هذا الفتح وصل آسيا الوسطى بالبحر الأبيض المتوسط بصلة لم تنفصم طوال العصور الوسطى ، انما سبب هذه الأهمية أن هذا الفتح كان مقدمة لانتشار الاسلام فى ايران • ويرى نولدكه أن الفتح العربى أهم من الفتح المقدونى لأن الهلينية لم تترك فى حياة ايران الا آثارا سرعان ما زالت • أما الفتح الاسلامى فانه ترك فى البلاد آثارا باقية • فللمرة الأولى منذ عهد الاسكندر الأكبر تتحد ايران

وتركستان والسند فى ظل دولة واحدة هى الدولة الاسلامية • بل أتاح الفتح العربى للثقافة الايرانية الاسلامية ـ كما سنرى ـ فرصا أوسع فى الانتشـــار ربما لم تتح لها من قبل ، فقد هاجر الايرانيون الى تركســتان والسند كما هاجر العرب ونشروا ثقافتهم كما نشروا لغتهم [١] •

(١) Barthold : Hist. des Turc d'Asie Centrale pp. 34-35

الفصل الثالث

انتشار الاسلام فى ايران

لكى نعرض لهذه الظاهرة ، ظاهرة انتشار الاسلام يجب أن يكون واضحا أن هذا الانتشار ليس انتشارا للعقيدة الاسلامية فحسب ، وليس مجرد صراع بين الاسلام وبين الديانات الايرانية ، انما هو انتشار ثقافى قبل كل شىء ، انتشار اللغة العربية وثقافتها ذات الطابع الدينى المعروف ، ثم هو تنظيم سياسى معين لأن الدخول فى الاسلام كان يعطى حق المواطنة فى الدولة الاسلامية ، ويتيح للمسلمين الايرانيين أن يشتركوا فى النشاط السياسى للأمة ، ثم هو أيضا يمثل نشاطا اقتصاديا لأن العرب جلبوا معهم نظريتهم فى الضرائب والملكية وسبل الانتاج الزراعى وغيره من وجوه الانتاج ، ثم هو فى الوقت عينه تطور اجتماعى ، فهو تغير فى نظام الأسرة وفى حياة المدينة وفى التركيب الطبقى .

وهذا الوجه من تاريخنا الاسلامى لم يدرس بعد الدراسة الكافية ، فالمؤرخون المحدثون كانت عنايتهم أشد بالأحداث السياسية أو بمعالم النهضة الفكرية أكثر من العناية بالكشف عن جذور هذا التطور العميق. وكل ما نعرفه هو أن هذا التطور وصل الى نتيجة واضحة منذ القرن الثانى الهجرى فصاعدا ، حينما صار وجه ايران اسلاميا خالصا . ثم تتابعت انتصارات الفرس السياسية حتى أصبح لهم التوجيه الأكبر فى الحياة الاسلامية كلها فى عهد بنى بويه ، كما وضحت آثار الحضارة الساسانية فى الحضارة الاسلامية : فى العقائد والثقافة والنظم والفن .

ودراسة انتشار الاسلام فى ايران تتطلب توضيح النواحى الآتية :

١ ـ العوامل التى مكنت الاسلام من النجاح والانتشار .

٢ ـ تطورات الحركة الاسلامية ، أو بمعنى آخر تتبع حركات دخول الايرانيين فى الاسلام .

* * *

١ ـ العوامل التى مكنت الاسلام من الانتشار

نعتقد أن أهم هذه العوامل هو ما يمكن أن نسميه بالسياسة العامة للدولة الاسلامية فى ايران . هذه السياسة التى وضعت أصولها زمن الفتح أو بعده بقليل .

وكانت هذه السياسة تتألف من أركان كثيرة أهمها معاملة أهل الذمة لأن هذه المعاملة كانت من أهم الأسباب التى هيأت الذميين نفسيا لتقبل الدعوة الى الاسلام والاقبال على الحضارة العربية .

والمعروف أن سياسة الدولة العربية كانت تنبع من المعاهدات وعقود الصلح التى عقدت مع المدن المفتوحة . ولأهمية هذه المعاهدات رأيت أن أجمع نصوصها على النحو التالى :

١ ـ معاهدة الحيرة (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمرا ابنى عدى ، وعمرو ابن عبد المسيح ، واياس بن قبيصة ، وحيرى بن أكال ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به :

عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن

---

(١) البلاذرى ص ٢٥٢ : محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٩٠ .

أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسيهم الا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا تاركا لهـا ـ وعلى المنعـة • فان لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم • وان غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة •

وكتب فى ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة •

٢ ـ معاهدة خالد مع أهل نانقيا وباروسيا وأليس (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى : انك آمن بأمان الله اذ حقن دمك باعطاء الجزية • وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل جزيرتك • ومن كان فى قريتك نانقيا وباروسيا ألف درهم • فقبلتها منك ، ورضى من معى من المسلمين بها منك • ولك ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم وذمة المسلمين عن ذلك • وشهد هشام بن الوليد •

٣ ـ كتاب خالد لبلاد عانات (٢)

مر خالد ببلاد عـانات فخـرج اليه بطريقهـا فطلب الصلح فصالحه واعطاه ما أراد :

على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ، وعلى أن يضربوا نواقيسهم فى أى سـاعة شاءوا من ليـل أو نهار ، الا فى أوقات الصلوات ، وعلى أن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم •

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (وثيقة ٢٩٢) ص ٢٩٢ •

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٢ وثيقة ٢٩٧ •

٤ ـ معاهدة خالد مع أهل البهبقباذ (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاد بن بهيش وصلوبا ابن نسطونا :

ان لكم الذمة وعليكم الجزية ، وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهبقباذ الأسفل والأوسط ، على ألفى الف تقبل فى كل سنة ، ثم كل ذى يد سوى ما على بانقيا وبسما • وانكم قد ارضيتمونى والمسلمين • وانا قد أرضيناكم وأهل البهبقباذ الأوسط على أموالكم ، ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم •

شهد هشام بن الوليد ، والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله الحميرى ، وبشير بن عبيد الله بن الخصاصية وحنظلة بن الربيع (وكتب سنة اثنتى عشرة من صفر) •

٥ ـ معاهدة النعمان مع أهل ماه بهراذان (٢)

أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم • لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة ما أدوا الجزية فى كل سنة الى من وليهم ، على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا جنود المسلمين ممن مر بهم فآوى اليهم يوما وليلة ووفوا ونصحوا • فان غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة •

شهد عبد الله بن ذى السهمين والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبدالله (وكتب فى المحرم سنة ١٩ هـ) •

٦ ـ معاهدة حذيفة بن اليمان مع أهل ماه دينار (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار : أعطاهم الأمان على

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (وثيقة ٢٠١) ص • ٢٩٩ ـ ٣٠٠ •

(٢) مجموعة الوثائق (وثيقة ٣٣١) ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ •

(٣) مجموعة الوثائق السياسية (وثيقة ٣٣٢) ص ٣٢٢ •

أنفسهم وأموالهم وأراضيهم • لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم • ولهم المنعة ما أدوا الجزية فى كل سنة الى من وليهم من المسلمين ، على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا جنود المسلمين من مر بهم فآوى اليهم يوما وليلة ونصحوا ، فان غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة •

شهد القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرن وسويد بن مقرن وكتب فى المحرم •

٧ ـ معاهدة أصبهان (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد الله للفاذ وحسفان وأهل أصبهان وحواليها : انكم آمنون ما أديتم الجزية بقدر طاقتكم فى كل سنة تؤدونها الى الذى يلى بلادكم عن كل حالم ، ودلالة المسلم واصلاح طريقه وقراه يوما وليلة وحملان الراجل الى مرحلة ، لا تسلطوا على مسلم • وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم • ولكم الأمان ما فعلتم ، فاذا غيرتم شيئا أو غيره مغير منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم • ومن سب مسلما بلغ منه فان ضربه قتلناه •

وكتب وشهد عبد الله بن قيس وعبد الله بن ورقاء وعصمة بن عبدالله

٨ ـ معاهدة مع أهل الرى (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى نعيم بن مقرن الزينبى بن قولة : أعطاه الأمان على أهل الرى ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء وطاقة كل حالم فى كل سنة ،

(١) الوثائق السياسية (و • ٣٣٣) ص ٣٢٣ •

(٢) مجموعة الوثائق السياسية (وثيقة ٣٣٤) ص ٣٢٤ •

وعلى أن ينصحوا ويدلوا ولا يغلوا ولا يسلوا وعلى أن يقروا المسلمين يوما وليلة ، وعلى أن يفخموا المسلمين • فمن سب مسلما أو استخف به نهك عقوبة • من ضربه قتل • ومن بدل منهم فلم يسلم برمته فقد غير جماعتكم •

٩ ـ معاهدة مع أهل دنباوند وغيرها (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب نعيم بن مقرن لمروان شاه مصمغان دنباوند وأهل دنباوند والخوز واللارز والشرز :

انك آمن ومن دخل معك على الكف ، أن تكف أهل أرضك وتتقى من ولى الفرج بمائتى ألف درهم وزن سبعة فى كل سنة • لا يغار عليك ولا يدخل عليك الا باذن ، ما أقمت على ذلك حتى تغير • ومن غير فلا عهد له ولا لمن لم يسلمه •

١٠ ـ معاهدة أهل قومس (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا من الأمان على أنفسهم وملهم وأحوالهم ، على أن يؤدوا الجزية عن يد عن كل حالم بقدر طاقته وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا • وعلى أن يدلوا • وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوما وليلة من أواسط طعامهم • وان بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة •

---

(١) الوثائق السياسية (وثيقة ٣٣٦) ص ٣٢٤ •

(٢) المصدر السابق (وثيقة ٣٣٦) ص ٣٢٥ •

١١ ـ معاهدة مع أهل جرجان (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان :

ان لكم الذمة وعلينا المنعة ، على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم • ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضا من جزائه • ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم • ولا يغير شيء من ذلك هو اليهم ما أدوا ، وان أرشدوا ابن السبيل ، ونعموا ، وقروا المسلمين ولم يبد منهم سل ولا غل • ومن أقام فيهم فله مثل مالهم ، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه • وعلى أن من سب مسلما بلغ جهده • ومن ضربه حل دمه •

شهد سواد بن قطبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس وكتب فى سنة ثمانى عشرة

١٢ ـ معاهدة مع أهل طبرستان وجيلجيلان (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سويد بن مقرن للعزخان اصبهبذ خراسان على طبرستان وجيلجيلان من أهل العدو :

انك آمن بأمان الله عز وجل على أن تكف لصوتك وأهل حواشى أرضك ولا تؤدى لنا بغية • وتتقى من ولى فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك • فاذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك ولا يتطرق أرضك ولا يدخل عليك الا بأذنك • سبيلنا عليكم بالاذن آمنة

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (وثيقة ٣٣٧) ص ٣٢٦ •

(٢) الوثائق السياسية (وثيقة ٣٣٨) ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ •

وكذلك سبيلكم • ولا تؤون لنا بغية ولا تسلون لنا الى عدو ولا تغلون • فان فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم •

شهد سواد بن قطبة التميمي وهند بن عمر المرادي وسماك بن مخرمة الأسدي وسماك بن عبيد العبسي وعتيبة بن النهاس البكري •

وكتب سنة ثماني عشرة

١٣ ـ معاهدة مع أهل أذربيجان (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل آذربيجان : سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم ، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم • ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن ليس في يديه من الدنيا شيء • لهم ذلك ولمن سكن منهم • وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوما وليلة ودلالته • ومن حسر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة • ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك • ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ الى حرزه • وكتب جندب وشهد بكير بن عبد الله الليثي وسماك بن خرشة الانصاري وكتب في ثماني عشرة

١٤ ـ معاهدة مع عظيم هراة (في أفغانستان) (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة وبوشنج وباد غيس : أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين واصلاح ما تحت يديه من الأرضين

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (و • ٣٣٩) ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ •

(٢) المصدر السابق (و • ٣٤٣) ص ٣٣١ •

وصالحه عن هراة سهلها وجبلها على أن يؤدى الجزية ما صالحه عليه وأن يقسم ذلك على الأرضين عدلا بينهم فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة.

وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر .

١٥ ـ كتاب الأحنف بن قيس الى مرزبان ومرو الروذ (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

من صخر بن قيس أمير الجيوش الى باذان مرزبان ومرو الروذ ومن معه من الأساور والأعاجم :

سلام على من اتبع الهدى وآمن واتقى :

أما بعد : فان ابن أخيك ماهك قدم على فنصح لك جهده وأبلغ عنك . وقد عرضت ذلك على من معى من المسلمين ، وأنا وهم فيما عليك سواء . وقد أجبناك الى ما سألت وعرضت على أن تؤدى من أكرتك وفلاحيك والأرضين ستين ألف درهم الى ، والى الوالى من بعدى من أمراء المسلمين ، الا ما كان من الأرضين التى ذكرت ان كسرى الظالم لنفسه أقطع جد ابيك لما كان من قتله الحية التى أفسدت الأرض وقطعت السبل. والأرض لله ولرسوله يورثها من يشاء من عباده .

وان عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة ، ان أحب المسلمون ذلك وأرادوه . وان لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من ورائك من أهل ملتك جار لك بذلك منى كتاب يكون لك بعدى. ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوى الأرحام . وان أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (و . ٣٤٥) صفحات ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

والرزق وأنت أخوهم • ولك بذلك ذمتي وذمة أبي وذمم المسلمين وذمم آبائهم •

شهد على ما في هذا الكتاب جزء بن معاوية السعدي وحمزة بن الهرماس وحميد بن الخيار المازنيان وعياض بن ورقاء الأسيدي وكتب كيسان مولى بني ثعلبة يوم الأحد من شهر المحرم •

١٦ ـ معاهدة مع أهل دبيل (في أرمينيا) (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

من حبيب بن مسلمة الفهري لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها وشاهدهم وغائبهم :

اني أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج •

١٧ ـ كتاب الى أهل تفليس (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

من حبيب بن مسلمة الى أهل تفليس :

سلم أنتم : فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو : أما بعد :

فان رسولكم تغلي قدم علي وعلى الذين آمنوا معي فذكر عنكم انا كنا أمة ابتعثنا الله وكرمنا • وكذلك فعل الله بنا بعد ذلة وقلة وجاهلية جهلاء • فالحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم والسلام على رسوله وصلواته كما به هدينا • وذكر عنكم تغلي أن قذف في قلوب عدونا منا الرعب فلا حول بنا ولا قوة الا بالله • وذكر أنكم أجبتم سلمنا فما كرهت ولا الذين آمنوا معي ذلك من أمركم •

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (و ٠ ٣٤٦) ص ٣٣٤ ٠

(٢) المصدر السابق (و ٠ ٣٤٧) ص ٣٣٤ ٠

وقدم على تغلى بهديتكم فقومتها والذين آمنوا معى عرضها ونقدها مائة دينار غير راتبة عليكم • ولكن على أهل كل بيت دينار واف جزية ولا فدية • وكتبت لكم عند ملأ من المؤمنين كتاب شرطتكم وأمانكم • وبعثت به اليكم مع عبد الرحمن بن جزء السلمى وهو علمنا من أهل الرأى والعلم بأمر الله وكتابه • فان أقررتم بما فيه دفعه اليكم وان توليتم آذنكم بحرب من الله ورسوله والذين آمنوا على سواء • ان الله لا يحب الخائنين والسلام على من اتبع الهدى •

۱۸ ـ نص المعاهدة مع أهل تفليس (۱)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس ـ من أرض الهرمز ـ بالأمان لكم ولأولادكم ولأهاليكم وصوامعكم وبيعكم وصلواتكم على اقرار بصغار بالجزية على أهل كل بيت نار واف • ليس لكم أن تجمعوا بين متفرق من الأهلات استصغارا منكم للجزية • ولا لنا أن نفرق بين مجتمع استكثارا منا للجزية •

ولنا نصيحتكم وضلعكم على عدو الله ورسوله والذين آمنوا فيما استطعتم ، واقراء المسلم المجتاز ليلة بالمعروف من حلال الطعام أهل الكتاب وحلال شرابهم وارشاد الطريق على غير ما يضر بكم فيه ، وان قطع بأحد من المؤمنين عندكم فعليكم اداؤه الى أدنى فئة من المؤمنين والمسلمين الا أن يحال دونهم فان تبتم وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة فاخواننا فى الدين ، ومن تولى عن الايمان والاسلام والجزية فعدو لله ورسوله والذين آمنوا والله المستعان عليه •

فان عرض للمؤمنين شغل وقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك

---

(۱) مجموعة الوثائق السياسية (و ٠ ۳٤۸) ص ۳۳٦ ـ ۳۳۷ •

ولا ناقض ذلك عهدكم بعد أن تفيئوا الى المؤمنين والمسلمين • هذا عليكم وهذا لكم •

شهد الله وملائكته ورسله والذين آمنوا وكفى بالله شهيدا •

١٩ ـ معاهدة مع أهل موقان (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى بكير بن عبد الله أهل موقان من جبال القبج الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجزاء دينار عن كل حالم أو قيمته والنصح ودلالة المسلم ونزله يومه وليلته • فلهم الأمان ما أقروا ونصحوا وعلينا الوفاء ، والله المستعان •

فان تركوا ذلك واستبان عنهم غش ، فلا أمان لهم الا أن يسلموا الغششة برمتهم ، والا فهم متمالئون •

شهد الشماخ بن ضرور والرسارس بن جنادب وحملة بن جويه وكتب سنة احدى وعشرين •

٢٠ ـ معاهدة مع شهريار وأهل أرمينيا (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهريار وسكان أرمينية والأرمن من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينتقضوا وعلى أهل أرمينية والأبواب الطراء منهم والتناء ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا • على أن يوضع الجزاء عمن

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (و ٠ ٣٥٠) ص ٣٣٩ ٠

(٢) المصدر السابق (و ٠ ٣٥١) ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ٠

أجاب الى ذلك الا الحشر والحشر عوض من جزائهم • ومن استغنى عنه منهم وتعدى فعليه مثل ما على أهل آذربيجان من الجزاء • والدلالة والنزل يوما كاملا • فان حشروا وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا به •

شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبد الله وكتب مرضى بن مقرن وشهد •

هذه المعاهدات التى ذكرت كلها تتجه اتجاها واحدا تقريبا وتنبع من مصدر واحد فقد تضمنت جميعها منح أهل الذمة من الايرانيين حرياتهم الدينية • ذلك أن المجوس عدوا من أهل الذمة ، فكانوا على قدم المساواة مع الديانات الأخرى [1] • وفوق هذا نالوا الحريات المدنية وتكفل المسلمون بحمايتهم وتوفير أسباب الطمأنينة لهم ، وذلك مقابل دفع الجزية التى كانت تتراوح كثرة وقلة حسب الغنى والفقر وكانت تعفى منها طبقات كثيرة من الناس •

كما منحت تلك العقود أهل الذمة حقوقا لم تكن متوفرة لهم من قبل • وفضلا عن هذا تضمنت هذه السياسة استخدام الايرانيين غير المسلمين فى وظائف الدولة خصوصا الوظائف المالية ، لأن ايران كانت بها طبقة الدهاقين التى عرفت بمهارتها المالية ونبوغها فى أعمال الخراج ومعرفتها بالأسرار الادارية والسياسية • وقد استخدم أفراد هذه الطبقة فى عهد الراشدين وكثر استخدامهم فى عهد بنى أمية • كما أبقى العرب على التنظيمات الادارية فظلت سجلات الضرائب فى ايران تكتب بالفارسية

---

(١) أخذت الجزية من مجوس هجر فى عهد الرسول • قال البلاذرى « كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مجوس هجر يدعوهم الى الاسلام ، فان أسلموا فلهم مالنا وعليهم ماعلينا • ومن أبى فعليه الجزية فى غير أكل لذبائحهم ولا نكاح نسائهم » كما أشار الى حديث عمر بعد نصر جلولاء اذ قال « ما أدرى كيف أصنع بالمجوس فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال أشهد على رسول الله عليه وسلم انه قال سنوا بهم سنة أهل الكتاب » •

البلاذرى ص ٨٧ ، ٧٦ • انظر كريستنسن ص ١٣٢ •

ما يقرب من خمسين سنة [1] • وظلت فى خراسـان تكتب بالفارسية بعد الفتح بنحو مائة سنة • كما استخدم العرب العملة الفارسية نفسها ، فبقى الدرهم الفارسى بصوره القديمة أساسا للمعاملات المالية •

تلك هى روح السياسة واتجاهاتها • وقد طبقت هذه السياسة نصا وروحا فى عصر الخلفاء الراشدين [2] • فقد كان عهد الراشدين هو عهد المثالية الاسـلامية وعهد الدعوة الى الاسـلام • بل هنالك من الشـواهد ما يجعلنا نقرر أن العصر الأموى لم يخرج كثيرا عن هذه المبادىء • وظل التسامح الدينى فى عهدهم وقتا طويلا وبقيت عقود الصلح دون أن تتغير ، بل توسع الأمويون فى استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولـة • وكل ما يؤخذ عليهم اتجاههم الى مضـاعفة بعض الضرائب لاعتبـارات تطلبتها ظروف عصرهم ومشاكله • وعهد عمر بن عبد العزيز كان عهدا اسلاميا مثاليا وكان له شأنه فى تطور الدعوة الى الاسلام • وقد حافظ العباسيون على هذه الروح بدورهم وكان العصر العباسى هو عصر النفوذ الفارسى على نطاق واسع •

وقد كان هذا التسامح الاسلامى ذا أثر كبير فى تهيئـة أهل ايران نفسيا لاعتناق الاسلام ، فقد ترك العرب للاسلام الفرصة أن يلتقى التقاء سلميا ، بالديانات الأخرى ، كما أتاح لهذه الديانات فرصة مقارنة ما فيها بما جاء به الاسـلام • ولذلك نرى من الحق أن نقـرر أن أغلب الفرس الذين استجابوا لنداء الاسلام كانت استجابتهم عن ايمان واعتقاد• والدليل على هذا أن طبقات المسـلمين من أهل ايران هم الذين تولوا الدفاع عن

---

(١) انظر ما ذكره البلاذرى عن نقل ديوان الفارسية صفحات ٣٠٨ ـ ٣٠٩ •
Legacy of Persia, p. 64

(٢) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول •
صفحات ٧٦ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١١٤ •

الاسـلام بعد أن تسلموا زمامه ، وقد دافعوا عنه كما دافع عنـه العـرب بحرارة واخلاص [1] •

كما كان للاعفاء من الجزية الذى قررته التقاليد الاسلامية أثر عظيم، لأن الجزية فى ايران كان لها مفهوم غير مفهوم الجزية فى البلاد الأخرى، فكانت الجزية فى مصر البيزنطية يفرضها شعب غالب على شعب مغلوب ، أما الجزية فى ايران فقد كانت نظاما يفـرض على السـاسانيين أنفسهم ، فكانت فرصة الاعفاء تجعل جمـاعات كثيرة من الفقراء تستجيب للحركة الاسلامية [2] •

ونلاحظ مثلا فى عهد عبد الملك بن مروان وعامله الحجاج بن يوسف سخطا عظيما من المسلمين على محاولات الدولة الأموية ابقاء الجزية على من أسلم ، وشارك فى هذا السخط العرب ورجال الدين ، وانتهى الأمر بأن أعفوا من الجزية فى عهد عمر بن عبد العزيز • على كل حال كان عامل الجـزية هذا من العـوامل ذات الأثر الكبير فى تقـرير موقف الفلاحين والعمال من الحكم الاسلامى •

ويمكننا أن نضيف الى هذا كله موقف الدولة الاسلامية من موضوع الخراج وملكية الأرض ، فقد كان موقف الدولة فى هذه الناحيـة يمثل فى نظر الايرانيين تطورا بعيد المدى لأنه تضمن القضاء على الاقطاع الذى ساد فى العصر الساسانى وتحرير الملايين من الناس الذين كانوا يعيشون عبيدا للأرض وليس لهم شىء فيها الا العمل الشاق المتواصل •

وقد قررت الحكومة الاسلامية مبدأ الحيـاة الملكيـة لكافة الفلاحين

---

(١) يذكر ليفى أن جماهير الشعب استمسكت بالاسلام وتعصبت له وأخلصت له كل الاخلاص وأن الردة انما كانت مقصورة على طوائف من الأرسـتوقراطية الايرانية القديمة .

Legacy of Persia, p. 80

(٢) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٧٦ ، ٨١ .

الذين كانوا محرومين منها فكان هذا تطورا بعيد المدى ، وقد صحب ذلك فرض ضريبة الخراج التى كانت بالقياس الى الضرائب القديمة خفيفة العبء [1]. وبديهى أن هذه الحقوق كانت تتضاعف بالدخول فى الاسلام ، فاذا أسلم الايرانى استبدل بنظام الحيازة حق الملكية واستطاع أن يملك الأرض ويتصرف فيها بالبيع والشراء مقابل دفع ضريبة العشر .

والى جانب الخراج وملكية الأرض هنالك العطاء من بيت المال . فقد كان من المفروض أن من حق الايرانيين اذا أسلموا أن يشتركوا فى الجيش وأن يفرض لهم العطاء وقد فرض للمسلمين منهم العطاء من بيت المال وكان هذا العطاء فى عهد معاوية خمسة عشر درهما للفرد فى الشهر الى جانب النفقات الأخرى . وكان هذا العطاء يتضاعف بمضى الوقت . وكان الاشتراك فى الجيش وفرض العطاء من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الاسلام .

ويجب أن نضيف الى ما تقدم ما كان من المحافظة على النظم الادارية والابقاء على الموظفين من أهل البلاد . وقد تأثرت طبقة الموظفين بهذه السياسة فلما وجدت أنها تستطيع أن تحتفظ بوظائفها مع احتفاظها بدينها القديم ، أيقنت أن دخولها فى الاسلام سيضاعف من حقوقها وقد حدث هذا فعلا [2] . فكان اسلام افراد هذه الطبقة يضاعف من حقوقها ويزيد من تمكنها من الناحية الادارية .

ولم يكتف هؤلاء الناس بالدخول فى الاسلام انما اتخذوا اسماء وألقابا عربية للمحافظة على أوضاعهم وزيادة حقوقهم ، وقد ظنوا أن

---

(١) اليك بعض التفاصيل التى وردت فى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٢٧٧ - ٢٨٠) وضع عمر على كل جريب عامر أو غامر يبلغه الماء درهما وقفيزا وعلى جريب الرطبة خمسة دراهم وخمسة أقفزة وعلى جريب الشجر عشرة دراهم وعشرة أقفزة وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وعلى جريب القطن خمسة دراهم .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٤ .

استعرابهم على هذا النحو قد يزيدهم اتصالا بالحكومة العربية فتزداد امتيازاتهم • ومن المؤكد أن هذه السياسة تسللت الى نفوس الطبقة العليا من المجتمع فأسلم الكثيرون من أفراد الطبقة الأرستقراطية واتخذوا أسماء عربية •

أما العامل الثانى فهو على ما نعتقد الفرق الواضح بين التشريع الايرانى الرسمى الذى يتمثل فى الزردشتية التى لم تكن دينا فحسب انما كانت تنظيما للحياة الاجتماعية والاقتصادية والتشريع الاسلامى وهو بدوره لم يكن تشريعا دينيا فحسب انما كان تشريعا اجتماعيا واقتصاديا •

كانت الحياة الايرانية تقوم على دعامتين : النسب والملكية فكان النبلاء تفصلهم عن عامة الشعب حدود محكمة لا يمكن تخطيها • كانوا يمتازون فى كل شىء « فى المركب والملبس والبستان والخدم » [1] • وفى داخل الطبقة الواحدة تجد درجات اجتماعية متفاوتة ولكل فرد مرتبته ومكانه المحدود • وقضت السياسة الايرانية ألا يطمع أحد فى مرتبة أعلى من المرتبة التى يخولها له مولده • وكانت الشريعة تحفظ شرف النسب فى الأسرات كما تحفظ املاك الاشراف • وكانت الأسرة المالكة يباح لأفرادها أن يصهروا الى جميع الملوك الأجانب ولكنهم لا يزوجون بناتهم من غير أفراد أسرتهم • وكانت الأسرات الكبيرة يحفظ لها سجل خاص وكانت الدولة تعنى بحياتهم وتحول بين أفراد الشعب وبين شراء أملاكهم • حتى طبقات العامة كان هناك تمييز واضح بينها • وحرم على أفرادها ان يشتغلوا بغير الصناعة التى خلقوا لها [2] • أما الفلاحون فقد كانوا أسوأ حالا مرتبطين بالأرض يسخرون فى فلاحتها ويساقون الى الخدمة العسكرية• وكانوا أقرب الى العبيد منهم الى الأحرار لم توفر لهم القوانين الحماية التى وفرتها لبقية الطبقات •

---

(١) كريستنسن ص ٣٠٣ •

(٢) كريستنسن ص ٣٠٦ •

وكانت أوضاع الجماعة الساسانية ينظمها قانون مدنى واضح المعالم يقوم على الأوستا والزند [1] • ومن هذه المصادر يتبين أن الأسرة عرفت تعدد الزوجات • وكانت الزوجة الرئيسية أرفع من الزوجة التى تليها مرتبة • وكانت هنالك الزوجات الخادمات من الرقيق أو السبايا • وللمرأة الممتازة الحق فى أن يكفلها زوجها مدى الحياة فى حين أن الزوجة الخادمة لا يلحق من أبنائها بنسب الأسرة الا الذكور • وقد ذكرت الكتب البارسية الحديثة ستة أنواع من الزواج ، لهذا كان النصارى يأخذون على الزردشت سهولة الزواج ويسر الطلاق [2] •

وقد أجاز القانون المدنى الزواج بين المحارم : بين الأب والبنت والأم والابن والأخ والأخت • وقد أشار البطريق ماربها الذى عاصر كسرى الأول الى هذه العادة الذميمة بقوله : « ان العدالة العجيبة عند عباد أومر مزد تقضى بأن يكون للرجل صلات شهوانية مع أمه وبنته وأخته » [3] •

والطفل يعهد بتربيته الى أمه أو عند الضرورة الى العمة أو الابنة البالغة واذا لم يكن الولد بارا بأبيه انتقل ميراث الأب الى أمه اذا ثبتت أهليتها [4] • والأم تعلم ابنتها ولوالدها أن يزوجها لمن شاء ، فلم تكن تملك اختيار زوجها • ولم يأنف هذا القانون من أن يحمى الأطفال غير الشرعيين ، فقد أوجب أن تكون نفقتهم على جدهم لأمهم ، كما قضى أن تكون نفقة الأم على أبيها وألا يضيع حقها فى الميراث [5] • بل أباحت الشريعة للزوج أن ينزل عن زوجته أو احدى زوجاته لرجل آخر أصابته الفاقة ليتكسب بعملها • أما الأطفال ثمرة هذا الزواج المؤقت

---

(١) كريستنسن ص ٣٠٨ •
(٢) كريستنسن ص ٣٠٩ •
(٣) كريستنسن •
(٤) كريستنسن ص ٣١٣ •
(٥) كريستنسن ص ٣١٤ •

فينسبون للزوج الأول ويعتبرون من أبنائه [1] • فكأن المرأة قد أفقدها هذا القانون حريتها وأنزلها منزلة الرقيق • كما أباح هذا القانون زواج الأبدال ، فاذا مات الرجل دون عقب ، زوجوا امرأته من أقرب عصب باسمه [2] • وكان للتبنى أهمية خاصة عند الزردشت فاذا مات الرجل عن ثروة قام عليها ابنه بالتبنى • وقد اشترط القانون فيمن يتخذ ابنا بالتبنى أن يكون بالغا زردشتيا ذكيا [3] •

كما عرض القانون للميراث فأباح للزوجة الممتازة وأولادها أن يرثوا بالتساوى كما حرم الارث على الزوجة الخادم وأبنائها [4] •

وقد ظلت هذه الشريعة متماسكة حتى آخر القرن الخامس حين زلزلتها المزدكية من أساسها • فلم تعد أمام الاسلام وشريعته تستطيع المقاومة أو الصمود • وأين ذلك كله من نزعة الاسلام نحو المساواة والقضاء على الطبقية ؟ وهى نزعة كانت أشد وضوحا زمن الفتح ، وزمن الراشدين • فلا غرابة اذا كان اتجاه التشريع الاسلامى هذا قد ترك أثرا نفسيا بعيد المدى فى طبقة العمال المدنيين ، وطبقة الفلاحين فكانوا أسرع الطبقات دخولا فى الاسلام • هذا الى أن التشريع الاسلامى يعطى الأسرة مكانا واضحا فى الحياة الاجتماعية ، ويعطى المرأة حقها الكامل فى النواحى المدنية والاجتماعية • ولا يعترف بالأبوة الا على أساس النسب والدم • وينظم الأسرة على أساس من الفضيلة والخلق القويم • واذا كان التنظيم الاقتصادى فى التشريع الايرانى قام على نظرية الاحتكار واعطاء الحقوق الاقتصادية لطبقات معينة من المجتمع وحرمان غالبية الناس من حقهم الطبيعى فى الحياة الاقتصادية ، فان التشريع الاسلامى قوامه التكافل الاجتماعى والاقتصادى والمساواة بين كافة الطبقات دون تمييز طبقة على أخرى •

---

(١) كريستنسن ص ٣١٥ •

(٢) كريستنسن ص ٣١٦ •

(٣) كريستنسن ص ٣١٧ •

(٤) كريستنسن ص ٣١٨ •

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام الهجرات العربية الى ايران واستقرار العرب فى هذا الوطن الجديد • فقد كان أغلب هؤلاء المهاجرين من أهل العطاء والديوان ، وكانوا يؤمرون بدعوة الناس الى الاسلام [1] • وكانت القوات التي دخلت العراق فى عهد أبى بكر وعمر وخاضت المعارك الكبرى حتى قضت على ملك الساسانيين واستقرت فى البصرة والكوفة ، هى طليعة المهاجرين الأول الذين انساحوا فى سهول ايران ، واستقر بهم المقام فى ريفها وحضرها على حد سواء • وقد أمكننا مما رواه البلاذرى والطبرى أن نستخلص الحقائق الآتية :

كانت طلائع القوات التى دخلت العراق هى جيش خالد بن الوليد الذى كان يضم صفوة المسلمين ، والذى حارب المرتدين ثم انطلق من اليمامة متجها الى العراق وكان صفوة المهاجرين والأنصار •

كانت تلك هى النواة الأولى لجيش العراق • وقد أصابها بعض التغيير : فقد اذن خالد بالعودة لمن أراد فعاد أهل المدينة وما حولها واضطر خالد أن يطلب المدد من أبى بكر ، وكتب الى الأمراء الأربعة : حرملة وسلمى والمثنى ومذعور باللحاق به فكانوا فى ثمانية آلاف من ربيعة ومضر • وكان هو فى ألفين معه فبلغ الجيش عشرة آلاف • ودعا عمر الناس للقتال مع المثنى ، وبدأت طبقات جديدة من المقاتلة تنضم الى جيش العراق • كان البعث الأول من أهل المدينة وما حولها ألف رجل بقيادة أبى عبيد بن مسعود • وكان البعث الثانى من أهل الردة •

وبعد الجسر بذل عمر جهدا كبيرا فى استنفار القبائل للقتال ، فخرجت الامدادات الآتية : جرير بن عبد الله البجلى فى قوم من بنى بجيله • عصمة بن عبد الله فيمن تبعه من بنى ضبة • نفر من أهل الردة• كنانه والازد فى سبعماية • هلال بن علفة التميمى فيمن اجتمع اليه من الرباب • ابن المثنى الجشمى ومعه قوم من بنى سعد • عبد الله بن ذى

---

(١) كريستنسن ص ٣١٨ ، البلاذرى ص ٣٣٦ •

السهمين فى قوم من خثعم • ربعى وابنه شبث فى أناس من بنى حنظلة • ربعى بن عامر بن خالد المعنود فى بنى عمرو • ابن الهوبر والمنذر بن حسان فى بنى ضبة • قرط بن جماح فى عبد القيس • أنس بن هلال النمرى فى أناس من النمر • ابن مردى التغلبى فى بنى تغلب وبهذه الامدادات تحقق نصر البويب •

أما بعوث القادسية فكان فيها سعد بن أبى وقاص على صدقات هوازن ، وألف من قيس عيلان عليهم بشر بن عبد الله ، وثلاثة آلاف ممن قدم عليه من اليمن والسراة • كما أمد عمر سعدا بعد خروجه بألف يمانى وألفى نجدى من غطفان وقيس • وانتخب سعد من بنى تميم والرباب أربعة آلاف • وكان المثنى فى ثمانية آلاف من ربيعة • كما قدم على سعد الأشعث بن قيس فى ألف وسبعماية من اليمن • وقد بلغ جيش القادسية بضعة وثلاثين ألفا •

وتوالت الامدادات بعد القادسية فقدم هاشم بن عتبة ومعه قيس بن المكشوح المرادى فى سبعماية ، ثم تتابع أهل العراق من أصحاب الأيام مددا لأهل القادسية •

تلك هى الطلائع الأولى التى انتشرت فى جميع انحاء ايران وكانت النواة الأولى للمهاجرين الذين استقروا فيها بعد أن تحقق لهم النجاح العظيم •

وقد استمرت الهجرة العربية بعد عمر بن الخطاب ووضحت فى عهد عثمان ويكفى أن نذكر أن الثورة التى أطاحت بعثمان جاءت من طبقة المقاتلة أو طبقة المهاجرين التى زادت زيادة كبرى فى عهد عثمان واستمر تيار الهجرة طوال العصر الأموى •

ففى عهد معاوية مثلا تمت هجرة الأزد الذين استقروا بخراسان وأصبحوا عاملا هاما فى الحياة السياسية والاجتماعية هناك • وفى خراسان

وحدها تجمع نحو مائتي ألف أسرة عربية. ولما فتح العرب اذربيجان وطنوا فيها فريقا من العرب من أهل العطاء والديوان « وأمرهم بدعاء الناس الى الاسلام » [1] . على كل حال اتجه الأمويون اتجاها واضحا الى توطين العنصر العربى فى مختلف أنحاء ايران . ووضحت هذه السياسة على الخصوص فى عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى ؛ وما كاد القرن الأول الهجرى ينتهى حتى انتشر العنصر العربى فى ايران كلها من الشرق الى أقصى الغرب .

على أن الذى يعنينا من انتشار العنصر العربى هو التقارب التدريجى الذى حدث بين العنصرين : العربى والايرانى . ومن الحق أن نقرر أن العرب فى عصر الخلفاء الراشدين كانوا منصرفين الى الحرب والجهاد ، غير أن خطوات اتخذت لايجاد تقارب بين العنصرين طوال العصر الأموى . ونستطيع أن نحدد ملامح هذا التقارب ووسائله والنتائج التى انتهى اليها . فقد تم هذا التقارب فى المدينة والريف على حد سواء : ففى المدن القديمة مثل الرى وأصفهان مثلا كان العرب الوافدون ينزلون فى المواقع الاستراتيجية ويتعاونون مع أهل البلاد ويختلطون بهم بمضى الزمن.

أما فى المدن الجديدة التى انشأها العرب فى العراق وايران فرغم أن سكانها كانوا من العرب فانها شهدت ظهور أحياء جديدة هاجر اليها المسلمون من الفرس ليعملوا فى خدمة الطبقة العربية خصوصا فى الأعمال اليدوية والمشروعات الصناعية . وكان عدد المهاجرين الى المدن الجديدة يزداد باستمرار . وكان موضوع الهجرة هذا من أهم المشاكل الاجتماعية التى عمل الأمويون على حلها .

والى جانب هذه المدن الجديدة والقديمة تم الاختلاط بين العرب والايرانيين فى الاقطاعات الكبرى المنتشرة فى المناطق الريفية . وكانت وسيلة هذا الاختلاط بين طبقة العرب من ناحية وأهل البلاد هى الزواج،

---

(١) البلاذرى ص ٢٣٦ .

فقد راجت ظاهرة الزواج بالكتابيات • وما لبثت الطبقة العربية الواحدة أن قلدت مظاهر الحياة الاجتماعية فالقبائل التى استقرت بخراسان مثلا سرعان ما اتخذت السراويل لباسا لها واحتفلت بالأعياد الفارسية ، وتعلمت بعض الألفاظ الفارسية ، ولم يقطعوا صلاتهم باعراقهم فى البصرة أو الكوفة • ولم يكن من المستغرب أن تسمع اللكنة الفارسية بين العرب الوافدين حتى اذا كانت الثورة العباسية كان عرب خراسان يتكلمون الفارسية بالطلاقة نفسها التى يتكلمون بها العربية (١) •

وفى معرض الحديث عن عوامل الاختلاط بين العنصرين العربى والايرانى يجب أن نضيف أن طبيعة النضال بين العرب والفرس تولدت عنها نتائج هامة ساعدت على الامتزاج بين العنصرين • فقد كانت طبقة المقاتلة تحوز سبيا عظيما بعد المعارك الكبرى • وقد نقل أغلب هذا السبى الى الجزيرة وتقاسمته الأسر العربية الكبيرة ، لأن صغار الجند كانوا ينزلون عن نصيبهم من الأسرى لحاجتهم الى المال • وهذا السيل من السبى لم يتدفق على المراكز العربية فى شبه الجزيرة فحسب ، بل امتد الى المستقرات العربية فى الشام والعراق ، ولم يترك بيتا الا دخل فيه •

ولعل مما يجعل هذا السبى عاملا من عوامل الاختلاط بين العرب والايرانيين كثرة عدده فقد كان يفوق أعداد المقاتلة العرب فى الجيوش والمعسكرات وأنهم خالطوا العرب مخالطة عميقة عن طريق الزواج والولاء والتبنى والتسرى • وقد وجدوا فى الاسلام ما يمكنهم من التحرر وما يفتح أمامهم سبل الظهور •

ومن نتائج هذه الهجرات التى استقرت على النحو الذى بيناه وهذا السبى العظيم ، أن نشأت طبقة جديدة من المولدين ، آباؤهم عرب وأمهاتهم أعجميات • وقد ازداد عدد أفراد المولدين حتى أصبحوا عماد الحركة الاسلامية فى ايران •

---

(١) Legacy of Persia p. 74

٢ – تطور الحركة الاسلامية فى ايران :

بعد أن عرضنا لعوامل انتشـار الاسـلام نريد أن نتتبع الحـركة الاسلامية وتطوراتها المختلفة • والحقيقـة أن موضـوع تطور الحـركة الاسلامية من أشد الموضوعات غموضا فى التاريخ الاسلامى بوجه عام ، وفى تاريخ ايران بخاصة نظرا لقلة المراجع التى تعرضت لهذا الموضوع•

على كل حال نستطيع أن نقول ان من مظاهر هذه الحركة الاسلامية زيادة أعداد المسلمين وبداية اشتراكهم فى الحياة الاسـلامية ، ففى عصر الخلفاء الراشـدين استجاب بعض عامة الفرس من هؤلاء الذين يسـمون بالحمراء للاسلام ، كما استجاب فريق من طبقة الأساورة (الفرسان) • فقد كتب سـعد الى عبد الله بن المعتم وكان على الموصـل يطلب اليـه أن يستخلف على الموصل مسلم بن عبد الله الذى كان قد أسر يوم القادسية وأسلم ممن أسلم من الأساورة • بل استجاب قوم من أبناء البيوتات [1] •

وبدأت الدولة تعتبر هؤلاء المسـلمين الجـدد مواطنين فى الدولـة الاسـلامية تمنحهم الثقة وتوليهم الوظائف • فقد كتب عمـر الى القعقاع ابن عمرو أن خلف على الناس بجلولاء قباذ « فيمن تبعكم الى من كان معه

---

(١) أسلم جميل بن بصبهرى دهقان الفلاليج والنهرين وبسـطام بن نرسى دهقان بابل وخطرنية والرفيل دهقان العال ، وفيروز دهقان نهر الملك وكوثى وغيرهم من الدهاقين فلم يعرض لهم عمر • ولم يخرج الأرض من أيديهم وأزال الجزية عن رقابهم • وكان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شهانشاه فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم فى العطاء فأعطوا الذى سألوه وحالفوا زهرة • وفرض لهم فى ألف ألف • وكان لهم نقيب عنهم يقال له ديلم فقيل حمراء ديلم • وكان سياه الاسوارى على مقدمة يزدجرد عند الأهواز فلما رأى ظهور الاسلام وعز أهله أرسل الى أبى موسى الأشعرى يقول انا قد أجبنا الدخول معكم فى دينكم على أن نقاتل عدوكم •• على أن ننزل بحيث شئنا من البلدان ونكون ضمن من شئنا منكم وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الأمير الذى بعثكم •• فكتب أبو موسى بذلك الى عمر فكتب اليه أن أعطهم جميع ماسألوا • وسار أبو موسى الى جنديسابور فطلب أهلها الأمان فصالحهم على ألا يقتل منهم أحدا ولا يسبيه ولا يعرض لأموالهم سوى السلاح •

أنظر : البلاذرى صفحات ٢٧٤ ، ٢٨٨ ، ٣١٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٩ •
وشكرى فيصل ص ١١٤ •

من الحمراء • كما ولى مسلم بن عبد الله على الموصل كما أسلفنا ، فضلا عما أبيح لهم من حق الملكية ، وما فرض لهم من عطاء ، وما افرد لهم من خطط فى المدن الجديدة » [1] •

وما كاد العصر الأموى يبدأ حتى كانت الحركة الاسلامية فى ايران قد قطعت شوطا واضحا نحو الظهور • ففى مدينة الكوفة قام الموالى المسلمون بأول ثورة سنة ٤٣ هـ فى عهد المغيرة بن شعبة [2] ، واضطر معاوية الى مواجهة هذه الظاهرة الجديدة فعمل على تهجير طبقات من الموالى وحملهم على الاقامة ببلاد الشام • وفى هذا العصر نفسه وضحت الحركة الاسلامية فى ناحية أخرى هى اشتراك الموالى المسلمين فى الجيش فى عهد زياد بن أبى سفيان الذى كون فرقة من الفرس المسلمين بلغت نحو عشرين ألف مقاتل •

ومضت الحركة الاسلامية قدما بعد معاوية وزادت وضوحا فى عهد يزيد وبعد وفاة يزيد بقليل ، الدليل على هذا مستمد من حوادث المجتمع الايرانى فى عهد يزيد وخلفائه • ذلك أن المسلمين من الايرانيين زادت أعدادهم زيادة واضحة وساءهم ما رأوه من تزايد امتيازات العرب فى جميع النواحى العسكرية والادارية والاجتماعية والاقتصادية فبدءوا يشتركون فى الثورات التى قامت فى وجه الأمويين وأصبحوا قوة مرجحة يحسب لها كل حساب • وكان نجاح هذه الثورات يتوقف على أعداد الايرانيين المؤيدين لها • وكانت هذه الثورات تزداد شدة كلما وجدت سندا شعبيا ايرانيا قويا • واتجاه الرأى العام الايرانى يظهر بوضوح من دراسة ثورة الزبيريين وثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى • ونكاد نلمح من مصادر العصر شعور الايرانيين الحقيقى ووزنهم فى ترجيح كفة

---

(١) البلاذرى صفحات ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٣٨٩ وشكرى فيصل المجتمعات الاسلامية ص ٩٩

Legacy of Persia : Persia and the Arabs, p. 61

(٢) ولها وزن : الدولة العربية ص ٤٧٢ •

الطرفين المتنازعين ، ذلك أن الايرانيين المسلمين بعثوا الى عبد الله بن الزبير يطلبون الدخول فى دعوته معتقدين أن الدخول فى هذه الدعوة قد يعطيهم بعض الحقوق التى لم يستطيعوا الحصول عليها فى ظل الحكم الأموى • ولم يستطع عبد الله بن الزبير وأعوانه أن يقدروا قيمة هذا التيـار الايرانى الصاعد ولم يستطيعوا الافادة من هذه القوة الاسلامية النامية التى بدأت تظهر على مسرح الأحداث فى ايران • ونعتقد أن تخلف الزبيريين عن الافادة من هذه العناصر سبب فيما أصابهم من اخفاق وتمكن الأمويون من القضاء على حركتهم •

ثم ظهرت هذه القوة الاسلامية النامية ظهورا واضحا فى ثورة المختار ابن أبى عبيد الثقفى • فقد كانت ثورته تطالب بثأر الحسين فكانت ثورة شـيعية ، وبدأت تلقى تأيـدا قويا من الموالى • وكان هذا التأييد بداية التحالف المعروف بين الفرس والشيعة هذا التحالف الذى انتهى بنجـاح الثورة العباسية وقيام الخلافة العباسية •

واستطاع المختار أن يفيد من هذه القـوة النامية وأن يعتمد عليهـا وقد اشترك فى ثورته نحو ثلاثين ألفا من الفرس المسلمين (١) • ورغم أن هذه الثورة لم تحقق أغراض الايرانيين كاملة الا أنها كانت بمثابة التعبير الأول عن أهدافهم ورغباتهم المتزايدة فى التحرر ونيل حقهم المشروع من المساواة • وانا نجد شبها بين هذه الثورة الايرانية الأولى وبين ثورة أبى مسلم فيما بعد • وكلتاهما تعبير عن وجهة نظر ايرانية واضحة •

ويبدو أن الحركة الاسـلامية قطعت شـوطا أبعد ، وظهرت ظهورا أوضح فى عهد الخليفـة عبد الملك بن مروان وعامله الحجاج بن يوسف وسنتخذ حوادث عهد عبد الملك مقياسا لهذا التطور الاسلامى الكبير •

والأمويون فى هذا العهد بدءوا فعلا يواجهون حركة اسلامية كبيرة

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٥٩ •

وتيارا اسلاميا دافقا • والدليل مستمد من السياسة الأموية فى عهد الملك ، خاصة السياسة الاقتصادية التى بدأ الحجاج يطبقها فى ايران ، اذ يبدو أن الحركة الاسلاميةالنامية هددت الاقتصاد الأموى تهديدا كبيرا ، فأخذ القدر المتحصل من الجزية يتناقص بالتدريج ، بل بدأت تختفى كمورد هام من موارد بيت المال • ولعل هذا هو الذى دفع الحجاج الى ابقاء الجزية على من أسلم لمواجهة هذا التناقص المتزايد فى متحصلات الجزية [1] • وبدأت الحركة الاسلامية النامية تهدد الموارد الاقتصادية الأخرى ؛ لأن الدخول فى الاسلام كان معناه أن الأرض الخراجية التى كان يزرعها أهل الذمة مقابل الخراج ستتحول الى أرض عشرية يتملكها المسلمون • ومعنى هذا يتناقص الخراج كما تناقصت الجزية •

وبدأت الدولة الأموية تتدارك هذا الخطر بابقاء الخراج على ما كان عليه [2] ، كما بدأ المسلمون الجدد يهجرون الريف الى المدينة ويقيمون فى المدن الكبيرة بغية الحصول على العطاء والافادة من التطورات الاقتصادية الجديدة ، واذا بتيار الهجرة يهدد بتقويض الحياة الزراعية ، وتجد الدولة الأموية نفسها مضطرة الى مقاومة هجرات جماعات المسلمين •

وكان موقف الشعب الايرانى المسلم من هذه السياسة يدل فى وضوح على تزايد التيار الاسلامى ، فالرأى العام فى ايران لم يرض عن هذه السياسة وتجلى سخطه فى ثورات أو حركات سياسية أشد وضوحا وقوة من الحركات السابقة كالثورة التى تزعمها عبد الرحمن بن الأشعث، كانت ثورة ايرانية حقة تتناسب مع زيادة جماهير المسلمين [3] • فقد اشترك فى هذه الثورة عشرون ألفا من المقاتلة الايرانيين وانضم اليهم

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٣٥ •

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٦ •

(٣) اليعقوبى جـ ٣ ص ٢٤ •

الحريصون على مبادىء الاسلام من العرب خصوصا الفقهاء [1] ، وطبقة الحفاظ الذين شاركوا فى هذه الثورة مع أهل البلاد جنبا الى جنب •

وازدادت الحركة الاسلامية وضوحا وشدة بعد عبد الملك والوليد• والأدلة مستمدة من أحداث العصر الأموى بعد الوليد بن عبد الملك ، فقد تميزت السياسة الأموية فى ايران بظاهرة التراجع عن السياسة السابقة والاعتراف بالأمر الواقع والتمشى مع الحركة الاسلامية النامية • وقد وضع التراجع فى عهد سليمان بن عبد الملك اذ بدأت الدولة تغير من سياسة الحجاج [2] محاولة لاسترضاء جماهير المسلمين فعزل الولاة الذين ولاهم الحجاج وأطلق سراح آلاف الايرانيين من السجون فى البصرة والكوفة واشرك الايرانيين المسلمين فى الجيش بصورة أوفر وضوعف العطاء حتى بلغ نصيب الفرد كل شهر خمسة وعشرين درهما [3] •

وبدأت الدولة فى الوقت نفسه تعدل عن مقاومة الهجرة بالأساليب العنيفة كما بدأت تخفف من وطأة السياسة الاقتصادية حتى كان عهد عمر بن عبدالعزيز فظهرت سياسة المسالمة أو الترضية • وكانت هذه السياسة مواجهة لتيار اسلامى كبير اما ان تترضاه الدولة أو تسقط تحت وطأته • فكانت سياسة عمر بن عبد العزيز [4] توفيقا بين التيار الاسلامى والمصالح الأموية الرئيسية • ويمكن أن نسمى سياسة عمر بن عبدالعزيز بسياسة (أنصاف الحلول) فالجزية لا تفرض على المسلم انما تضاعف على من بقى على دينه ، والخراج يقل على المسلمين ويضاعف على أهل الذمة• وأغرب من هذا أن يبيح عمر بن عبد العزيز الملكية للمسلمين وفى الوقت

---

(1) يذكر الدينورى أن ابن الأشعث انضم اليه الشيعة والخطباء والقراء والعباد والمسيحيون بل انضم اليه الاساورة والزط •

(2) ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ١٠ •

(3) ابن عبد ربه العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٠ •

(4) عن سياسة عمر بن عبد العزيز انظر :

ابن عبد الحكم : سيرة بن عبد العزيز ص ٩٩ • ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٥٤ • فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٢٥٩ ـ ٣٠٢ •

نفسه يحرم بيع أرض المسلمين • كانت سياسته فى الواقع توفيقا بين الاسلام الصاعد فى ايران وبين المصالح الأموية وان كان عهده يمتاز بجهود تبشيرية عظيمة لنشر الاسلام من كافة الجهود خاصة فى آسيا الوسطى •

ومضت الحركة الاسلامية فى طريقها بعد عمر بن عبدالعزيز وبدأت تتخذ صورة جديدة ممثلة فى التحالف الوثيق بين الحركة الاسلامية والدعوة للرضا من آل محمد وما أدى اليه ذلك من نجاح الثورة العباسية • اذ لا شك فى أن الثورة العباسية قامت على اكتاف جماهير المسلمين فى ايران وخراسان وما وراء النهر • وفعلا اعتمد العباسيون على تيار اسلامى قوى غلب على ايران وامتدت آثاره الى ما وراء النهر ، فكانت مهارة الدعاة العباسيين أنهم كسبوا هذا التيار الاسلامى الى جانبهم • وذلك بتجنبهم جميع الأخطاء التى أدت الى وأد الحركات الثورية السابقة بالتنظيم العقائدى الذى أعدوه فى فترة التحضير للثورة ، والذى ينم عن عبقرية فذة فى التنظيم والاعداد • وكان يقوم على السرية المطلقة ، وعلى امام مستور لا يعرفه الا أقرب الدعاة وأصدقهم ولاء ، والدعوة للرضا من آل محمد ليتكتل الهاشميون كلهم من علويين وعباسيين• وكان التنظيم يستند الى طائفة من الدعاة والنقباء والعمال لهم قدرات عسكرية خلاقة واخلاص للدعوة وفناء فيها وقدرة بارزة على الدبلوماسية والدهاء ومداراة الأحوال واجتذاب الأنصار ، ومنطق فى المخاطبة فيه أدب وبلاغة وفن مراعاة مقتضى الحال • واتخذت هذه الدعوة شعارات معينة وأعلنت عن نهج فى الاصلاح أريد به اجتذاب الساخطين على بنى أمية ووعد بتخليصهم مما أصابهم فى العصر الأموى الأخير •

فنادوا بالمساواة بين الشعوب وبالامامة للرضا من آل محمد واظهار ان بنى أمية وقعوا فى الضلال والفسق ووجه الدعاة الطعن الى ولاة بنى أمية وسموهم ولاة الجور ، كما رفع الدعاة شعار الاصلاح والدعوة الى الحق والعدل •

وقد نجح الدعاة العباسيون بفضل هذا التنظيم الدقيق والشعارات المرفوعة فى أن يكسبوا بزعامة أبى مسلم الخراسانى الرأى العام الاسلامى فى ايران ، ويذكر الدينورى [1] أن أبا مسلم جاءته الوفود من مدن خراسان كلها ، ومن القرى الصغرى ومن أهل الثغور وكرمان وكابل وخوارزم والديلم وأهل ما وراء النهر وطخارستان ، بل صدق الدعوة بعض العرب ، ودخلت فيها قبائل عربية من خزاعة وطيىء وبكر وتغلب •

وكانت الثورة العباسية ثورة ايرانية خالصة انبعثت من خراسان ووجدت صدى ومنطلقا فى مدن ايران وريفها ، كما تدل على ذلك أحداث الثورة العباسية منذ اندلاعها سنة ١٢٩ هـ الى أن تمت البيعة للخليفة العباسى الأول وقضى على الأمويين سنة ١٣٢ هـ •

اعتمدت الثورة فى منطلقها الأول على ابى مسلم الخراسانى وشيعته من الخراسانية المتحمسين • وقد أظهرت أحداث الثورة الأولى القدرات العظيمة التى تجمعت لهذا المولى العباسى ووضحت الدور الكبير الذى اضطلع به والجهود الصادقة التى بذلها وتبين القدرات العظيمة التى تجمعت للخراسانى أبى مسلم والتى جعلته من أعظم الدعاة العباسيين قاطبة قدرة واخلاصا •

وقد علل المشتغلون بدراسة التاريخ العباسى تألق أبى مسلم وظهوره الى امور كثيرة منها : المعرفة بأسلوب الحرب الذى يلائم أرض خراسان واقليم ما وراء النهر ، وقدرته الخارقة على التنظيم الذى جعلت منه الادارى الناجح الذى يجمع الانصار ولا يفرقهم بسوء التدبير ، فجعل من جماعته وهى الفئة القليلة القوة الضاربة فى حزم واحكام • وسياسة المن على الأعداء وموادعة المهزومين كسبا للقلوب وتأكيدا لزعامته بين الناس ، وهو أمر لم يكن مألوفا فى تلك الفترة الدموية من تاريخ الدعوة التى كانت أقرب الى أن تكون حرب حياة أو موت • ثم المعرفة الصادقة بالقبائل

---

(١) الأخبار الطوال ص ٣٦٠ •

العربية وفهمه الجيد لاحنها وتاراتها وتجمعاتها وتحـركاتها • وافادته من اجتماعها وافتراق كلمتها على حد سـواء • فقد بدأ بالتزام الحيدة المطلقة بين الكتل المتصارعة ، ثم أخذ يستعين بفريق على آخـر فاستمال ربيعـة وقحطان الى جانبه ولم يقطع صلته بمضر ، فلما اسـتقام له الأمر أخـذ العرب المعادين له بالقمع فى شدة وقسوة أخذت على الائمة الذين دان لهم بالطاعة والولاء •

ولم تتوقف المساندة الايرانية القوية بمجرد دخول أبى مسلم مرو وتسديده الضربة الأخيرة لقوات نصر بن سيار المتقهقرة الى نيسابور ومعه انصاره من العرب الذين هربوا من خراسان وهم قبائل تميم وبكر وقيس• فقد ظلت قيادة الحركة فى أيديهم حتى انتقلت السلطة الى أبى العبـاس وأخوته وآل بيته • فكانوا من وراء قحطبة بن شبيب الطائى ذلك القائد العربى الذى اختير لقيادة القوات الايرانية الخراسانية بعد انتهاء دور أبى مسلم • اذ لم يكن من المعقول أن تقتحم معاقل العروبة فى العراق والشام ومصر بقيادة أعجمية انما بقيادة عربية خالصة •

واقتحم قحطبة بقواته الايرانية العراق ، وهزمت قوات ابن هبيرة وما آل اليه الأمر من استقرار الثورة بالعراق بعد سيطرته على المشرق كله•

كانت القوى الزاحفـة من خراسـان الى الكوفة تحت لواء الدعوة الظافرة تسير فى خط مغاير للزحوف العربية التى رأتها ايران فى عهـد عمر من القادسـية الى مرو • وكان هذا طريق الزحف المظفر أمام هذه القوى الجديدة • وسيشهد هذا الطريق زحف الخراسـانية بقيادة المأمون وزحف آل بويه وآل سلجوق ثم زحف المغول •

وخاض العباسيون بهذه القوة الجديدة معركة الزاب التى استمرت أحـد عشر يوما (حتى جمـادى الآخـرة سـنة ١٣٢ هـ) وكانت شبيهة بالقادسية فى شدتها • وكان الظفر للخراسانية على العرب واسترد الفرس

مكانتهم كمحاربين أشداء • كان انتصار العباسيين انتصارا للمسلمين فى ايران وما وراء النهر •

وزاد خلفاء العصر العباسى الأول التيار الاسلامى فى ايران سعة وعمقا فى العالم الاسلامى كله • وذلك بفضل السياسة الداخلية والخارجية التى اختطوها لأنفسهم •

فقد واجهوا فى ايران بقية من عناصر لم تكن على الاسلام انما جنحت نحو الثورة والهدم ظانة أنها قد تجد فى صفوف العباسيين ثغرة تنفث منها سمومها • وقد ورث العباسيون الثورات القديمة نفسها التى كانت مشكلة الساسانيين الزرادشت وهى التيارات المانوية والزدكية ، وكل الحركات الهدامة التى ظهرت فى العصر العباسى الأول اذا حللت تجدها تتخذ تعاليمها من الهرطقات الايرانية القديمة • كانت هذه الحركات سافرة أول الأمر وقد أدى سفورها الى سرعة فشلها ثم كبتها ، ثم بدأت بعد ذلك تتخذ نزعات توفيقية لنشر تعاليمها هى مزيج من المزدكية والشيعة المتطرفة •

هذه الحركات السافرة ظلت مشكلة العصر العباسى الأول حتى وفاة المعتصم • ظهرت فى عصر القوة [١] واستطاع العباسيون أن يقضوا عليها ، كما عاودت الظهور فى عهد المهدى [٢] والرشيد والمعتصم [٣] • على أن هذه الحركات الهدامة لم يكن لبوسها ثورات وحركات عسكرية فقط ، انما اتخذت لبوسا فكريا ونقصد حركات الزندقة (٤) • ولم يعرف عن المنصور امعانه فى اضطهاد الزنادقة ، وكانت سياسته قمع القوة الظاهرة ،

---

(١) النوبنحتى : فرق الشيعة ص ٤٢ ـ ٤٣ ـ الطبرى جـ ١٠ ص ٢٤٤ •
Browne, Vol. II p. 323

(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٤٤ •

(٣) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٦٢ •

(٤) عن الزنادقة انظر : الغزالى كتاب فيصل التفرقة ص ٣٢ • الأغانى جـ ٣ ص ٧٣ ، ٨٦ •
Browne, Vol. I p. 159

فلما جاء المهدى كان من أبرز الأمور فى عهده تنكيله بالزنادقة [1] • ونفذ الهادى وصية أبيه واشتد فى طلب الزنادقة • ولما آلت الخلافة الى الرشيد سار فى نهج من سبقه من الخلفاء فى تعقب الزنادقة [2] • واستمرت الدولة تواجه هذه الفتن بالتحدى والقمع فى عهد المأمون • وقد تصدى أهل السنة لمقاومة هؤلاء الناس حتى ان طائفة كبيرة من أدباء هذا العصر ومفكريه بذلوا الجهد الواضح فى مكافحة الزندقة ، وتصدى علماء الكلام لتسفيه الزندقة والرد عليها [3] •

على كل حال يرجع الى العصر العباسى الأول ، القضاء على هذه الحركات الهدامة ، وقد أسلموا الأجيال القادمة حركة اسلامية قوية مبرأة من الشوائب •

أما الغالبية الكبرى من الايرانيين الذين استمسكوا بالاسلام فقد أفاد العباسيون منهم ، وفتحوا أمامهم ميدان التقدم السياسى والفكرى •

تقدمت هذه العناصر فى ميدان السياسة تقدما عظيما ، كانوا الجند والقادة وأرباب السيوف • وسيطروا على الجهاز الادارى فى حاضر الخلافة والولايات وغلبوا على جميع دواوين الدولة • وكانت بأيديهم مقاليد السياسة العباسية • وقد أباح لهم العباسيون هذا الظهور السياسى على شريطة ألا ينتقص من هيبة الخلافة أو قدراتها ، انما يكون عمل هؤلاء وفق ارادتها وتحت علمها • وكانت تكبح جماح من يريد منهم أن يخرج عن هذا الخط وترده الى الطاعة • فكان فى ذلك كله التمكين النهائى للاسلام من قلوب غالبية السكان الايرانيين •

ومما أدى الى تثبيت قواعد الاسلام فى المشرق فوق ما تقدم ،

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٦ ، ٩ ،

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٤٢ •

(٣) الجاحظ : الانتصار ص ٨١ •

السياسة الخارجية التى اختطها العباسيون لأنفسهم بعد ان استقرت لهم الأمور بالداخل وكبتوا كل الفتن والثورات وانشئوا أعظم القوات البرية وانشئوا الأساطيل فى البحر الأحمر والمحيط الهندى • فقد اهتموا بآسيا الوسطى اهتماما بالغا وحموا الاسلام فيما وراء النهر وصدوا عدوان الأتراك الشرقيين وأبعدوا الصين عن التدخل فى شئون غرب آسيا •

الفصل الرابع
نتائج انتشار الاسلام فى ايران

الذى يعنينا هنا أن نتتبع أهم النتائج التى ترتبت على نجاح الدعوة الى الاسلام ، وغلبته على الايرانيين ، وتمكنه من نفوسهم منذ نجاح الثورة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، وأن نؤكد حقيقة هامة ، هى أن ايران لم تفقد مقوماتها فى ظل الاسلام . وقد استمدت هذه المقومات المقاومة من عناصر حضارية وطبيعية وجغرافية [١] .

هذه النتائج سارت فى خطين متوازيين : الخط الحضارى والخط السياسى [٢] . وقد قطعت أشواط الخط السياسى والحضارى بصور متقاربة متشابهة تقريبا .

ففى الميدان السياسى أفسح العباسيون للايرانيين فى مجال الظهور السياسى ما شاءت لهم قدراتهم بشرط ألا يكون عدوانا على سلطات الخلافة أو فعاليتها ، وأن يتم نوع من التوازن بين القوى الايرانية الصاعدة نحو النفوذ وبين الخلافة المتمسكة بالنمط المركزى أو الفدرالى القادرة على القوة والحركة . وقد استمر هذا الظهور حتى نهاية العصر العباسى الأول . ثم ما لبث أن انهارت المقومات التى كانت مصدر قوة الخلافة وهيبتها ، وضعفت الخلافة العباسية واجتاحت العالم الاسلامى فى الشرق والغرب الحركات الاستقلالية .

---

(١) Legacy of Persia : Chap. II p. 60

(٢) Ibid

وظهرت الامارات المستقلة المعترفة بسلطان الخلافة الروحى • وقد عبرت ايران عن نفسها تعبيرا استقلاليا فى نطاق الولاء للخلافة العباسية • وظهرت فى كل اقليم من أقاليمها امارات مستقلة : فى خراسان وفارس وفى طبرستان وبلاد الديلم • وظلت هذه الامارات تسيطر على الحياة السياسية فى ايران حتى ظهر البويهيون ودخلوا بغداد ، ثم نشروا نفوذهم فى ايران كلها تقريبا • وتحكموا فى الخلافة العباسية ، وباسمها ساسوا العالم الاسلامى كله ، وظل البويهيون حتى دخل السلاجقة بغداد سنة **٤٤٧** •

ولا نريد أن نسوق هذه الأحداث السياسية بكل تفاصيلها المعروفة ، انما نريد أن نتبين من خلالها الشخصية الايرانية ، وهى تعبر هذه المرحلة فى طريقها الى السيادة والنفوذ •

* * *

١ ــ النتائج السياسية

النتائج السياسية لاسلام الايرانيين مرت بمراحل ثلاث :

(أ) تقدموا تحت علم الخلافة بعد نجاح الثورة العباسية واستمر هذا التقدم طوال العصر العباسى الأول •

(ب) ثم ظهرت اماراتهم الاسلامية المستقلة فى كل اقليم من أقاليم ايران فى عصر ضعف الخلافة واضمحلال نفوذها ••• وتسمى هذه المرحلة مرحلة التعبير المتجزىء عن الاستقلال •

(ج) ثم استطاع الديلم من بنى بويه أن يسيطروا على ايران كلها تقريبا ، وأن يسيطروا على الخلافة العباسية فى بغداد ، متخذين لقب شاهنشاه ولقب سلطان ، وأن يمثلوا الأوج الذى بلغته العناصر الايرانية فى زحفها نحو التقدم والظهور ••• وتسمى هذه المرحلة بالتعبير الشامل عن الاستقلال •

أ ـ التقدم السياسي للعناصر الايرانية تحت علم الخلافة

تقدمت العناصر الايرانية فى ميدان السياسة والقيادة تقدما حثيثا ، فهى التى أيدت الدعوة فى مراحلها الأولى وهى التى كانت وقود الدولة. كانوا جندها المخلصين المعبرين عن ارادتها والمنفذين لسياستها . كان الخراسانيون فى جيل أبى مسلم هم الذين حملوا عبء الكفاح ، وكانوا جند الدولة المخلصين فى زحفها نحو العراق واطاحتها بالدولة الأموية وتثبيت دعائم الحكم العباسى . وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة الهامة التى كتبها ابن المقفع وسماها برسالة الصحابة والتى تعتبر من أهم الوثائق التى تكشف عن سياسة العباسيين وحقيقة أهدافهم . فلهذه الرسالة قيمة كبيرة فى نقد نظام الحكم ورسم وجوه اصلاحه . فقد رفعت الى أمير المؤمنين ويظن أنه المنصور لأنه يذكر دولة بنى العباس وقد استقرت [1] ويذكر السفاح ويترحم عليه . وقد أدرك ابن المقفع المكانة الهامة التى احتلها جند خراسان فى السياسة العباسية . ومدحهم بأنه لم ير مثلهم فى الاسلام . وأنهم يمتازون على غيرهم من الجند بالطاعة والعفاف والكف عن الفساد والتزلف للولاة والتفانى فى خدمة الخليفة [2] .

وكان الخراسانيون عدة المنصور فى القضاء على أعدائه واطفاء الثورات التى قامت فى الحجاز وتثبيت سلطانه فى مصر والمغرب وعمدته فى جهاده مع الروم .

ولم تتخل الدولة العباسية عن عناصر الايرانيين على الاطلاق ، فقد عاودوا الظهور فى الصراع بين الأمين والمأمون . وكانوا جند المأمون فى القضاء على الأمين والتمكين لنفسه من السلطان ، حتى استعان المعتصم بالترك الغربيين ممن وراء النهر . وكانوا أقرب الى العناصر الايرانية من

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٢) الطبرى جـ ٩ ص ١٢٧ .

الأتراك الشرقيين • وكان من أثر ذلك أن ضوعف عطاؤهم ، ونالوا من الرعاية حقهم وتولى القيادة فيهم رجال منهم وصلوا الى أعلى مراتب السلطة والقيادة •

وبدراسة النظام الحربى فى العصر العباسى الأول يتبين كيف كانت القيادة العسكرية فى جميع القطاعات فى أيدى هذه العناصر الجديدة• ولم يصبح الايرانيون من أرباب السيوف فحسب بل سيطروا على الجهاز الادارى كله فى حاضرة الدولة وفى الولايات • وغلبوا على جميع دواوين الحكومة • وتولوا مناصب الولاية على البلدان والوزراء منذ فجر الدولة وكانت بأيديهم مقاليد السياسة العباسية • وكان الوزراء الظاهرون فى العصر العباسى الأول كلهم من العناصر الايرانية ، فأبو سلمة الخلال أول وزير عباسى مولى فارسى ، وأبو أيوب الموريانى وزير المنصور فارسى من موريان وهى قرية من قرى الأهواز ويعقوب بن داود وزير المهدى مولى كذلك ، وكذلك كان يحيى بن خالد البرمكى • واستوزر الرشيد بنى سهل وكانوا من أولاد ملوك الفرس • وتولى الوزارة الفضل بن سهل والحسن بن سهل • ومن بعدهم استوزر المأمون أحمد بن يوسف مولى بنى عجل ، ثم ثابت بن يحيى بن يسار الرازى • ولو تصفحنا أسماء الوزراء الذين أشار اليهم الجهشيارى [1] ، لتبينا أن أكثر الوزراء من العصر العباسى الأول كانوا من الفرس •

كما تولوا وظائف الكتابة ، فقد كان للوزراء أعوان من الكتاب وكان لولاة الأقاليم ورجال الدولة كتاب• فكان حماد عجرد كاتبا ليحيى بن محمد ابن صول بالموصل [2] • وكان ابن المقفع يكتب لداود بن عمر بن هبيرة والى كرمان • وكان عمرو بن مسعدة يكتب للمأمون ، والحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة ، وكان يكتب ليحيى بن خالد البرمكى عبد الله

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٤ •

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٤ •

ابن سوار • وكان أكثر هؤلاء الكتاب فرسا كالوزراء يحذون حذو أجدادهم من الفرس •

بل وصل الصعود فى مجال العمل السياسى بهذه العناصر الى حد احتكار نوع من السلطة السياسية توارثه الأبناء عن الآباء • أعنى أنه تكونت لهم فى العصر العباسى الأول دويلات وظيفية أو أسرات بيرقراطية• مصداق ذلك النفوذ العظيم الذى وصلت اليه أسرة البرامكة فى العصر العباسى الأول • وقد كانت هذه الأسرة أسرة ايرانية صميمة أصلها من مدينة بلخ ، بدأ ظهور أفرادها فى عهد المنصور ، فظهر منهم خالد بن برمك الذى يرجع اليه الفضل فى تثبيت النفوذ العباسى فى منطقة خراسان وفى ايران كلها • وتتابع نفوذهم فى عهد المهدى وسيطروا على الحياة السياسية فى عصر الرشيد ، فلم يتولوا منصب الوزارة فحسب انما تولوا جميع المناصب الادارية والعسكرية •

واستطاع أفراد هذه الأسرة أن يظهروا فى الحياة الاجتماعية وأن يبنوا القصور ، وأن يقلدوا الخلافة العباسية فى جميع مظاهرها الاجتماعية، بل ظهر نفوذهم فى الحياة الأدبية • كما ينسب اليهم أنهم قاموا بكثير من الاصلاحات الاداريه • وعملوا على احياء التقاليد الايرانية •

وعلى الرغم من أن العنصر العربى استطاع أن يظهر نفوذه قبل أن يختفى فى نكبة البرامكة ، وفى ولاية محمد الأمين الخلافة ، وفى عزل المأمون من ولاية العهد ، فان النفوذ الايرانى فى الحياة السياسية بدأ يعود من جديد فى صورة أقوى فى عهد المأمون • ولم يكن النزاع بين الأمين والمأمون الا نزاعا بين النفوذين العربى والفارسى • والمأمون كان قد اتخذ خراسان مركزا لنفوذه وكاد يجعل من مرو عاصمة للدولة العباسية ، بل ان مبايعته لعلى الرضا العلوى بولاية العهد كانت استجابة منه لشعور الايرانيين •

وكان انتصار المأمون تأكيدا للنفوذ الايرانى ، الدليل على هذا ما تولاه الايرانيون فى عهد المأمون وبعده بقليل ، كالنفوذ الذى تولاه طاهر بن الحسين الذى أسس الدولة الطاهرية • وقد ظهر بنو سهل فى العراق فى عصر المأمون •

وكان العباسيون ازاء هذه العناصر الصاعدة يرسمون لأنفسهم سياسة بعيدة الغور ، لم يتخلوا عن تطبيقها طوال العصر العباسى الأول • كانت هذه السياسة قائمة على أن يشارك هؤلاء الايرانيون العباسيين نفوذهم وسلطانهم ، وينالوا من السلطة ما طاب لهم ، لكن داخل اطار محدود لو تجاوزوه لقادهم ذلك الى مصارعهم ونهايتهم • كانوا يسمحون لهم بذلك فى حدود الطاعة المطلقة للخلافة ، والاعتراف بسلطانها ، حتى اذا سولت لهم أنفسهم أن يخرجوا عن الطاعة ، كان الكبت والقمع الذى لا هوادة فيه • وكان لهم فى ذلك سياسة مرسومة ، وهى سياسة ضرب العناصر بعضها ببعض • فقد ضربوا الخراسانية جيل أبى مسلم بالبرامكة الفرس وضربوا البرامكة ببقية النفوذ العربى ، وضربوا بقية النفوذ العربى بالخراسانية فى جيل بنى طاهر ، ثم ضربوا هذه الخراسانية بأتراك عهد المعتصم •

اذن يمكننا أن نقول ان سياسة العباسيين حيال هذه العناصر الايرانية المتقدمة فى المجال العسكرى والسياسى قامت على عنصرين : المشاركة والموازنة فى اطار الطاعة لبنى العباس ، ثم الكبت والقمع اذا كان ثمة خروج على أركان هذه الطاعة • هذه السياسة تفسر الكثير من أحداث العصر العباسى الأول ، كمصرع أبى مسلم ونكبة البرامكة ، والصراع بين الأمين والمأمون ، والقضاء على بنى سهل •

كانت الخلافة فى العصر العباسى الأول تستفيد من العناصر الايرانية، وتطلق لها من السلطان السياسى ما لا يخل بمبدأ التوازن ، فاذا أحست بالاختلال بادرت الى الفتك والتنكيل •

ثم ضعفت الخلافة العباسية بعد الواثق مباشرة ، وتناقل المؤرخون أخبار العدوان على أشخاص الخلفاء بالسجن أو القتل أو التعذيب أو العزل أو على سلطانهم بالسلب والتضييق • فكأن الخليفة لم يأمن على نفسه فحسب ، بل ان منصب الخلافة فقد ما كان له فى نفوس المعاصرين من الهيبة والقداسة • وترد الى هذه التطورات ضعف الخلفاء حينا ، أو انصرافهم الى اللهو أحيانا أخرى • لا تنكر أنه ظهر بعض الخلفاء الضعاف الذين استسلموا للواقع ، ولكن الأمر لم يخل من خلفاء آخرين كانوا على جانب كبير من قوة الارادة ، والحقيقة أن الأمر لم يكن ضعف أشخاص الخلفاء بقدر ما كان ضعف نظام الخلافة نفسه •

كانت الخلافة العباسية تستمد قوتها من مصادر متعددة : من دعوة عباسية منظمة ، ومن صلات مطردة بين رؤساء التنظيم العقيدى فى بغداد وبين شبكات الدعاة وجماهير الانصار فى الاقاليم • وتستمد قوتها من بيت من بيوت قريش يتوارث أفراده هذا المنصب ويتحدون جميعا للابقاء على هذا الميراث ، ثم عصبية قوية متماسكة تؤمن بأن بقاءها من بقاء الخلافة قوية ، وأن مصلحتها قد ارتبطت بالخلافة بصلات قوية • واذا كانت تلك هى مصادر القوة فى النظام الخلافى ، فان افتقاد هذه المصادر يؤدى الى ضعف الخلافة •

وليس من شك فى ان صلات الخلفاء بشبكات الدعاة فى كافة أرجاء العالم الاسلامى لم تضعف فحسب ، بل تهاوت تماما بعد الخليفة المتوكل ، فلم نسمع عن ذلك النوع من الرسائل الذى رأيناه فى العصر العباسى الأول • ومعنى هذا أن الخليفة فقد صفته كرأس لذلك التنظيم الذى سيطر على الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول ، وأدى هذا بالتالى الى أنه فقد القداسة والهيبة فى نفوس الناس ، وتعرض الخلفاء لصور كثيرة من الامتهان •

وضعفت الروابط بين الخليفة وملايين الناس الذين أيدوا الحزب

العباسى وانخرطوا فى سلكه • وأغلب الظن أن الخلايا المندسة فى البلاد قد انحلت أو انصرفت الى تأييد الدعاة الشيعة الذين ملئوا الفراغ فى التنظيم العقيدى فى العصر العباسى الثانى • فلم نسمع أن هذه الجماهير كانت تولى الخلافة المضطهدة ذلك التأييد العميق نفسه الذى كانت توليه للمنصور أو الرشيد •

وأغلب الظن أن الدعاة قد تضاءل نفوذهم ولم يعد حكام الولايات رؤساء للتنظيمات المحلية كما كان الحال عليه فى العصر العباسى الأول • فقد ضعفت صلتهم بالخلفاء وانصرف الكثيرون منهم الى تنمية مصالحهم الذاتية والاكثار من المال والجند توطئة للاسهام فى الحركة الاستقلالية التى غلبت على الحياة الاسلامية •

ومن أسباب الضعف ذلك الانقسام الذى وضح فى صفوف البيت العباسى الحاكم منذ البداية الأولى • لاحت بوادر هذا الخلاف فى عهد السفاح ثم اشتدت فى عهد المأمون • فالسفاح مثلا ولى أخاه المنصور العهد وأعرض عن عميه عبدالله وسليمان• ولم يرض العمان فثار عبدالله بن على على المنصور ، واذا بالمنصور يعزل عمه سليمان عن ولاية العهد • ثم درج العباسيون على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد ، فالسفاح يولى المنصور ثم عيسى بن موسى • والمنصور يولى المهدى ثم عيسى بن موسى • والمهدى يختار الهادى والرشيد يولى الأمين والمأمون • وقد وضح الانقسام فى موقف الهادى من هرون وفى موقف الأمين من المأمون • وقد أحس المأمون بما يتهدد البيت العباسى من خطر فعهد بالخلافة الى المعتصم فقط•

وقد فقدت الخلافة العباسية العصبية الساندة مصدر النفوذ والسلطة، فالعصبية العربية كانت تضعف ضعفا طبعيا بسبب تفرق العرب فى الأمصار، واختلاط دمائهم • وقد غدرت الخلافة العباسية تطبيقا لسياستها فى التوازن بالخراسانية بعد نجاح الدعوة وقتل زعيمها أبى مسلم • ثم استعانت بالبرامكة ثم نكبتهم واعتمد الأمين على العرب وعاد المأمون الى الخراسانية

واضطر المعتصم الى استخدام الترك فى الجيش على نطاق واسع ، فلما ضاق بهم اهل بغداد أنشأ لهم حاضرة جديدة • ونشأت منهم طائفة من المحاربين احترفت الجندية ، وخدمت المعتصم ونفذت سياسته ، وتسربوا الى الجهاز الادارى واسند اليهم الكثير من المناصب العليا فى الدولة • وبلغ نفوذ الاتراك حدا بعيدا فى التحكم بعد وفاة الواثق ، وأصبحوا أصحاب السلطان المطلق لفترة امتدت نحو قرن • وتدخل هؤلاء الترك فى تولية الخلفاء وعزلهم وامتد سلطانهم الى منصب الوزارة • اثقلوا على الوزراء فطالبوهم بالكثير من المال ، فاذا اعجزوا باتوا عرضة للتنكيل والعزل• ثم تولوا الوزارة فى عهد المستعين الذى اتخذ أنامش وزيرا له • وأصبح تعيين الوزراء يتم عن طريقهم • ففى عهد المعتز بالله عزلوا جعفر بن محمود الاسكافى ، ثم قبضوا على وزير آخر يسمى احمد بن اسرائيل • وفى عهد المستعين حاول ابو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد أن يضيق عليهم فهددوه بالقتل حتى هرب •

وامتد نفوذهم الى بعض الأقاليم ، فكان الولاة يختارون اما من طبقتهم أو من المقربين اليهم •

وقد حاول كل من المتوكل والمعتز والمهتدى أن يدفع هذا الخطر التركى فلم يفلحوا ودفع أغلبهم حياته ثمنا لهذه المحاولة •

(ب) ظهور الامارات الايرانية المستقلة (الاستقلال المجزأ) :

الايرانيون المسلمون الذين ظهروا فى الحياة السياسية على النحو الذى رأينا فى العصر العباسى الأول ، ووجدوا من خلفاء ذلك العصر القوة التى تلزمهم حدود الطاعة ولا تبيح لهم من السلطات الا ما يحفظ فعاليتها ويبقى على سلطانها • وانطلقوا صعودا بعد أن ضعفت الخلافة العباسية على النحو الذى بيناه ولم تجد من يحد من هذا التطور على نحو ما فعل خلفاء العصر العباسى الأول •

وسنعرض بالدراسة لظهور الطاهريين بخراسان ، والصغاريين بسجستان ، والزياريين فى طبرستان ، مبينين الى أى حد كان ظهور هذه الامارات احياء للكثير من التقاليد الايرانية القديمة •

الطاهريون بخراسان (٢٠٥ ـ ٢٥٩)

ينتسب الطاهريون الى زريق بن ماهان مولى طلحة بن عبيد الله الخزاعى والى سجستان من قبل مسلم بن زياد [١] • فهم اذن من الموالى الفرس الذين أسلموا فى العصر الأموى الأخير وبرزوا فى خدمة الدولة الأموية التى كانت قد قهرت المقاومة التركية ، وبدأت تستعد لاخضاع ما وراء النهر لسلطانها نهائيا • حتى اذا قامت الدعوة العباسية فى خراسان كان بنو رزيق من العناصر الايرانية التى سارعت تستجيب للدعوة الجديدة •

وقد اتصل مصعب بن رزيق بسليمان بن كثير الداعية العباسى فلما نجحت الدعوة وقامت الدولة العباسية عرف العباسيون لهؤلاء جهدهم الصادق الذى بذلوه فى الدور الخراسانى ، فولوا مصعبا بلدة بوشنج من أعمال مرو سنة ١٥٩ هـ ، كما تولى هراة • وخلفه ابنه الحسين عملا بالسياسة العباسية التى كانت تجنح الى استقرار الادارة فى هذه النواحى•

أما طاهر بن الحسين فقد ولد ببوشنج ونشأ فيها والتحق بخدمة العباسيين شأنه شأن ابيه وجده • وذاع صيته فى خراسان خاصة وعرف بالبراعة فى القيادة وحسن الادارة ، حتى كانت الفتنة بين المأمون والأمين واحتاج المأمون الى سند من العناصر الخراسانية المحاربة • ذلك ان العنصر الخراسانى لم يعد الى الظل رغم مصرع ابى مسلم ، بل ظل يتحين الفرصة المواتية ليعود الى الظهور من جديد • ولم يكن من المعقول أن يستطيع العنصر العربى الضعيف ان يملأ الفراغ الذى تركه اختفاء البرامكة •

---

(١) Barthold: Turbestan pp. 208-209

وكان طاهر بن الحسين هو أبو مسلم الجديد • وكان المأمون هو الامام الذى التف الخراسانية حوله ، كما التف جيل أبى مسلم حول أبى العباس السفاح •

وقد تصدى الخراسانيون بقيادة طاهر بن الحسين لقوات الأمين يقودها على بن عيسى ، وهو أشبه بالجيش الذى جنده مروان بن محمد بقيادة ابن هبيرة لقتال جيش قحطبة بن شبيب الزاحف على العراق فى فجر الثورة • ثم تصدى الخراسانيون لعلى بن عيسى كما تصدوا بالأمس لابن هبيرة وما أقرب الشبه بين أبى مسلم وطاهر بن الحسين •

وكانت هزيمة هذا الجيش قاصمة بالنسبة للحزب العربى ، وانتصرت الخراسانية مرة أخرى فى شوال [1] • وانتقلت الحرب من الهجوم على مداخل خراسان الى الدفاع عن مداخل العراق من ناحية الجبل • وفى سبيل هذا الدفاع بذل الأمين آخر جهد له ، فجند عشرين ألفا من العرب ومثلهم من الأبناء فهزمت قواته • ثم حاصرت قوات طاهر بن الحسين بغداد ثم دخلتها ، وقتل الأمين فى ٢٥ المحرم سنة ١٩٨ هـ •

كان الخراسانية جند الدولة الذين دخلوا العراق عام ١٣٢ هـ لانهاء الحكم الأموى ، واذا بهم اليوم جند المأمون الذين دخلوا بغداد ليقتلوا الخليفة وليضعوا حدا للنفوذ العربى • فليس عجيبا أن تحقق الخراسانية اطماعها بقيادة طاهر بن الحسين • وكان الفضل بن سهل قد نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة وحمل المأمون على تنحية طاهر عن العراق ، وارساله الى الجزيرة لحرب نصر بن شبث ، غير أن المأمون لما دخل بغداد بعد موت الفضل أمر طاهرا أن يلقاه فى بغداد لينال ثمرة ما أبلى فى حرب الأمين، فولى الجزيرة والشرط وجانبى بغداد ومعاون السواد [2] •

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ١١٣ •

(٢) Barthold : Turkestan pp. 208-209

ثم سادت الفتنة خراسان أثناء اشتغال طاهر بن الحسين بحرب الأمين ، ولم يستطع عاملها غسان بن عهاد أن يخمد الفتنة التى أثارها عبدالرحمن المطوعى الذى جمع لحرب الحرورية بنيسابور ، فخاف المأمون أن يضطرب ثغر خراسان ، وأن يهدد نفوذ الدولة العباسية فى ما وراء النهر . ووضحت الحاجة الى قائد خراسانى قوى الشكيمة يعرف هذا المصر ليعيده الى الطمأنينة ، فلم يجد المأمون غير ابن خراسان طاهر بن الحسين فولاه خراسان . ولكنه وسع من سلطانه بصورة قلما تحققت لفارسى من قبل . اذ ولاه على المنطقة الممتدة من حلوان الى حدود الاسلام فى الشرق وسما الى مرتبة نائب الخليفة على القسم الشرقى من الدولة . وقد قضى على الفتن التى ثارت هناك وهدأت أحوال خراسان ذكر الطيفورى عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول : « ما حابى طاهر فى جميع ما كان فيه أحدا ، ولا مالأ أحدا ، ولا داهن ولا وهن ، ولا ونى ولا قصر فى شىء ، وفعل فى جميع ما ركن اليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله . وأنه لا يعرف أحد من نصحاء الخليفة الأكفاء فيمن سبق عصره ومن بقى فى أيام دولته على مثل طريقته فى مناصحته وغنائه واجزائه ... »[1] .

فكان طاهر اذن أول من أسس دولة الطاهريين بخراسان ووضع لها الخط الذى تسير فيه ، وهو أن تكون خراسان مستقرا لنفوذها ومنطلقا لسلطانها ، وأن يبسطوا نفوذهم على ما جاورها من البلاد فى حدود الطاعة للخليفة . وألا يتخلوا عن المناصب التى تقلدها طاهر فى بغداد ، وأن يكونوا سندا للخليفة ، وأن تكون آذانهم فى بغداد تسمع وتعى وتحفظ نفوذ الدولة فى خراسان .

وقد أحرز طاهر الصورة نفسها من الاستقلال التى أصبحت تقليدا فيما بعد وهى أن ينفرد بأمر خراسان وأن يتوارث أولاده السلطة فيها على

---

(١) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ .

أن يؤدوا الخراج للدولة • وللدولة أن تعين عامل بريد ينقل أخبارها الى الخليفة ليضمن ألا يتنكر أحـد للولاء له • ويروى المؤرخون أن طاهرا كان يتمنى أن يخطب على منبر مرو فوليها سنة ٢٠٥ وخطب بها سنة ٢٠٧ وصعد المنبر ونسى أن يدعو للمأمون فكان ذلك مما قاده الى حتفه •

ورغم أن ما روى عن طاهر بعيد التحقيق اذ لم يتنكر الطاهريون للخلافة العباسية على الاطلاق ، بل ثبتوا على الولاء لها حتى انقضى عهدهم، فان هذه الرواية تصور حرص طاهر على مظاهر السلطة فى مقره الجديد بدليل أن المأمون سرعان ما ولى عبد الله خلفا لابيه ، واعتمد عليـه اعتمادا كبيرا وسيره لحرب نصر بن شبث حتى ألزمه الطاعة وسيره الى مصر سنة ٢١٢ هـ فأخمد الفتن بها [١] • فزاد المأمون من سـلطانه اذ ولاه الجبـال وأرمينية واذربيجان لمحاربة بابك ، كمـا خلف اباه فى الشرط وأعمـال بغداد [٢] •

ولم يتخـل الطاهريون عن هذه الوظائف أبدا فكانوا يقيمـون فى خراسان ويستخلفون عليها من أفراد بيتهم • فقد استخلف عبد الله بن طاهر عمه اسحق بن ابراهيم بن مصعب • واتصل الحكم فى بنى طاهر • فلما مات عبد الله ولى المأمون طلحة بن طاهر بن الحسـين واستمر على خراسان حتى سنة ٢٣٠ هـ [٣] •

ولم تهتز مكانة الطاهريين فى خراسان أو فى بغداد فى عهد المعتصم ، بل ازدادت رسوخا وصمدت للفتن والمؤامرات، فقد طمع الافشين فىولاية خراسان فأراد أن يوقع بين المعتصم وبين الطاهريين ، فاتصل بأحد دهاقين طبرستان واسمه مازيار بن قارن بن وندا هرمز ، وكان خارجا عن طاعة بنى طاهر ويحمل خراجـه الى المعتصم مبـاشرة • ويذكر المؤرخون أن

---

(١) الخضرى ص ٢٠٤ •

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥ •

(٣) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ •

الأفشين كتب الى مازيار يحرضه على بنى طاهر • فأعلن مازيار الثورة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان • ولم تجد حيل الأفشين فقد وقف المعتصم الى جانب الطاهريين يشد أزرهم • ففى الوقت الذى بعث فيه أمير خراسان عمه الحسن بن الحسين بن مصعب لقتال مازيار ، اذا بالمعتصم يبعث من قبله جيشا بقيادة طاهرى آخر يدعى محمد بن ابراهيم بن مصعب ومعه الحسن بن قارن الطبرى• كما وجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند الى مدينة الرى ليدخل عن طريقها الى طبرستان وهزم مازيار وثبت سلطان الطاهريين [1] •

وظل الطاهريون على سياستهم التى وضعها مؤسس الدولة يحتفظون بنفوذهم فى خراسان ولا ينصرفون عن أمور بغداد ونجدة الخلافة اذا احتاجت اليهم • وظهر دورهم هذا واضحا فى عهد الخليفة المستعين ، ووضح موقفهم فى ثورة الزيديين بالكوفة وطبرستان • ففى الكوفة ثار يحيى بن عمر بن يحيى الزيدى فتصدى له الفرع الطاهرى فى بغداد • فقد خرج الحسين بن ابراهيم بن مصعب وقضى على جيش يحيى سنة **٢٥٠** هـ [2] •

ويبدو أن المستعين أراد أن يكافىء الطاهريين على ابلائهم فى حرب الزيدية فى الكوفة فأقطعهم قطائع من صوافى طبرستان فثار الديلم وبايعوا الحسن بن زيد الذى استولى على آصل وجرجان وشمل نفوذه طبرستان كلها • كما استولى على الرى ووضع أساس الدولة الزيدية بطبرستان التى ظلت تحكم البلاد من سنة **٢٥٠** الى سنة **٣٥٠** هـ [3] •

والأمر الذى يؤكد أن الطاهريين لم تصرفهم أمور خراسان عن الاهتمام بما كان يجرى فى بغداد ، ما كان من تدخلهم فى أزمة المستعين

---

(١) الخضرى ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ •

(٢) الخضرى ص ٢٧٥ •

(٣) الخضرى ص ٢٧٦ •

وثورة الترك عليه وخروجه من سامرا الى بغداد سنة **٢٥١** ولجوئه الى دار محمد بن عبد الله بن طاهر • واعد الخليفة المنافس المعتز جيشا لحرب المستعين ، ودارت بين الفريقين معارك طاحنة ، ثم عدل الطاهريون عن نصرة المستعين ، ولعب محمد بن عبد الله بن طاهر دورا بارزا في خلع المستعين وبيعة المعتز • وظل محمد بن عبد الله بن طاهر ممثل الطاهريين في بغداد يلعب دورا بارزا في عهد المعتز وفي الفتنة التي وقعت ببغداد سنة **٢٥٢** هـ • وكانت شرطة بغداد ارثا في أسرتهم ، فلما توفي محمد بن عبد الله بن طاهر سنة **٢٥٣** خلفه اخوه عبد الله بن عبد الله بن طاهر •

وكان آخر الطاهريين حكما بخراسان محمد بن طاهر بن عبدالله ابن طاهر (**٢٤٨ ـ ٢٥٩ هـ**) ، ذلك أن يعقوب بن الليث الصغار في سنة **٢٥٩** قصد نيسابور فاستسلم بنو طاهر وانتهت دولتهم •

الصفاريون (١) (٢٥٤ ـ ٢٩٠ هـ)

كان القرن الثالث الهجري فترة هامة في تاريخ هذه العناصر الايرانية المسلمة المتطلعة الى مزيد من النفوذ ، مستفيدة مما كانت الخلافة تعانيه من ضعف ومن سيطرة الأتراك وتدخلهم • وكان النصف الثاني من القرن الثالث فرصة مواتية للمغامرين من كل صنف اذا توافرت فيهم القدرة على الحرب ، والافادة من اضطراب أمور الخلافة وسوء حالها •

وكانت الاضطرابات تجتاح منطقة فارس وسجستان في وقت ضعف فيه الطاهريون الأواخر وساء حال الخلافة على النحو الذي بيناه • وقد نشطت طائفة المطوعة في هذه الفترة نشاطا عظيما ، وتجمعت لهم قوات تأتمر بأمرهم ودخلوا في حرب مريرة مع الخوارج والشراة (٢) • وأحرزوا على الخوارج نصرا عظيما أشعرهم بقوتهم وتفوقهم ، فطمعوا

---

(١) Noldeke : Sketches from eastern history pp. 176-206.

(٢) الخضري ص ٣٠٦ •

فى السيطرة على سجستان كلها وانتزاعها من الطاهريين لتكون منطلقا لحركتهم يزحفون منها الى ما وراءها •

وقد قاد المطوعة فى جهودهم للاستيلاء على سجستان صالح بن النضر الكنانى ، لكن طاهر بن عبد الله بن طاهر هزمه ورده على أعقابه ، ثم تزعم المطوعة من بعده فى سعيهم الحثيث لاغتصاب سجستان درهم بن الحسين ، فلم يفلح الى أن آلت القيادة الى رجل مغامر يدعى يعقوب بن الليث واكب حركة المطوعة واندمج فيها وتقرب من زعيمها صالح ابن النضر ودرهم بن الحسين حتى آلت اليه زعامة الجند بعد أن أخفق درهم فى تحقيق آمال المطوعة • فكان يعقوب بن الليث اذن زعيم الحركة الاستقلالية التى انبعثت من فارس وسجستان كما انبعثت من غيرها من أقاليم ايران •

وقد بز سابقيه فى فن تنظيم رجاله ودعم قوته بالعتاد والسلاح والسيطرة النفسية الكاملة على أصحابه فلم يكونوا يعصون له أمرا ، بل اطاعوه طاعة لم ينلها زعيم من زعماء المطوعة قبله • وتحول بالمطوعة الى طائفة منظمة مترابطة تطيع قائدها طاعة عمياء [1] •

وقد برزت صفات يعقوب القيادية فى معاركه مع الخوارج والشراة التى أسفرت عن هزيمة ساحقة • وفتح أمام رجاله من المطوعة الطريق الى النفوذ والسلطة • فاستولى على سجستان وحقق ما فشل فى تحقيقه صالح بن النضر ودرهم بن الحسين من قبل • ويبدو أن نفوذ يعقوب قد امتد على فارس كلها وأشرف على حدود خراسان وحدود السند « فرهبته الملوك وأذعن له ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك زابلستان وملك السند ومكران وغيرهم » [2] •

---

(١) الخضرى ص ٣٠٦ •

(٢) الطبرى ج ١١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ •

ويبدو أنه لم يقنع بفارس أو سجستان وتطلع الى مدن خراسان المزدهرة من مرو ونيسابور • وأراد أن ينزعهما من الطاهريين الذين مال نجمهم الى الأفول • ولم يشأ أن يلجأ الى القوة وحدها فى تحقيق هذه الخطوة الهامة ، انما أراد أن يكون مولى لأمير المؤمنين ، وأن يكون أميرا بعهد من الخليفة ، ليثبت مركزه ، وتكون وراثته لملك آل طاهر وراثة مشروعة • فراسل الخليفة المعتز ، وسأله أن يوليه على فارس مقابل خراج قدره خمسة عشر مليونا من الدراهم • ثم دخل كرمان وفارس واستولى على شيراز وخطب للمعتز • وفى سنة ٢٥٩ تقدم نحو نيسابور ودخلها وقضى على بنى طاهر • وطالب بولاية خراسان ليقضى على نفوذ الشراة بها • وكان يأمل أن تستجيب الخلافة لما طلب ، ولكن الخليفة المعتمد خاف أن يتطاول يعقوب بن الليث الى ما هو أبعد ، فقد كان رجلا لا تحد له أطماع •

وفى سنة ٢٦١ هـ جمع المعتمد حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان وقرأ عليهم كتابا بلعن يعقوب وتقبيح أعماله [١] ، فلم تحجب قداسة الخلافة أطماع يعقوب ، فهدد بالزحف الى بغداد ليرغم الخليفة على الاستجابة لمطالبه • واضطر الخليفة كارها أن يوليه خراسان وفارس • وأضاف اليهما شرطة بغداد وسامرا ، وأن يولى كرمان وسجستان ، فكأنه ورث نفوذ بنى طاهر حتى فى ولاية شرطة بغداد •

ومضى يعقوب يحقق ما يريد دون منازع • وفى سنة ٢٦٣ استولى على جنديسابور ثم الأهواز [٢] •

هكذا حقق يعقوب فى سنوات قلائل كل ما ساوره من أطماع • ويعزى هذا التوفيق الكبير الذى صادفه الى اليقظة وحسن التدبير وحسن اختيار الرجال وتنظيم جيش المطوعة وامداده بالعدة والسلاح ، وجمع

---

(١) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٦٦ •

(٢) الطبرى جـ ١١ ص ٢٤٦ •

من الأموال ما فاق الوصف حتى قيل انه ترك فى خزائنه خمسين ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار ثم مات فى شوال سنة ٢٦٠ هـ .

وورثه أخوه عمرو بن الليث فى سياسته وأطماعه ، وانصرف الى العناية بالجند وحسن تدريبهم كما فعل أخوه من قبل ، فقد كان يحضر بنفسه صرف الأعطيات ليستعرض الجند ويجزل العطاء لأوفرهم شجاعة وأكثرهم عدة [١] .

ويبدو أن ظروف الخلافة قد مهدت السبيل أمام عمرو ، فقد أقر الموفق المشغول بفتنة ابن طولون وحرب الزنج عمرا بن الليث على خراسان واصبهان وسجستان والسند وكرمان ، كما أعطاه شرطة بغداد استسلاما لقوته الرهيبة فأناب عنه فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر [٢] .

وأفاقت الخلافة من متاعبها بالقضاء على الزنج وحل مشكلة بنى طولون ، فاذا بالخليفة المعتمد يعزل عمراً عن البلاد التى تولاها . بل بعث اليه جيوشا حاربته وانتصرت عليه سنة ٢٧٤ هـ . غير أنها لم تستطع انتزاع سجستان وكرمان . فلما ولى المعتضد هادن عمراً وترضاه ، فطمع فى المزيد وطلب الى الخليفة أن يوليه بلاد ما وراء النهر ، فلم يجد الخليفة بدا من الاستسلام . ولم يستطع عمرو أن يقتحم على بنى سامان معاقلهم فيما وراء النهر ، ووقع فى الأسر وآل حكم الدولة الى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث سنة ٢٨٨ . واستبد السبكرى غلام عمرو ابن الليث بالسلطة الى أن طرده من البلاد الليث بن على بن الليث الصغار ، حتى تمكن السامانيون من الاستيلاء على سجستان والقضاء على بنى الصغار سنة ٢٩٠ هـ [٣] .

---

(١) الخضرى ص ٣٠٩ .

(٢) الطبرى جـ ١١ ص ٢٥٠ .

(٣) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٦٨ ــ ٦٩ .

السامانيون فى خراسان (٢٧٩ - ٣٧٨)

ثم دخل السامانيون الحياة الايرانية الخالصة فى عهد اسماعيل بن أحمد السامانى الذى آلت اليه زعامة السامانيين بعد موت أخيه نصر سنة ٢٧٩ هـ [١] . فقد ناضل عن خراسان وقضى على مشروعات الصغاريين وفتح طبرستان وقم والرى وقزوين واستطاع ابنه احمد بن اسماعيل أن يقضى على الصغاريين نهائيا عندما أسر سبكا السبكرى غلام عمرو بن الليث ، كما أسر الليث بن على الصغارى، وانتزعوا سجستان من يد المعدل ابن على بن الليث الصغار ، وأسر أخاه محمد بن الليث . وظلوا يحتفظون بسلطانهم فى خراسان حتى استولى محمود الغزنوى على نيسابور وبخارى واستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين .

الزياريون (٣٧٦ - ٤٣٤)

بدأ المسلمون يحتكون بالديلم منذ محاولتهم فتح الرى وقومس زمن عمر بن الخطاب فقد بعث عروة بن زيد الخيل الطائى الى الرى فتصدى له الديلم مظاهرين لأهل الرى ولكنه هزمهم وعاود المسلمون قتال الديلم ، واستطاع البراء بن عازب أن يهزمهم وأن يستولى على أمنع حصونهم ، ثم صالحوه على الجزية [٢] .

ويبدو أنهم لم يستقيموا على الطاعة فقد عاود المسلمون غزو الرى حين ولى المغيرة بن شعبة كثير بن شهاب الدين الحارثى الرى ، فعاود غزو الديلم وهزمهم . وخرج الديلم من بعد هذا ، فلما ولى سعد بن أبى وقاص الكوفة للمرة الثانية خرج لاخماد ثورة الرى وغزا الديلم مرة أخرى .

وظل الديلم على هذه الحال من الطاعة حينا والثورة حينا آخر ، حتى

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٥ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٥ .

ولاية أبي موسى الكوفة لعثمان ، فبعث قرظة بن كعب الانصاري فاستسلم الديلم . ويبدو أن بعضهم بدأ يدخل في الاسلام ، فعوملوا معاملة اساورة البصرة على أن يكونوا مع من شاءوا فنزلوا الكوفة وأقام بعضهم بها .

وأصبح من بقي على دينه من الديلم مشكلة المسلمين الكبرى ، فلما ولي الوليد بن عقبة بن أبي معيط الكوفة لعثمان غزا الديلم قرب قزوين. وواصل خليفته سعيد بن العاص غزو بلادهم . وأصبحت قزوين ولاية عربية . وهاجر اليها قوم من أهل الكوفة فأقاموا بها .

وطبيعة وطن الديلم الجبلية كانت تمكنهم من الثورة على الحكم العربي كلما واتتهم الفرصة . بدليل أن علي بن أبي طالب واجه ثورة الديلم ، فخرج أربعة آلاف بعد أخذ أعطياتهم لقتال الديلم ، كما بعث الربيع بن خثيم الثوري في أربعة آلاف من المسلمين لمعاودة قتال الديلم .

ورسخت قواعد الاسلام بعض الشيء في هذه المنطقة الوعرة . فقد اعاد المهدي بناء الري وبنى فيها مسجدا جامعا سنة ١٥٨ [١] . فلما ولي الرشيد كان أهل قزوين والري قد استقاموا على الاسلام. فقد خفف عنهم الرشيد ما يدفعون من ضرائب . بل كان يبعث اليهم في كل سنة عشرة آلاف درهم . ثم أصبحت اقطاعا للقاسم بن الرشيد .

وعاد الديلم الى الثورة على الحكم العباسي في عهد المأمون فأرسل اليهم أبا دلف القاسم بن عيسى ، كما بعث المعتصم الافشين لتأديب الديلم . ولكن ثورات الديلم كانت تحت علم الاسلام ، فقد أيدوا بعض الحركات العلوية سنة ٢٥٣ ، فأرسل المعتز بالله موسى بن بغا لمحاربة العلويين ببلاد الديلم ، وكانت له مع الديالمة حروب ووقائع .

واذا بالديالمة يسيرون في ركب الشعوب الايرانية المستفيدة من

---

(١) البلاذري ص ٣٣٧ .

ضعف الخلافة العباسية ويتطلعون الى الاستقلال بمنطقة بحر قزوين وطبرستان ، فانبثقت منهم دولة بنى مرداويج الديالمة .

ظهور مرداويج بن زيار :

بدأ حياته أحد قواد أسفار بن شيرويه أمير قزوين ، ثم دفعته أطماعه سنة ٣٢٢ الى الثورة على هذا الأمير ، واستولى بمعونة شيعته من الديلم الجبليين المحاربين الأشداء علىقزوين ، ثم تطلع الى الرى وأصفهان، وكان يليهما يوسف بن أبى الساج، فاستولى علىهاتين المدينتين. وانساحت قواته فى هذا النطاق الجبلى لا تقاوم . فاستولى على طبرستان وجرجان وهمذان [١] . وتقدمت جيوشه حتى بلغت نواحى حلوان ، بل يضيف المؤرخون الى فتوحه زنجان وقم وبلاد الكرج. واذا مرداويج شخصية من أهم شخصيات التاريخ الايرانى المعاصر مرهوبة الجانب عظيمة السلطان بل تطاول بفتوحه حتى حدود العراق . وتأسست بزعامته لبنى زيار دولة فسيحة الرقعة .

ولم يبد أنه قنع بذلك فقد أراد أن يستولى علىبغداد « وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب » [٢] . حتى ان الخليفة المقتدر العباسى لم يجد بدا من أن يعترف بسلطانه شأنه شأن المتغلبين الذين امتلأ بسيرهم التاريخ الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى . وأقره الخليفة على ما بيده من بلاد وتعهد بدفع جزية سنوية .

ومما أكسب مرداويج أهمية فى تاريخ ايران الاسلامية اتصاله بالديالمة البويهيين فى مستهل ظهورهم واحتضانه لفريق منهم . فقد تولى على بن بويه وأخوه الحسن القيادة فى جيش ما كان بن كالى الديلمى ، فلما ثار عليه مرداويج وظهر أمره على نحو ما بينا ، انحاز أولاد بويه الى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٩ ص ٢٣ .

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٤ _ ٨٥ ، ١١٣ _ ١١٤ .

جانبه ، ورأى فى هذا التأييد ما يشــد من أزره ، فولى على بن بويه بلاد الكبرج ثم خشى تعاظم نفوذه فعزله وأرسل الى أخيه وشمكير بأن يتخلى عن أولاد بويه ، بل أعد العدة ليطرد على بن بويه من بلاد الكرج [1] ، فتركه الى مدينــة ارجــان ثم اصطخر ، وانتصر على صاحبها المظفر بن ياقوت ، ثم دخل شيراز سنة **٣٢٢** [2] .

ويبــدو أن مرداويج كان من القــوة بحيث خاف على بن بويه أن يسرف فى عدائه ، فعمل على كسب وده وتملقه ثانيــة وأقام الخطبة له ، وأهدى اليه كثيرا من الطرف وبعث الحسن أخاه رهينة عنده ضمانا لولائه واخلاصه .

وقد شرع مرداويج ينظم هذا الملك الواســع الذى فتحه بســواعد الديالمة ، فاتخذ ابا عبد الله الحسين بن محمد الكاتب الملقب بالعميد وزيرا له ، واتخذ جيشا قائما جند له أربعة آلاف من المماليك الأتراك [3] . الى جانب خمسين ألفا من الديلم ، ولما ثار عليه غلمــانه وقتلوه خلفه أخوه وشمكير الذى واجه عداء بنى بويه السافر . ففى سنة**٣٢٧** عز على وشمكير أن يستولى ركن الدولــة الحسن بن بويه على البــلاد التى فتحها أخــوه فحاربه حتى طرده من أصبهان واضطره الى التقهقر جنوبا . ولكن قوة البويهيين الصاعدة لم يكن من المعقول أن تقف فى وجهها دولة متداعيــة بعد وفاة مؤسسها الأول . ففى سنة **٣٣٠** انتزع ركن الدولة [4] مدينــة الرى ، كما استطاع محمد بن المظفر بن محتاج والى نصر بن احمد على خراسان وبلاد طبرستان وجرجان أن يرغم وشمكير على الرحيل الى بلاد الجبل ، ليقدم فروض الطاعة لنصر بن احمد ولابنه نوح . ولما تولى منصور ابن نوح السامانى أحب أن يســتفيد من عدائه للبويهيين فبعثه على رأس

---

(١) مسكويه جـ ١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٢ .

(٢) المصدر والصفحة نفساهما .

(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ ٦ ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ .

(٤) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ١٠٩ .

جيش كبير لمحاربة ركن الدولة بن بويه ولكنه مات فى الطريق [1] ، فخلفه ابنه قابوس [2] . واحتفظ بنو زيار بامارة صغيرة فى أقصى الشمال من ايران قضى عليها البويهيون آخر الأمر . على كل حال يمثل مرداويج وأخوه وشمكير قوة الديالمة التى بدأ نجمها يعلو فى سماء ايران فى مستهل القرن الرابع الهجرى .

* * *

قيام الامارات المستقلة والقومية الايرانية :

ليس المقصود أن ندرس تاريخ هذه الامارات وما صحب ظهورها من أحداث سياسية دراسة مفصلة ، انما المقصود أن نكشف فى خطوط عامة طبيعة هذا الدور من الظهور السياسى الذى بدأ يظهر الطاهريين ، وانتهى بسيطرة البويهيين على ايران كلها . وكيف كان ظهور هذه الدول وتفكير مؤسسيها السياسى تعبيرا لا شك فيه عن قومية ايرانية واضحة .

وأول ما يلاحظ أن جميع هؤلاء المؤسسين كانوا مجرد ولاة من الفرس انتهزوا فرصة ضعف الخلافة العباسية وحصلوا على الاستقلال ، وتوارثه بعدهم أبناؤهم أو أهل بيتهم . وخضعوا خضوعا اسميا للخلافة العباسية . ولكن نفوذهم السياسى لم يتجاوز هذا الحد بدليل الألقاب التى اتخذوها والتى نقشوها على سكتهم ، فلم يلقبوا بألقاب السلاطين انما ظل الواحد منهم بلقب الأمير أو الأصبهبذ أو الملك [3] .

هذا ولم تستطع قوة من هذه القوى التى أشرت اليها أن تغلب على ايران كلها فى حركة سياسية شاملة . انما الذى حدث أن كل اقليم من أقاليم ايران أو كل ولاية من ولاياتها حصلت على الاستقلال الذاتى . وظهرت فيها امارة تنظر الى الامارات الأخرى نظرة العداء . ولم يكن

---

(1) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٢٧ .

(2) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٢٧ .

(3) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١٠٥ .

هناك ثمة تفكير فى قوميـة ايرانية شـاملة فهذه المرحلة اذن هى مرحلة الاستقلال المجزأ •

ورغم هذا فان ظهورها كان تعبيرا عن القـومية الايرانيـة تجلى فى انتساب أغلبهم الى الفرس واشادتهم بهذا النسب ، واسراف من أرخ لهم فى اظهاره والتركيز عليه كما تجلى فى احيائهم الكثير من تقاليد الفرس السياسية ، وتشبههم بملوك الفرس القـدماء واقامة بلاط جاذب للقـوى الثقافية التى ساعدت على نشاط حركة الاحياء الفارسية • وكان ذلك كله فى أغلب الأحيان فى نطاق الولاء للخلافة العباسـية ، كما أن بعض هذه الامارات لم يتورع أن يشهر السلاح فى وجه الخليفة •

أما عن انتسابهم للفرس فأمر لا خلاف فيه ، فمؤسسو هذه الدول جميعهم كانوا من أصل ايرانى • فآل طاهر انتسبوا الى رزيق بن ماهان مولى طلحة بن عبيد الله الخزاعى والى سجستان من قبل مسلم بن زياد• فهم اذن من الموالى الفرس الذين أسـلموا فى العصر الأخير وبرزوا فى خدمة الدولة الأموية [1] • ويعتبر براون [2] أن الدولـة الطاهرية أولى الدول الفارسية الخراسانية التى قامت بعد الاسلام• وقد عاصر أبوالريحان البيرونى كلا من السامانيين والزياريين وعرض لأنسابهم • فعندما عرض لشمس المعالى قابوس بن وشمكير الزيارى عرض لنسب بنى زيار الفارسى فذكر أن هذه الأسرة من أصـل شريف الطرفين ، فأما أحـد الأصـلين فواردنشاه الذى لا تجهل سـيادته فى الجبل ، وأما الأصل الآخر فملوك الجبال الملقبون بأصبهبذية طبرستان والغرجوار جرشاهية • وليس ينكر اعتزاز من كان منهم من أهل بيت الملك الى ما يجمعهم بالاكاسرة فى شعب واحد ، فن خاله هو الأصبهبذ رستم بن قارن • وآل قارن[3] أحد الأسر

(١) Barthold, pp. 208-209.

(٢) تاريخ الأدب فى ايران ١٩ •

(٣) تاريخ الأدب فى ايران ص ١١٩ •

السبع الرفيعة على أيام الساسانيين الذين كان العـرب يسـمونهم « أهل البيـوتات » • ويمضى البيرونى متسلسـلا بنسـبهم حتى يصلهم بالملك الساسانى قباذ (٤٤٨ - ٥٣١) [١] •

ويشير البيرونى أيضا الى بنى سامان وكيف أنهم ينتسبون الى أسرة فارسية عريقة فى المجد ، كانوا من أشراف بلخ ومن كبار كهنته زرادشت• وقد ارتد سامان عن مذهب زرادشت واعتنق الاسـلام وسـمى ابنه باسم أسد بن عبد الله القسرى عامل خراسان فى أواخر عهد الأمويين• وظهر أولاد أسد بن سامان فى عهد الخليفة المأمون [٢] • بل يذكر البيرونى أن آل سامان يعقد الاجماع على صحـة نسـبهم الى بهرام جوبين الذى كان مرزبانا على بعض ولايات فارس اثنـاء حـكم كسرى برويز (٥٩٠ - ٦٢٧) [٣] •

ولم يكتف هؤلاء الأمراء بتأكيد هذا الانتساب الى الأكاسرة الفرس بل راح بعضهم يعمل على التشبه بالفرس فى نظم الحكم واحياء الكثير من التقاليد الفارسية القديمة وخاصة آل زيار• فقد روى أن مرداويج سأل عن تيجان الفرس وهيئتها فمثلت له فاختار صفة تاج كسرى• فعمل له تاج من الذهب جمعت فيه أنواع الجواهر ، وضرب له سرير من ذهب رصع بالجوهر فجلس عليه وجعل عليـه منصة عظيمـة وجعل أمامه سريرا من الفضة عليه فرش مبسـوط ، ودون ذلك كراسى مذهبـة ليرتب أصحاب الاقدار مراتبهم فى الاجلاس [٤] • كما يذكر أنه كاتب عاملا له أن يعد ايوان كسرى منزلا وأن يعمره كهيئته قبل الاسلام [٥] • ولما حضرت ليلة الوقود فى أصبهان جمعت الأحطاب من الجبال والنواحى البعيدة وأعدت

---

(١) المصدر والصفحة نفساهما •

(٢) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٧٣ •

(٣) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١٠٩ •

(٤) مسكويه جـ ٥ ص ٤٨٨ ، الصولى الأوراق ص ٢٨١ •

(٥) المسعودى : مروج الذهب جـ ٦ ص ٢٧ - ٢٩ •

الشموع العظام ، وعمل لمجلسه الخاص تماثيل وأساطين كبيرة من الشمع، وحشد على رءوس الجبال ما لم تجر العادة بمثله [1] .

واذا كان آل زيار قد جهروا على هذا النحو ، فان غيرهم من الأمراء مثل الطاهريين والسامانيين الذين ظهروا بمظهر الولاء الكامل للخلافة العباسية كانوا فى حياتهم الخاصة ومجالسهم وبلاطهم ودواوينهم ، انما يحيون النماذج الفارسية القديمة .

ولم يأنف بعض هؤلاء الأمراء من أن يشهر السيف فى وجه الخلافة ، وأن يرفع برقع الولاء الزائف ، مثل ذلك موقف يعقوب بن الليث الصفار من الخليفة المعتمد الذى جمع ببغداد حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان وقرأ عليهم كتاب الخليفة بلعن يعقوب ، وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب الى الامصار لتذاع بين الناس . وقد عمل يعقوب على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الاذعان لمطالبه [2] . ويقول براون [3] ان استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال انه بعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التى قام بها يعقوب بن الليث رغم أنه لم يكن من بيت عريق . ويذكر أيضا [4] أن الدولة الصفارية مثلا كانت فى أيامها الأولى أقل خضوعا وأكثر استقلالا من الدولة السامانية ويشير صاحب الفخرى [5] الى أن مرداويج كان ينوى قصد بغداد وتشتيت الدولة .

ويكفى تأييدا لهذه النزعة الايرانية الواضحة أن نذكر أن بلاط بعض هؤلاء الأمراء كان من أهم المراكز التى كانت تجذب الناظمين الشعر الفارسى الجديد كبلاط السامانيين فى بخارى وقصر شمس المعالى قابوس ابن وشمكير فى طبرستان .

---

(١) متز الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٧ .
(٢) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٩٦ .
(٣) تاريخ الأدب فى ايران : ج ١ ص ٣٤١ ــ ٣٤٧ .
(٤) تاريخ الأدب فى ايران ص ١٩ .
(٥) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٥١ .

(جـ) العصر البويهى (٣٢٠ ـ ٤٤٧) ـ الاستقلال الشامل :

سنة ٣٢٠ بداية لاحداث هامة فى تاريخ عنصر الديلم بصفة خاصة وتاريخ ايران بصفة عامة • اذ لم يعد ظهور الديلم وتغلبهم مقصورا على ديارهم الأصلية فى طبرستان والرى منطلقين خلف بنى زيار • انما تجاوزوا هذا الموطن الأصلى لينطلقوا فى الحياة الاسلامية وليؤسسوا الامارات البويهية ، ثم ليمتد نفوذهم بزعامة بنى بويه على أغلب الوطن الايرانى ثم ليفرضوا نفوذهم على الخلافة ، وليحكموا العالم الاسلامى باسمها • فكانوا اذن آخر العناصر الايرانية ظهورا تحت علم الخلافة ، اذ سيعقبهم السلاجقة من الأتراك الشرقيين ، وعلى انقاض السلاجقة سيندفع المغول ليجتاحوا ايران ويزيلوا الخلافة العباسية من بغداد •

ونستطيع أن نتبين معالم الطريق الذى انطلق فيه بنو بويه لينشئوا اماراتهم الأولى • فما كاد الأمر يستقر لمرداويج بن زيار الديلمى ويذيع صيته حتى توافد عليه ثلاثة من قادة الديلم كانوا فى خدمة ما كان بن كالى• وشعروا أن خدمتهم عند ماكان لا تحقق اطماعهم فتركوه قائلين « الأصلح لك مفارقتنا اياك لتخف عنك مؤنتنا ويقع كلنا على غيرك ، فاذا تمكنت عاودناك » (١) •

كان هؤلاء الثلاثة هم على والحسن وأحمد أولاد بويه • ومضوا الى مرداويج ومعهم جماعة من رجال ما كان وانضموا اليه • وكان مرداويج فى أمس الحاجة الى أن يشتد ازره بالديلم ، وان يتكاثر عددهم ليستطيع أن يحقق مشروعاته ، فرحب بهم وخلع على على وأخيه الحسن ، وولى القواد الذين وصلوا معه النواحى ، كما ولى عليا بن بويه بلاد الكرج ، وكتبت لهم العهود ، وبعثهم الى أخيه مرداويج بالرى لينفذهم الى أعمالهم (٢) •

---

(١) مسكويه جـ ٥ ص ٤٣٧ •

Browne, vol. I, p. 367

(٢) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٤٢ ـ الخضرى ص ٣٧٥ •

ولكن يبدو أن مرداويج ما لبث أن اكتشف أن أطماع أولاد بنى بويه ، أبعد من مجرد قواد يعملون تحت امرته ، فساوره الشك فى أمرهم [1] . فكتب الى اخيه وشمكير أن يمنع القواد ، ويمزق العهود التى تلقوها . وتشاء الظروف أن يمنع القواد جميعهم وأن يفلت على بن بويه بفضل نصيحة وزير مرداويج الملقب بالعميد . فلما أراد وشمكير أن يسير اليه من يرده ، خوفه العميد وقال له انه قد لا يرجع طوعا وقد يقاتل من يقصده ، ومن الأجدر تركه ، فقد أعجب العميد بفضائل تحلى بها على ، من سماحة وشجاعة وسعة صدر وحسن سياسة [2] .

فكان هذا الافلات بداية لظهور على وميلادا للامارة البويهية الجديدة . فقد مكن لنفسه من بلاد الكرج ، وأحسن الى العمال والناس ، وبذل وأنفق وفتح قلاعا للخرمية [3] . وظفر بذخائر عظيمة أنفقها فى استمالة الرجال ، فانتشر ذكره وقصده الناس . وليكثر عدد اتباعه استمال بعض رجال مرداويج ، فأعطاهم وأحسن اليهم فدخلوا فى طاعته. وأسس الامارة الأولى فى بلاد الكرج فقد جبا أموالها واستأمن اليه شيرزاد من اعوان قواد الديلم ، فلما أحس من نفسه قوة ، ومن جيشه كثرة ، سار بمن معه الى أصبهان وحارب صاحبها المظفر بن ياقوت وهزمه وانتزع المدينة منه .

ويبدو أن قوة على أرهبت مرداويج وأخافته ، فعدل عن سياسة التلويح بالقوة وأراد ان يستخدم الدهاء والحيلة ، فراسل عليا يعاتبه ، ويذكره بفضله عليه ويستميله ويطلب اليه أن يخطب له على منابر البلاد التى فتحها ، فى الوقت الذى عهد فيه الى وشمكير أخيه أن يقضى عليه . ولم يفت قصده على على بن بويه ، فرحل عن أصبهان وسار الى أرجان

---

(1) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٠ .

(2) متز الحضارة الاسلامية ج ١ ٢٨٩ .

(3) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٤٣ .

فاستولى عليها ، وقصد رامهرمز فأخضعها ومنها انطلق الى النوبندجان سنة ٣٢١ • وسار الى اصطخر حيث قضى على قوات المظفر بن ياقوت [١] •

وكلما اتسع سلطان على اتسع نطاق آماله ، فلم يكتف بما وصل اليه انما قصد شيراز وفتحها واستولى على أموال ابن ياقوت • وتكاثر اعداد مؤيديه وتأكد سلطانه وأراد أن يكسب امارته الناشئة سندا شرعيا ، فراسل الخليفة الراضى بالله ليعرفه أنه على الطاعة ويطلب أن يولى ما بيده من البلاد لقاء مليون درهم ، فاعترف الخليفة به ، وبعث اليه بالخلع والألوية •

ولم يكن على بن بويه ممن يحسنون استخدام السلاح فى تحقيق أغراضه فحسب بل استخدم الدهاء واللين أيضا • فلما علم أن مرداويج خرج الى الأهواز كتب اليه يستميله واستقر الأمر بينهما على أن يخطب ابن بويه لمرداويج • ومن حسن حظه أن قتل مرداويج سنة ٣٢٣ ، فتخلص من أشد منافسيه خطرا • وأطلق سراح أخيه الحسن بن بويه الذى كان رهينة عند مرداويج • فانضم الى أخيه بفارس • وصارت القوى الكبرى التى تتنازع السيادة على ايران • قوة على بن بويه فى فارس ، ووشمكير فى الرى ، والسامانيين فيما وراء النهر •

وكان النصر للقوة النامية الجديدة قوة بنى بويه • فقد بعث على أخاه الحسن الى بلاد الجبل ومعه قواته من الديلم والترك ، فاستولى على أصبهان وعدة مدن من بلاد الجبل ، وطرد منها عمال وشمكير ، كما تم له الاستيلاء على همذان وقم وقاشان والرى وكنكور وقزوين [٢] •

ولم يقنع على بما انتهى اليه أمره من نفوذ ، فقد تطلع الى الاهواز والعراق حيث الخلافة العباسية الضعيفة ، ولكن لم يرد أن يترك مستقره بفارس • وكان أخوه الحسن مشغولا باقرار الأمور فى منطقة الجبل ، وأخوهما الثالث أحمد لم يلعب دورا بارزا بعد ، فادخراه لمهمة الأهواز

---

(١) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٤٣ •

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٤ ، حسن ابراهيم ج ٣ ص ٤٣ •

والعراق ، فاستولى على الأهواز وواسط ، وعندئذ كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم لانقاذ العاصمة مما سادها من فتن واضطرابات ، فدخل بغداد فى ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ فى عهد الخليفة المستكفى . وقد لقى المستكفى وبايعه أحمد بن بويه بالخلافة ، كما بايعه الخليفة بالسلطنة. وخلع الخليفة على بنى بويه الألقاب التى غلبت عليهم ، فلقب على صاحب امارة فارس عماد الدولة ، كما لقب الحسن صاحب الرى والجبل ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة ، وكانت الزعامة الفعلية لأكبر أبناء بويه على عماد الدولة . وقد أمر الخليفة أن تضرب القابهم وكناهم على النقود . وكان معز الدولة أحمد بن بويه يخطب على منابره باسم الخليفة وباسم زعيم بنى بويه وعماد الدولة .

هكذا استقر بنو بويه ببغداد عاصمة الخلافة ليس مجرد عمال للخليفة أو قادة للجيش أو اصحاب للشرطة كما كان شأن آل طاهر ، انما فرضوا سلطانهم على الخليفة نفسه واتخذوا من وجودهم فى بغداد فرصة لنشر نفوذهم فى العالم الاسلامى كله . ففى سنة ٣٣٤ تصدى معز الدولة لناصر الدولة بن حمدان وحاربه ونأوا البريديين . وصحب الخليفة المطيع معه فى استيلائه على البصرة وطرد البريديين منها [١] .

وتألق نجم الديالمة فى عهد معز الدولة الذى حكم فى بغداد نحو اثنتين وعشرين سنة (من ٣٣٤ الى ٣٥٦) . وقد كانت له السلطة فى بغداد والعراق . وكانت علاقته بأخويه عماد الدولة فى فارس وركن الدولة فى الرى وهمذان وأصبهان ، تقوم على أساس متين من المودة والصفاء . وتوفى سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه بختيار عز الدولة (٣٥٦ - ٣٦٧) فكاد أن يقضى على هيبة بنى بويه بحماقته وسوء تدبيره ، فلم يجد عضد الدولة بن على بن بويه خاصة بعد وفاة ابيه زعيم البيت وصاحب الأمر فيه بدا من التدخل فى العراق سنة ٣٦٦ [٢] .

---

(١) متز ج ١ ص ٢٤ . حسن ابراهيم ج ٣ ص ٤٤ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

وقد عـاود النفـوذ البويهى الانطلاق مرة أخـرى فى عهد عضـد الدولة ، ففى سنة ٣٦٨ استولى على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار بكر وديار مضر • وهرب أبو تغلب الحمدانى لاجئـا عند الخليفـة العزيز الفاطمى [١] • وكان أول من لقب بلقب ملك فى الاسلام• وخطب له على المنابر بشاهنشاه الأعظم ملك الملوك [٢] •

ولم يبلغ أحد من أمراء بنى بويه ما بلغه عضـد الدولة من سطوة الملك وسعة النفوذ ، فقد امتد نفوذه على بغداد والعراق وكرمان وفارس وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحران ومنبج [٣] • كان عصر عضد الدولة أعظم انطلاقة لبنى بويه خاصة وللديالمة عـامة ، فآلت اليهم مقاليد القيادة السياسة فى العالم الاسلامى كله بصورة فريدة لم تعرف من قبل • وكانت السيادة أو السطوة البويهية تتمثل فى عضد الدولة أصدق تمثيل [٤] • وتجلت له القدرات والمواهب التى أعانته على بلوغ هذه المنزلة ومكنت للنفوذ البويهى من الحياة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى •

وتكشف المصادر عن الأسـلوب الذى استخدمه عضـد الدولة فى الحفاظ على هذا السـلطان الواسـع لبنى بويه • فمثلا كان يعنى بمعـرفة الأخبار وسرعة وصولها • فكان يسأل عن الأخبار الواردة ، فاذا تأخرت غضب غضبا شديدا • وكانت الأخبار تصل من شيراز الى بغداد فى سبعة أيام فتقطع كل يوم ما يزيد عن مائة وخمسـين كيلومترا [٥] • واستخدم نظام الجاسـوسـية كان يبحث عن اشراف الملوك وينقب عن سرائرهم • وكانت أخبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم انسان بمصر رقى اليه ذلك • حتى أن رجلا بمصر ذكره بكلمة فاحتال حتى جاء به ووبخه عليها ، ثم

---

(١) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٤٧ •
(٢) متز جـ ١ ص ٣٣ •
(٣) ابن العميد ص ٣٣٦ ـ ٢٣٩ •
(٤) آدم متز جـ ١ ص ٣٣ •
(٥) آدم متز جـ ١ ص ٣٤ ، ٣٥ •

رده فكان الناس يحترسون فى كلامهم وأفعالهم مع نسائهم وغلمانهم [1].
وكان بارعا فى اختيار الولاة والعمال ، وطهر السبل من اللصوص وقضى على قطاع الطرق . وأقر النظام فى صحراء بلاد العرب وصحراء كرمان.
وأقام للحجاج السواقى فى العراق ، وحفر الآبار وأمر بعمارة منازل بغداد . وحفر آبارها وعمر المساجد الجامعة وجلب الغروس من فارس وسائر البلاد وكان يوطن البدو فى فارس وكرمان ليزرعوا الأرض ويعمروها [2] .

ولم تكن العراق مركز الدولة فى عهده ، بل كان مركزها فى فارس حيث كان يقيم قاضى القضاة ويعين أربعة خلفاء له على أرباع بغداد [3] .
وكان عضد الدولة قد تعلم على أحسن المعلمين وكان يفخر بهم . وكان يحب العلم والعلماء ويرتب الجرايات للفقهاء والمحدثين وسائر أهل العلم [4] . وكانت له مكتبة عظيمة وكان هو نفسه يتذوق الأدب ويحب الشعر ويجيز الشعراء ، ويفضل مجالس الأدباء على مجالس الأمراء .
وكان يقرض الشعر وينشده [5] . فلا غرو أن كان عهده نموذجا للتألق البويهى . ولم يخرج بيت بنى بويه بعد عضد الدولة جيلا يصلح للحكم [6] .

لم يستطع ابنه أبو كاليجار المرزبان الذى لقب صمصام الدولة أن يملأ الفراغ الذى تركه أبوه ، فقد نازعه أخوه شرف الدولة ، وكان نفوذه يمتد على اصبهان والرى وشيراز ، وطمع فى العراق وانضم اليه جنود صمصام الدولة ودخلوا فى طاعته . وقد سار الى الأهواز ومنها الى واسط وتمكن من قهر أخيه وتوحيد صفوف الأتراك والديلم وتقلد سلطنة

---

(١) متز جـ ١ ص ٣٥ .
(٢) مسكويه جـ ٦ ص ٥٢ .
(٣) متز جـ ١ ص ٣٦ .
(٤) متز جـ ١ ٣٦ ـ ٣٧ .
(٥) متز جـ ١ ص ٣٧ .
(٦) ابن خلكان جـ ١ ص ٤١١ .

« بغداد فتلقاه الخليفة الطائع وهنأه بالفتح والظفر وطوقه وسوره وكتب له عهدا وولاه ما وراء بابه ، وعقد له لواءين ولقبه شاهنشاه »[1] .

وتوفى شرف الدولة سنة ٣٧٨ وخلفه أخوه ابو نصر الملقب بهاء الدولة وضياء الملة . ثم دب الانقسام فى جسم الدولة البويهية سنة ٣٧٩، فقد فر صمصام الدولة من معتقله ، وانتصر على جيش بهاء الدولة قرب شيراز سنة ٣٨٠ . وتم الصلح بينهما على اقتسام النفوذ ، على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق. لكن هذا الصلح لم يدم طويلا ، فاختصما مرة أخرى ، وانتهى الأمر بمقتل صمصام الدولة سنة ٣٨٨[2] . وازداد الانقسام وضوحا بعد وفاة بهاء الدولة سنة ٤٠٣ . فاشتعلت الحروب بين أبى الفوارس قوام الدولة وبين أخيه سلطان الدولة واضطر أبو الفوارس الى الاستنجاد بمحمود الغزنوى . وبدأت طوائف الجند تذكى هذا الصراع وتنصر فريقا على فريق . وثار الجند فى وجه سلطان الدولة تأييدا لأخيه مشرف الدولة . فلم يجد بدا من الاستجابة لرغباتهم وترك بغداد مستخلفا شرف الدولة[3]

ولم تهدأ الفتن فى عهد جلال الدولة (٤١٦ ـ ٤٣٥ هـ) ، فقد زاد نفوذ الاتراك تدخلا فى شئون الدولة وتولية الأمراء وعزلهم ، فثاروا فى وجه جلال الدولة أكثر من مرة . وثارت الفتن بين الأمراء البويهيين « واختلت المملكة أيام جلال الدولة وقطعت عنه المادة حتى أخرج ثيابه وصار أكثر الأبواب مغلقا . وانقطع ضرب الطبول فى أكثر الأيام لانقطاع الطبالين »[4] .

وتعرض جلال الدولة لمطامع ابن كاليجار بن سلطان الدولة

---

(١) ابن العميد ص ٢٤١ .

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٩ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٥٣ .

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١١٨ .

(٤) متز جـ ١ ص ٢٣٩ .

وأصبحت البصرة سنة ٤٢٤ ميدانا للصراع بين جلال الدولة وعماد الدولة ابن أخيه • وأشار ابن الأثير [1] الى النزاع الذى قام بين جلال الدولة البويهى وقرواش بن المقلد العقيلى صاحب الموصل •

واستمرت الدولة البويهية تتجرع كأس الفتنة وتعانى من أسباب الضعف نفسها والفرقة فى عهد ابى كاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠) الذى اغتصب السلطنة من الملك العزيز ابن جلال الدولة • وكان الأتراك السلاجقة قد بدأت أطماعهم تتجه الى ايران والعراق وظلت هذه الفتن لا تهدأ حتى انتهى ملك آل بويه فى عهد الرحيم سنة ٤٤٧ •

على كل حال استفاد البويهيون الى أبعد الحدود من أخطاء العصر الذى عاشوا فيه • وتخلقوا بخلقه ، واستعانوا بالدهاء والمكر والمهارة والجندية • وكانوا لا يترددون فى ترك خدمة قائد الى خدمة آخر يدفع لهم أكثر من الأول [2] • هذا الى جانب القدرة على جمع المال بكل وجه ليدخروه ويكون بين ايديهم دائما • كان ركن الدولة صاحب الرأى لا يستجيب الى عمارة نواحيه خوفا من اخراج درهم واحد من الخزانة ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت [3] • وقد جمع عضد الدولة بما كان فيه من حرص ودهاء ثروة طائلة ، وكذلك ترك فخر الدولة مالا عظيما ، فقد ذكر الصابى أنه ترك ٢٨٤ر١٧٥ر٢ دينارا ومن الورق والنقد والفضة ٧٩٠ر٨٦٠ر١٠٠ • ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح وضروب المتاع شيئا كثيرا • وكان شحيحا حتى كانت مفاتيح خزائنه فى كيس من الحديد مسمر بالمسامير لا يفارقه ، كما يذكر ابن الجوزى أن بهاء الدولة جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من بنى بويه• وكان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات [4] •

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨٢ ـ ١٨٣ •

(٢) متز جـ ١ ص ٢٨ •

(٣) مسكويه جـ ٨ ص ٣٥٧ •

(٤) متز جـ ١ ص ٢٩ •

أما عماد الدولة فكان أشبه بالتاجر المخادع ، فقد طلب من الخليفة الراضى أعمال فارس ، على أن يؤدى كل سنة مائة ألف ألف درهم • وأرسل ابن مقلة بالخلع واللواء على ألا يسلمها الا بعد تسلم الخراج • ولكن عماد الدولة احتال حتى تسلم الخلع ولبسها ودخل بها شيراز وبين يديه اللواء ، ولم يدفع من المال شيئا حتى مرض الرسول ومات شيراز (١)

هذا الى اللين والمسالمة والمعرفة بطبائع الناس، فكانوا يحسنون معاملة الأسرى ويعفون عنهم ويؤمنونهم من جميع ما يكرهون حتى يطمئنوا اليهم (٢) ، كما فعل على بن بويه • وكان ركن الدولة حليما واسع الكرم حسن السياسة لرعاياه وجنده (٣) • كما اتصفوا على الأقل فى الجيل الأول المؤسس للدولة بالتضافر الوثيق والطاعة التامة • ويرجع الفضل فى ذلك الى صفات على بن بويه صاحب الفضل فيما بلغه آل بويه من قوة وعزة • ومن أمثلة طاعته أن معز الدولة أصغر الأخوة الثلاثة لما قابل أخاه عماد الدولة فى أرجان سنة ٣٦٣ قبل الأرض بين يديه • وكان يقف حتى يأمره بالجلوس فلا يفعل (٤) • ولما مات الأخ الأكبر انتقلت الرياسة الى أخيه الثانى ركن الدولة فى الرى ، فلم يخالف معز الدولة أمره • ولما أحس معز الدولة بدنو أجله أوصى ابنه بطاعة ركن الدولة واستشارته ، وكذلك ابن عمه عضد الدولة لما له من سن وعلم بالسياسة (٥) •

وقد تميز العصر البويهى فى تاريخ الحركة القومية الايرانية بميزات هامة منها : أن عصرهم يمثل التعبير الشامل عن القومية الايرانية وعن الوطن الايرانى باقسامه الجغرافية المختلفة • وقد رأينا القوى السابقة يعبر

---

(١) متز ج ١ ص ٣٠ •
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٣ •
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٣ •
(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٥٣ •
(٥) متز ج ١ ص ٣١ •

كل منها تعبيرا جزئيا عن هذه القومية . وقد شمل نفوذ البويهيين الحدود الايرانية الحقيقية الممتدة من العراق الى آسيا الوسطى . فعهدهم من هذه الناحية يمتاز بهذا التعبير الشامل عن قومية ايرانية موحدة اللواء . ويعد العصر البويهى من هذه الناحية أصدق تمثيلا للمرحلة الثانية من تاريخ القومية الايرانية .

وهناك مظهر آخر هو أن القومية الايرانية لم تكتف بمجرد تكتل الوطن الايرانى خلف زعامة ايرانية خالصة ، انما فرضت نفوذها على العالم الاسلامى كله . وذلك حين استطاع البويهيون بعد دخولهم بغداد سنة ٣٣٤ أن يفرضوا سيطرتهم أولا على منصب الوزارة ، ذلك أن أحمد بن بويه لما دخل بغداد ، كان أول ما طلبه من المستكفى أن يستكتب ابن شيرزاد ، وكان المستكفى قد حلف ألا يتصرف ابن شيرزاد فى أيام دولته . لكنه أجاب عماد الدولة الى ما طلب عن كره منه (١) . فكان ذلك تطورا جديدا فى تاريخ الوزارة (٢) .

وقد عرض هلال الصابى فى كتابه تاريخ الوزراء لأهم وزراء القرن الرابع وهو يقسمهم طائفتين : وزراء الدولة العباسية ثم كتاب أيام الديالمة (٣) . ومما يدل على سقوط هيبة الوزارة أن معز الدولة البويهى وكان سريع الغضب ضرب وزيره أبا محمد المهلبى حتى اذا جاء بختيار ابن معز الدولة استوزر صاحب مطبخه (٤) وهو الوزير ابن بقيه (٥) . وقد أحدث عضد الدولة فى منصب الوزارة أمرين لم يكونا قبله . فقد اتخذ وزيرين معا كان أحدهما نصرانيا ، وأصبح هذا تقليدا سار عليه خلفاؤه من بعده (٦) .

---

(١) متز ج ١ ص ١٧ .

(٢) متز ج ١ ص ١١٨ ـ المسعودى التنبيه ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ .

(٣) الوزراء ص ٣ .

(٤) متز ج ١ ص ١٢٠ .

(٥) متز ج ١ ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٦) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٢٤٤ .

ولم يكتف البويهيون بالسيطرة على منصب الوزارة وامتهانه الى هذا الحد بل تولوا منصب أمير الأمراء ، فقد عين معز الدولة ابنه بختيار أميرا للأمراء سنة ٣٣٤ . وظل هذا تقليدا لم يخرجوا عنه [١] .

وأهم من هذا أن آل بويه الديالمة أصبحت لهم السيطرة على الخليفة حتى أضحى فى الحقيقة آلة فى أيديهم يحركونها كيف يشاءون [٢] . وقد أصبح بنو بويه فى عهد الخلفاء الذين عاصروهم مطلقى التصرف فى العراق ، ولم يتورعوا من التعدى على أشخاص الخلفاء وانتقاص حقوقهم. فمعز الدولة لما دخل بغداد فكر فى ازالة الخلافة العباسية واقامة خلافة علوية مكانها لولا أنه خاف أن يتعرض سلطانه للخطر . وقد ذكر ابن الأثير [٣] أن معز الدولة أهان الخليفة المستكفى وقبض عليه ولما جاءوا اليه ليخلعوه رضى أن يخلع نفسه ولكنه اشترط ألا يقطعوا شيئا من أعضائه [٤] . ولكن عينيه قد سملتا وولى المطيع الخلافة مكانه . وحدد له الف درهم فى اليوم ، ثم قطع ذلك الراتب وحدد البويهيون له اقطاعات يسيرة يعيش منها ، كما عينوا له كاتبا يتصرف فى شئونه . أما عز الدولة بختيار فسرعان ما خلع المطيع وولى الطائع الخلافة [٥] . وما لبثت العلاقات أن ساءت بين الخليفة الطائع وبين عضد الدولة الذى أمر بحذف اسمه من الخطبة لمدة شهرين . وحمله على أن تضرب الطبول أمام داره ثلاث مرات فى اليوم ، وأن يخطب له على منابر بغداد [٦] . ولما جاء بغداد سنة ٣٣٧ طلب من الخليفة أن يخرج للقائه . ولم تكن العادة جارية بخروج الخلفاء

---

(١) Browne, vol. I, p. 367.

(٢) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١٠٥ .

(٣) جـ ٨ ص ١٦٢

(٤) متز جـ ١ ص ١٧ .

(٥) السيوطى : الخلفاء ص ٢٧٠ .

(٦) متز جـ ١ ص ٢٠٤ .

لتلقى أحد الأمراء [1] . كما ساءت العلاقات بين بهاء الدولة والخليفة الطائع فقبض عليه وخلع وبويع القادر بالله سنة **٣٨١** بعد أن صادر أموال الطائع [2] . وازداد نفوذ بهاء الدولة فى عهد القادر فاستبد بالسلطة دون الخليفة الذى « قلده ما وراء بابه » [3] . وقد خلف القادر ابنه القائم بأمر الله سنة **٤٢٢** .

وكان الخليفة القائم فى عهد جلال الدولة وابى كاليجار والملك الرحيم مسلوب السلطة كغيره من الخلفاء الذين سبقوه فى الوقت الذى أصبح فيه بنو بويه يحكمون العالم الاسلامى كله باسم الخلافة . وقد اتخذ البويهيون الأواخر من التقرب من الفاطميين وسيلة لاثارة مخاوف العباسيين ، حتى لا يرتموا فى أحضان اعدائه السلاجقة .

وقد انفرد البويهيون دون الامارات التى سبق أن أشرنا اليها بالألقاب التى حملوها والتى عكست السلطان الذى حازوه . فكان البويهيون أول من ثنى لهم اللقب دون سائر الأمراء . فكان عضد الدولة يلقب بتاج الملة . ثم ثلث اللقب فلقب بهاء الدولة بضياء الملة وغياث الأمة [4] .

ويعلق البيرونى على هذا الاسراف فى التلقيب بقوله « وبنو العباس لما لقبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة وسووا فيها بين الموالى والمعادى ونسبوهم الى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم » [5] .. ولما خلع القادر بالله على محمود بن سبكتكين صاحب غزنة لقب سلطان طالب الأمير البويهى أن يلقب بالسلطان المعظم مالك الأمم فعدل اللقب الى مالك الدولة [6] .

---

(١) متز ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٥٣ .

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٤ .

(٤) متز ج ١ ص ١١٧ .

(٥) الآثار الباقية ص ١٣٢ .

(٦) متز ج ١ ص ١٩٧ .

ولم يكتف البويهيون بحمل هذه الألقاب التى تشف عن سلطانهم وتنم عن قدراتهم ، بل أحيوا الألقاب الفارسية القديمة ، فلما استقرت امارة شرف الدولة بن عضد الدولة فى العراق لقبه الخليفة الطائع بلقب شاهنشاه [1] • وأصبح بعد ذلك علما على من يتولى السلطة منهم • وفى سنة ٤٢٩ زيد فى ألقاب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك وهو اللقب الوثنى القديم ، فثار العامة ورموا الخطباء بالآجر وأفتى الفقهاء أن هذه الأسماء انما يعتبر فيها القصد والنية ، وان ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض ، وليس فيه مماثلة بين الخالق والمخلوق [2] • وقد نقشت هذه الألقاب جميعها على العملة وذكرت أسماؤهم فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، وخلعت عليهم الخلع السلطانية وتوجوا وطوقوا وعقدت لهم الألوية [3] •

بل وجد البويهيون من المؤرخين من ينسبهم الى بهرام جور كما نسبهم البعض الآخر الى كبير وزرائه مهرنوسى [4] • يقول صاحب الفخرى « أما نسبهم فيرتفع من بويه الى واحد من ملوك الفرس » [5] •

٢ ـ النتائج الحضارية

والتقدم الحضارى الذى أحرزته جماهير المسلمين فى ايران سار فى الطريق نفسه الذى سلكه التقدم السياسى وقد مر بمرحلتين متمايزتين•

(ا) المرحلة الأولى موازية للمرحلة التى قطعتها العناصر الايرانية فى مجال التقدم السياسى طوال العصر العباسى الأول • وقد ظهر أثر

---

(١) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٥٠ •

(٢) متز جـ ١ ص ١٩٧ • Borwne, vol. I, p. 364.

(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٣٢٦ •

(٤) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٣٥ •

(٥) ص ٢٤٦ •

الايرانيين فيها واضحا فى نظم الحكم ، والحياة الاقتصادية ، والاجتماعية وفى الحياة الثقافية •

ولكن هذا التقدم كان فى نطاق العروبة وتحت علم الخلافة •

(ب) والمرحلة الثانية موازية لمرحلة الامارات الاسلامية المستقلة والنفوذ البويهى فى الوقت الذى وضح فيه ضعف الخلافة وفقدان سلطانها • وأهم ما تميزت به هذه المرحلة نهضة الأدب الفارسى شعرا ونثرا •

(أ) المرحلة الأولى : تقدم العناصر الايرانية فى نطاق العروبة وتحت علم الخلافة :

١ ـ نظم الحكم :

كان من أثر اسلام الايرانيين واعتماد الدولة العباسية عليهم وتقدمهم ذلك التقدم السياسى الذى بيناه أن بدأت الحياة الاسلامية تشهد احياء التقاليد الايرانية فى نظم الحكم • وقد أفاد العباسيون على نطاق واسع من التقاليد الادارية الفارسية القديمة ، يقول برنارد لويس « وكانت الادارة عند العباسيين تطورا للادارة عند الأمويين المتأخرين واعترف المنصور بدينه الكبير للخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فى تنظيم الدولة » [١] •

الا أن تأثير النظام الفارسى المعمول به أيام الساسانيين أخذ يزداد قوة ، وكثير من شعائر العباسيين تقليد متعمد للعادات الفارسية التى أصبحت معروفة اذ ذاك عن طريق الموظفين الفرس [٢] • وقد كان المنصور فى الحقيقة هو المشرع الادارى للعصر العباسى ، كان يسير على خط هشام ابن عبد الملك فى الافادة من التجارب الفارسية القديمة •

---

(١) العرب فى التاريخ ص ١١٩ •

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٦٤ •

وقد اتخذت هذه الافادة من تقاليد ايران القديمة صورا متعددة ، فقد كانت استحداثا لأنظمة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كما أدت الى تطوير أنظمة قائمة . فمن قبيل استحداث أنظمة لم تكن موجودة من قبل ما كان من نشـأة الوزارة وتطورها فى العصر العبـاسى الأول ، فقد استحدث منصب للوزارة تأثرا بتقاليد الفرس ، ولم تتضح صورتها فى عهد ابى سلمة الخلال أول الوزراء العباسيين ، ولكنها وصلت الى قمة التطور فى أواخـر العصر العباسى الأول . وكانت سلطة الوزير ضخمة [1] . فقد كان يقضى باسم الخليفة فى جميع شئون الدولـة ، فكان له الحق فى تنصيب العمال والاشراف على الضرائب . وكان كذلك ينوب عن الخليفة فى حكم البلاد ويجمع فى شخصه بين السلطتين المدنية والحربية [2] .

وفى استطاعتنا أن نجد صورا ممتعة عن وزراء العصر العباسى الأول فيما ذكره الجهشيارى وهلال الصابى ، عن حياتهم وأساليبهم فى العمل ، ووسائلهم وعلاقاتهم بالخلفاء ، وأثرهم فى سياسة الدولة وحياتهم الخاصة ، هذه المادة الخصبة تبين كيف كانت تقاليدهم وأسـاليبهم فى العمل احيـاء للسنن الفارسية القديمة . لقد كانوا فرسا فى ثياب عربية .

هؤلاء الوزراء كان لهم أعوان من أرباب الأقلام يسمون بالكتاب ، وكان لكل وزير كاتب أو كتاب يعينـونه . وكان أكثر هؤلاء الكتـاب فرسا كالوزراء يحتذون حذو أجدادهم من الفرس حتى فى مظهرهم . بل ان صيرورة الكتابة طبقة ليس الا تقليدا للنظام الفارسى . وقد ترك هؤلاء الكتاب أثرا كبيرا فى نشر الثقافة وذيوعها . فثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم . وكانت مناصبهم تحتم عليهم أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم . وأن يلمـوا بعلوم اللغـة والأدب وعلوم الدين وعلم الكلام

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٠٧ ـ الفخرى ص ١٣٦ ـ ١٣٩ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

والجغرافيا والتاريخ [1] . وقد أسهم هؤلاء الوزراء وكتابهم فى نشر الثقافة العامة وجمعوا بين الآداب العربية والفارسية .

كما أن اتساع سلطان الخلافة وتنوعها وكثرة مشاكلها الداخلية والخارجية تطلب التوسع فى الدواوين بصورة لم تكن مألوفة من قبل . وكانت هذه الدواوين كلها تنقسم الى مجموعتين رئيسيتين : الأولى للتوجيه الادارى والمكاتبات الرسمية مثل البريد والمراسلات والتوقيع والخاتم ، والثانية مختصة باستتباب الأمن فى الدولة وتوفير الحماية لها مثل الشرطة والحسبة والجند .

وقد تسربت العناصر الايرانية ـ كما تقدم ـ الى جميع أجهزة نظم الحكم ؛ تسربت الى جميع الوظائف الصغرى فى العاصمة والأقاليم ، بل بدءوا يتولون بعض المناصب ذات الأثر فى توجيه الدولة كمنصب الوزير والكاتب ، واحتكروا هذا المنصب طويلا واشتهرت منهم طائفة ، أمثال الفضل بن سهل ، وأحمد بن يوسف ، والحسن بن وهب وغيرهم .

وتطرقت هذه العناصر الى أرفع المناصب فى الدولة مثل منصب الولاية على البلدان وقيادة الجيش ، اذ تسربت هذه العناصر الى النظام الحربى للدولة وأصبحت بمضى الوقت اليد الضاربة للخلفاء العباسيين . وقد دخل أفراد الطبقة العاملة ميدان الجندية وفرض لهم العطاء . وكان الخراسانية أهم العناصر المقاتلة فى الجيش العباسى . كانوا هم فى الحقيقة حرس الخليفة وقوته الضاربة وبيدهم زمام الجيش حتى كان عهد المعتصم ، ووجد أن خراسان لم تعد المنبع الوحيد الذى يمكن أن يمد الدولة بحاجتها المستمرة الى العناصر المحاربة . وسيطرت العناصر الايرانية ـ كما قلنا ـ على القيادات العسكرية فى الجيش والأسطول . وفرض لهم العطاء أكثر من سواهم وجهزوا بأفضل سلاح وأكمل لباس .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٧٠ .

وكان عطاء الجندى من المشاة زمن أبى العباس السفاح نحو تسعماية وستين درهما فى السنة فضلا عن الطعام والمخصصات • وكان الفارس يتناول ضعف ذلك • ثم تضاعف مقدار العطاء حتى بلغ أقصاه زمن المأمون • ونظمت فرق الجيش على أسس جديدة •

٢ ـ الايرانيون والحياة الاقتصادية :

والثورة العباسية فتحت طريق العمل السياسى أمام جماهير المسلمين الايرانيين فتحت أمامهم فى الوقت نفسه الطريق الى النشاط الاقتصادى • فقد أسقطت القيود التى فرضها الأمويون الأواخر وخففت عن الفلاح عبء الخراج ورفعت من مستواه • وأعطت العمال فى المدن الكبرى حرياتهم المدنية ، وأزاحت من سبيلهم كل العقبات • ولكن طبقات أخرى غير العمال والفلاحين استغلت هذا الميدان المفتوح دون قيد فانطلقت فيه الى الغاية ، وأفادت من النهضة الاقتصادية العظيمة • وظهرت اقطاعية عظيمة النفوذ ، بعيدة السلطان تملك المساحات الواسعة من الأرض فى العراق أو الأمصار وتستغل هذه الأرض لصالحها ، وتستدر منها أعظم الثروات • وكذلك نشأت طبقة رأسمالية استغلت الأموال الطائلة فى المشروعات الصناعية والتجارية •

وقد أقطع ابو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ليعمروها ويسكنوها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة • وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها ، وازدحمت بالسكان وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها [١] • والبرامكة فى عصر الرشيد حازوا الأموال دونه واستولوا على القرى والضياع من النواحى والأمصار [٢] • ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كان للنساء والمحظيات

---

(١) اليعقوبى : البلدان ص ٢٤٢ ـ ٢٥٤ •

(٢) المسعودى : المروج جـ ٢ ص ٤٢٢ •

اقطاعات يهبها لهن الخلفاء • واضطر المقطعون الى تدبير أملاكهم عن طريق وكلائهم • واختلفت الاقطاعات حسب الافـراد الذين منحت لهم ، فقـد منحوا الاقطاعات للرجال المقربين منهم مكافأة على أعمال قاموا بها أو رغبة فى تكريمهم فأعطيت للشعراء والأمراء وعلية القوم كاقطاع تمليك • وقد أقطع المنصور ابنه صالحا اقطاعا من هذا النوع قرب الأهواز • كما أقطع المهـدى أفراد حرسـه الخاص اقطاعات زيادة على رواتبهم مكافأة لهم • وكان صاحب الاقطاع يعين الفلاحين العاملين فى زراعـة أرضه ويمدهم بالبذور وينفق على حفر القنوات وصيانة الأرض •

وظهرت طبقة التجار المياسير الذين أفادوا من التقدم التجارى الذى أشرنا اليه وركبوا البحار وجابوا الأسواق ، وسيروا السفن لحسابهم • وكان لهم الوكلاء والمخازن فى كل مكان • وكان فى مقدورهم أن يحولوا الدراهم ، ويوقعوا من العقود ما يقوم بالملايين • وعاشوا اما فى الحاضرة بغداد أو فى حواضر الاقاليم أو فى الموانى الكبرى عيشة الترف والنعيم• ويبدو أن بريق التجـارة كان شـديدا بسبب الأرباح الطائلة التى عادت عليهم ، فبدر بن حسنويه مثلا كان يلى منصبا من أرفع المناصب فى الدولة ولكنه لم يترفع عن أن يشترى خانا بمدينة همذان ويفرده باسـمه ويقيم فيه ويبيع ما يشتريه من الأمتعة وقد ربح من وراء ذلك أكثر من مليون درهم •

٣ ـ التطورات الاجتماعية :

وحدث فى ميدان التقاليد الاجتماعية ما حدث فى جميع مظاهر الحياة فى العصر العباسى الأول ، فقد تقدمت العناصر الايرانية اجتماعيا • وغلبت التقاليد الفارسية على حيـاة الناس فى العـراق ، بل انتشرت فى العـالم الاسلامى كله • غلبت التقاليد الاجتماعية الفارسـية : غلبت فى الأزياء ، فانتشرت القلنسوة الطويلة وضروب الأزياء الفارسية • واتخذ القضـاة القلانس العظام • واتخذ الخلفاء العمائم على القلانس ، وتفننوا فى العمامة

ونوعوها تبعا للطبقات كما كان يفعل الفرس • فللخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ، وللأعراب عمة ، ولكل قوم زى • ولكل مدينة زى ، فمنهم من يلبس المبطنة ومنهم من يلبس الدراعة ، ومنهم يلبس « البازيكند » • وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات والأردية السود • وتمثلت التقاليد الايرانية فى الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام • كان الخلفاء يحتفلون بالنوروز فى أول العام وفى آخره بالمهرجان ، كما تأثروا فى منازلهم بالأساليب الفارسية واقتدوا بالفرس فى مظاهر البلاط والحفلات والأعياد والمواسم •

وبنوا الدور على الطراز الفارسى الذى شاع فى بغداد وسامرا وعمارتها وفن زخرفتها وقبابها وعمدها ورياشها وحدائقها • واستخدم العباسيون المطبخ الفارسى على نطاق واسع • وكانت موائدهم تحفل بما كانت تحفل به موائد الفرس •

بل انتقلت هذه التقاليد الى البلاد الاسلامية الأخرى ، نقلها الولاة المبعوثون من بغداد ونقلها القضاة ورجال الدولة • وكان يقلدهم الكبراء والوجهاء • يتحدث الكندى عن ولاة بنى العباس فى مصر وعن حياتهم الخاصة على النسق الذى شاع فى بغداد وعن اجبارهم الناس على لبس القلانس والتشبه بتقاليد الفرس •

٤ ـ الحياة الثقافية :

والتأثيرات الايرانية لم تكن مقصورة على النواحى التى أسلفت بل تجاوزتها الى ميدان الأدب العربى نفسه ، فمن ناحية أثر الأدب الفارسى فى الشعر العربى [١] حتى أن شعر القرن الثالث بصفة خاصة كان عربيا فى شكله ونظمه فارسيا فى تعبيره • وقد أقبل الفرس على الأدب العربى يتمكنون منه ، وبرع كثيرون منهم فى قرض الشعر ، وأثر الفرس فى الحكم الاسلامية أو علم الاخلاق عند المسلمين • وعلم الأخلاق هذا قد

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٦٤ ـ ٢٢٩ •

تأثر بالقرآن والسنة وبالكتب المقدسة . والتأثير الفارسى كان فى غاية القوة وابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد ، يصوغان حكما عربية اللفظ فارسية الموضوع . وأثرت العناصر الايرانية فى الموسيقا والغناء . ودراسة كتاب الأغانى لأبى الفرج تدل على تسرب الكثير من ضروب النظم الفارسى وأساليبه الى الموسيقا العربية .

ومن مظاهر هذا التأثر أيضا نشأة مجالس الطرب والمنادمة التى شاعت على الخصوص فى العصر العباسى وأصبحت من الأساليب الشائعة فى بلاط الخلفاء وفى البيوت الارستوقراطية العربية والفارسية. هذا الأسلوب فى المنادمة انما هو أسلوب فارسى محض . ولا ننسى الاشارة الى الرسائل الديوانية فأسلوبها وما تحويه من تقاليد ومبالغات وأساليب خاصة فى التعظيم والتفخيم يدل على أنها فارسية النبع ظهرت للمرة الأولى على يد عبدالحميد الكاتب ، ثم احتلت مكانها فى تاريخ النثر العربى .

على كل حال تزعمت العناصر الايرانية الحياة الفكرية بمظاهرها كلها حتى العلوم العربية الخالصة التى كان يظن أنها وقف على العرب ظهر فيها الايرانيون ، واحتلوا مكان الصدارة فى النحو والفقه والتفسير وعلم التاريخ . هذا بالاضافة الى العلوم الدخيلة الأخرى مثل الكيمياء والطب وغيرها . وفى ذلك يقول ابن خلدون (١) « ان حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم من العجم ... وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته » .

واذا كان قول ابن خلدون هذا فيه بعض المغالاة ، فان الفرس كانوا فعلا أقدر على التدوين والتأليف ، فقد تعمقوا فى الحضارة ، وتدربوا منذ القدم على التأليف بلغتهم ، فلما اعتنقوا الاسلام وتعلموا العربية كان تأليفهم بها سهلا ميسورا وكان الموالى فى العصر العباسى الأول فعلا من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة والبراعة فيها ، ومنهم أبوحنيفة

---

(١) المقدمة ص ٤٧٧ .

النعمان الامام ، وحماد الراوية الذى روى أكثر الشعر الجاهلى وجمع المعلقات . وكذلك سيبويه والكسائى أحد الأئمة الأعلام فى النحو واللغة والقراءات وأحد القراء السبعة ، والفراء عالم الكوفة الشهير فى النحو واللغة وفنون الأدب ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى العارف باللغة والغريب وأخبار العرب وأيامهم ، وأبو العتاهية الشاعر الزاهد ، وابن قتيبة صاحب المعارف وعيون الأخبار .

وقد كان الايرانيون طليعة حركة الترجمة من الفارسية الى العربية. وقد أشار صاحب الفهرست الى أسماء النقلة من الفارسية الى العربية [1] وذكر منهم عبد الله بن المقفع ونوبخت وموسى ويوسف بن خاله وأبا الحسن على بن زياد التميمى ، والحسن بن سهل ، والبلاذرى ، وجبلة ابن سالم ، واسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم البرمكى ، وهشام ابن القاسم ، وموسى بن عيسى الكروى ، وزادويه بن هاشويه الاصفهانى، ومحمد بن بهرام بن مطيار الاصفهانى ، وبهرام بن مروان شاه ، وعمر ابن الفرخان ، فأثروا التجربة العربية وغذوها بفكرهم القديم .

وكان هؤلاء الايرانيون الصاعدون الى النفوذ والسلطان المنطلقون فى غير ما قيد قد اتقنوا اللغة العربية الى جانب اتقانهم لغتهم الفارسية ، فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية وأخرجوا باللغة العربية أدبا وشعرا وعلما وانتجوا فى العربية انتاجا جديدا ، كالفضل بن سهل ، وسهل ابن هارون وابن المقفع . وكان موسى بن سيار الأسوارى انموذجا طيبا لهذا الجيل الجديد من المثقفين الذين ملكوا عنان العربية والفارسية ، قال الجاحظ انه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس فى مجلسه الذى اشتهر به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب

---

(١) الفهرست ص ٢٤٤ ومابعدها .

بالعربية وللفرس بالفارسية [1] . وكان للفارسية من الجذب الثقافى ما حبب فيها بعض العرب الخلص ، فقد أقبل قوم منهم عليها ووجدوا فيها من الغذاء الفكرى ما لم يجدوه فى العربية ، فقرءوا ما كتب بها وتدارسوه وأخرجوا أدبا عربيا جمع بين بلاغة العرب ومعانى الفرس ، ومن أمثلة هؤلاء كلثوم بن عمرو بن أيوب الشاعر المعروف بالعتابى ، شغف بالثقافة الفارسية وأعجب بها وله حكم كحكم ابن المقفع .

وقد انتج الفرس الذين استعربوا ، أو العرب الذين تثقفوا بالفارسية ثروة أدبية عظيمة كانت من أهم ما تميز به العصر العباسى الأول . وكان من الطبيعى أن يبرز الأثر الفارسى فى الأدب العربى بروزا واضحا . وكانت كتب الفرس التى ترجمت الى العربية مثل كليلة ودمنة ، وهزار افسانه أساسا للقصص العربى الذى أخرجته الأجيال المتعاقبة . وابن النديم يضرب مثلا للقصص العربى وكيف استقى من ينبوع فارسى واضح بما فعله محمد بن عبدوس الجهشيارى عندما شرع فى وضع كتاب تخير له الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، وجلس الى المسامرين يأخذ عنهم أحسن ما يقصون ، واختار الكثير من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات « فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة. كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة وأقل أو أكثر ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما فى نفسه من تتميمه الف سمر » [2] .

والحقيقة أنه لا يمكن أن نحصى التأثيرات العظيمة التى تركها الأدب الفارسى فى الأدب العربى . ويكفى أن نشير الى ما اشتهر به الفرس القدماء من أدب التوقيعات حينما كان الملوك يوقعون على شكاوى الناس بعبارة بليغة أو حكمة مفيدة يتخيرون لها اللفظ الحسن والمعنى الجيد . وقد أفاد العرب الشىء الكثير من توقيعات ملوك الفرس . وكثرت

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٣٠٤ .

التوقيعات فى العصر العباسى ، وكان أكثر الكتاب فرسا فساروا على سنن آبائهم ، حتى لقد نشأ فيما بعد ديوان اسمه ديوان التوقيع . وما أكثر المعانى الفارسية التى نقلت ونظمت أو قلدت .

« اذن كانت الثقافة الفارسية عنصرا قوى الأثر فى ذلك العصر ، فى الشعر ، فى الأدب فى الحكم فى القصص فى الخرافات والأوهام فى العادات والتقاليد فى نظم الحكم فى دعاة الاصلاح عند رجال اللهو والغناء فى الديانات ومذاهب المتكلمين وعند رجال العلم والتدوين » [1] .

كان العصر العباسى الأول هو عصر تقدم العناصر الايرانية حتى فى مجال الفكر والثقافة لكن فى نطاق العروبة وتحت علم الخلافة القوية القادرة .

* * *

(ب) المرحلة الثانية ـ الاحياء الفارسى

وكما انتهى التقدم السياسى للعناصر الايرانية بظهور الامارات الايرانية المستقلة ثم بظهور البويهيين ، سار تقدم الايرانيين فى المجال الثقافى فى الخط نفسه تقريبا ، فقد صحبت هذه الامارات محاولات كثيرة للنهضة بالأدب الفارسى شعرا ونثرا .

والفتح العربى لايران ، اذا كان قد قهرها عسكريا فانه لم يقهرها ثقافيا . فكانت الدواوين تكتب بالفارسية حتى عصر عبد الملك بن مروان والوليد ابنه . كما بقيت دواوين خراسان تكتب بالفارسية نحو قرن كامل . واذا كان الفرس قد أسلموا فانهم لم ينبذوا لغتهم القومية نبذا مطلقا . بل كانوا يتحدثون بها فى حياتهم اليومية . وكانت لغة مألوفة فى المدن العربية أمثال البصرة والكوفة . وهذا لم يحل دون تعلمهم العربية وتقدمهم فى مجال الثقافة العربية على النحو الذى بيناه . وكانت اللغة العربية لغة

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٢٨ .

الدولة والثقافة وقد اتقنها علماء ايران وبرعوا فيها شعرا ونثرا • فكانوا أبرع من تحدث باللسانين : الفارسي والعربي • ولهذا لم يكن احياء الفارسية نبذا للثقافة العربية نبذا تاما ، بل كانت النهضة الثقافية العربية تمضي جنبا لجنب مع تلك النهضة الأدبية الفارسية •

والنهضة الأدبية الفارسية لم تولد فجأة في ظل الدول الايرانية المستقلة ، اذ لا بد أن هذا الاحياء كانت له جذوره القديمة • وكانت هنالك محاولات سابقة أحاط بها الغموض بحيث لا يستطاع توضيحها توضيحا تاما • اذ يحتمل أن الايرانيين الذين اعتنقوا الاسلام بدءوا يكتبون لغتهم بالحروف العربية منذ القرن الثامن الميلادي [1] • وليس ببعيد أن تكون تلك المحاولات الأولى مجرد متون صغيرة في التفسير أو في العقيدة تزيد الناس تمكنا من الاسلام ، لكن هذه المحاولات الأولى ضاعت ولم يبق منها شيء [2] •

ثم مضى هذا التقدم الأدبي للغة الفارسية خطوة أبعد في القرن التاسع الميلادي ، اذ يذكر محمد عوفي في كتابه لباب الألباب أن أول محاولة للنظم بالفارسية قام بها شاعر يدعى العباس ، وقدمت قصيدته للخليفة المأمون عند دخوله مرو • والعباس يقول في قصيدته تلك « انه لم ينظم أحد بهذه اللغة من قبل » [3] ، واذا كان النقاد [4] يشكون في صحة ما يذكره عوفي على لسان العباس بسبب لغة قصيدته التي تقرب كثيرا من لغة الشعر الفارسي في عصر النهضة [4] ، فان هذا يدل على أن ثمة محاولات أولى بذلها هذا الشخص فعلا • فالرحالة ابن خرداذبة نقل شعرا فارسيا لرجل يدعى عباس بن طرخان ، وليس ببعيد أن يكون هو العباس نفسه

(١) Browne, vol. I, p. 11.

(٢) Ibid., p. 340.

(٣) بارثولد : الحضارة الاسلامية ص ٩٩ •

(٤) براون : تاريخ الأدب في ايران ص ٢٣ •

(٥) بارثولد : الحضارة الاسلامية ص ٩٩ •

الذى قدمت قصيدته للمأمون • معنى هذا أن هذه المحاولة الأولى ولدت فى آسيا الوسطى ، بدليل أن هذا الشعر القديم لغة ، والغنى بصيغه النحوية يشير الى وقائع خاصة بسمرقند والشاش •

ويؤيد ما نذهب اليه من ميلاد الشعر فى القرن التاسع ، ما يشير اليه الطبرى من أن شاعرا يدعى محمد بن البعيث ، وكان يملك قلعتين على بحيرة أرمية كان ينظم بالعربية والفارسية فكان من ذوى اللسانين• وكانت له أشعار فارسية مشهورة فى بلده ولكن لم يصل الينا منها شىء ، ولم يعن بها مؤرخو الأدب الفارسى • ثم اشترك هذا الشاعر فى ثورة اذربيجان ضد العرب فى عهد المأمون [1] • على كل حال ليس ببعيد أن تكون قد ظهرت محاولات فردية فى هذا المجال ، لم يكتب لها الخلود أو الذيوع ، فقد كانت الثقافة العربية ما زالت متمكنة من خراسان وما وراء النهر • وكان هذا الأدب الجديد فى حاجة الى حوافز معينة تكتب له التألق وتعطيه الحماية الكافية •

وقد التمس هذا الأدب هذه الحوافز من ضعف الخلافة العباسية وظهور الامارات الاسلامية المستقلة فى ايران وسعى الأمراء الجدد ـ وكان أغلبهم يتحدثون بالفارسية ، وبعضهم كان لا يفهم بليغ العبارة العربية الا اذا استعان بمترجم ـ الى كسب تقدير الأدباء والشعراء وارضائهم وخطب ودهم • وكان كل أمير منهم يريد أن يتفوق على أقرانه وخصومه بكثرة من يحيط به من رجال العلوم والفنون [2] •

وتعددت المراكز الثقافية فى القرنين الثالث والرابع : بلاط مرو ونيسابور فى عهد الطاهريين ، وبلاط طبرستان فى عهد آل زيار ، وبلاط غزنة فى عهد محمود بن سبكتكين ، ثم بلاط السامانيين فى بخارى وسمرقند ، ثم المدن المختلفة فى جنوب ايران وغربها تحت حكم البويهيين

(١) بارتولد : الحضارة الاسلامية ص ٩٩ ـ ١٠٠ •

(٢) Browne, vol. I, p. 445.

عامة ، وفى عهد الصاحب بن عباد الذى كان يقيم عادة فى اصبهان أو الرى [1] . يقول براون [2] تأكيدا لما ذكرت « عصر النهضة الفارسية يبدأ حوالى سنة ٨٥٠ (٢٣٦ هـ) ثم يأخذ فى الوضوح كلما استطاعت فارس التحرر من ربقة الخضوع للخلافة ببغداد وتحقيق استقلالها السياسى [3] » ولعل هذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن ظهور هذه الامارات المستقلة لم يكن انطلاقا سياسيا للعناصر الايرانية فحسب انما كان انطلاقا أدبيا كذلك .

بدأت هذه النهضة بظهور الطاهريين ومضت فى طريقها حتى انطلقت انطلاقة كبرى فى عهد الغزنويين والبويهيين ممثلة فى الفردوسى شاعر ايران العظيم .

ومما يلاحظ على حركة الاحياء الفارسى هذه أنها انطلقت من منطقة واحدة هى شرق ايران بالمحل الأول ، والمؤرخ براون [4] يقارن بين حركة البعث الفارسى وحركة البعث الاسبانى فى الاندلس ، وانطلاق حركة البعث الاسبانى من المنطقة الشمالية والمغربية ، فيذكر أن شرق ايران كان مهدا للغة الفارسية الحقيقية لأنه كان أكثر بعدا عن قلب العروبة فى بغداد . كما أن حركة التعريب الكبرى لم تصبغ شرق ايران بالصبغة العربية العميقة ، مما أتاح للمحاولات الأولى لحركة الاحياء أن تنمو ويشتد ظهورها فى هذه المنطقة .

ونحن نريد أن نحدد لكل امارة من الامارات التى ذكرت دورها فى حركة الاحياء ، مشيرين الى الانطلاقة الكبرى فى عهد الغزنويين .

فالطاهريون الذين كانوا أول من استقل بخراسان لم يكن من

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١١٥ ، ١١٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢ ، ٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٥ ، ١١٧ .

(٤) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١١٥ ، ١١٧ .

المعقول ألا يتذوقوا هذا الأدب الجديد سواء أكان عربى اللسان أم فارسيا ، ولا يحول تحمسهم للعروبة والاسلام أن يسيغوا هذا اللون الجديد . ولكن الأمر الذى أنكره الطاهريون كل الانكار هو ازدياد نشاط المانوية فى خراسان فى عهدهم ، وانتشارها فى بعض البلاد المجاورة . وقد صحب ذلك احياء بعض المؤلفات القديمة [١] . ولعل هذا يفسر ما يرويه دولتشاه من أن رجلا أتى بلاط عبد الله بن طاهر فى نيسابور وقدم له كتابا فارسيا قديما ، فلما سأله عن الكتاب قال انه قصة وامق والعذراء ، وهى قصة شيقة ألفها بعض الحكماء وأهدوها لكسرى انوشروان . فقال الأمير . انا قوم نقرأ القرآن ، ولسنا بحاجة الى مثل هذه الكتب ، ويكفينا كتاب الله وسنة رسوله . كما أن هذا الكتاب ألفه مجوسى وأمر بأن يطرح فى الماء كما أمر باتلاف امثال هذه الكتب [٢] .

ولعل بنى طاهر خافوا أن يرموا بالزندقة ، وهى تهمة شاعت فى ذلك العصر ، واذا كانوا قد صدوا عن هذه الكتب القديمة ، فان هذا لم يحل دون تذوق الشعر الفارسى الجيد واجازة قائله ، وبسط لواء الحماية عليه . والمؤرخ عوفى يشير الى شعراء استظلهم البلاط الطاهرى : منهم حنظلة البادغيسى [٣] ومحمود الوراق وفيروزى مشرقى وأبو سليك الجرجانى [٤].

أما الصغاريون فقد غلب الطابع الحربى على تاريخهم حتى ظن أن دورهم فى النهضة الأدبية ضئيل ان لم يكن معدوما . ولكن يبدو مما رواه مؤرخو الأدب الفارسى أن بيت يعقوب نفسه كان يعرف الفارسية نثرا ونظما ، حتى قيل ان طفلا ليعقوب بن الليث كان أول من نظم بالفارسية. فاذا كان أطفال يعقوب قد تعلموا الفارسية فما بالنا بالأمراء الكبار [٥] .

---

(١) بارثولد : الحضارة الاسلامية ص ٩٩ .
(٢) Browne, vol. I, p. 347.
(٣) Ibid., p. 346.
(٤) Ibid., p. 350.
(٥) Ibid., p. 340.

هذا وكان الشاعر فيروزى المشرقى معاصرا ليعقوب بن الليث • وكان رجال يعقوب شأنهم شأنه يتذوقون الشعر الفارسى الجيد ويتأثرون به ، فقد أشار نظامى عروض سمرقندى فى كتابه جهار عقاله الى احمد الخجستانى أحد أعوان الصغاريين الذى سمع شعرا فارسيا أوقد فى نفسه الحمية ودفعه الى الثورة على الصغاريين سنة ٢٦٢ هـ •

هذه الأبيات التى دفعته الى الثورة ترجمها براون على هذا النحو (١) :

اذا كانت العظمة فى أشداق أسد كاسر

فالتمسها من أشداقه وتقدم اليه وخاطر

فاما ادركت العظمة والعز والنعمة والجاه

واما لقيت حتفك فى رجولة وعدمت الحياة

وكانت طبرستان من البلاد التى انبعثت منها الاشعاعات الجديدة وساهم أمراؤها الزياريون بجهود صادقة فى ايواء الشعراء وتشجيعهم واستدرار مديحهم وخاصة شمس المعالى قابوس بن وشمكير• اذ أن عوفى يترجم لجمهرة من الشعراء الذين اتصلوا بالزياريين ومدحوهم ، منهم الشاعر أبو القاسم زياد بن محمد فخرى الجرجانى (٢) • كما أشار أيضا الى الشاعر أبى بكر محمد بن على الخزوى السرخسى الذى اتصل بشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وكان من ذوى اللسانين (٣) ، كما تغنى بفضائل قابوس أيضا الشاعر أبو القاسم زياد بن محمد فخرى الجرجانى ، وأشعاره الباقية تشف عن ذوق وأصالة • والأمير الزيارى قابوس الذى حاز اعجاب هؤلاء الشعراء فمدحوه ، ألف له البيرونى كتابه الآثار الباقية (٤) • بل روى أن بعض هؤلاء الأمراء أسهم فى هذه النهضة ليس

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٢٣ •

(٢) Borwne, vol. I, p. 445.

(٣) Browne, vol. I, p. 466.

(٤) Ibid., pp. 469-470.

بمجرد تذوق الشعر وتشجيعه انما بنظم الشعر . فكان قابوس ينظم الشعر بالعربية والفارسية . كما أن كيكاوس أمير طبرستان الزيارى ألف بالفارسية « قابوس نامة » سنة **١٠٨٢ (٤٧٥ هـ)** (١) . كما ظهر أدب باللهجة الطبرية نفسها منه ما كان منثورا ، يدل على ذلك كتاب مرزبان نامه . ومنه ما كان منظوما كما يدل على ذلك كتاب « نيكى نامه » وقد حفظ لنا تاريخ طبرستان لابى اسفنديار طائفة كبيرة من الأشعار الطبرية التى نظمها جماعة من الشعراء تجاهلتهم كتب التراجم . ومنهم الأصبهبذ خورشد بن ابى القاسم الماطيرى ، وباربد الجريدى والأستاذ على بيروزه وديواروز مستمرد اقرب المقربين الى قابوس شمس المعالى (١) .

والدولة السامانية التى استقر نفوذها فى خراسان وتركستان وأصبحت من أعظم الدول نظاما وأكثرها استقرارا وأوفرها ثروة فى القرن الرابع الهجرى ، فان دورها فى الاحياء الفارسى أوضح الأدوار . وانطلقت من قصور أمرائهم أعذب القصائد وحج اليهم كبار الشعراء وحفل عهدهم بحركة أدبية عظيمة ، اما باللغة العربية وقد تحدث عنها المقدسى والثعالبى ، واما بالفارسية وقد أفاض فى شرحها المؤرخ محمد عوفى . بل ان ظهور الفارسية الحديثة انما يرجع الفضل فيه الى السامانيين فقد بعثوا اللغة الجديدة مكتوبة بقلم عربى واستخدموها لغة لبلاطهم وحكومتهم . بل نجد بعض أهل الفتيا فى بلاطهم يفتى بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية . وادعى علماء الدين عندهم أن الأنبياء المتقدمين كانوا يتكلمون الفارسية (٢) .

وليس أدل على تفوق الشعر الفارسى فى العصر السامانى مما ورد فى لباب الألباب لمحمد عوفى ، فقد اشار الى نحو ثمانية وعشرين منهم ، شهدهم العصر السامانى مدح أغلبهم الامراء السامانيين ، وقليل منهم جذبه

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١٠٣ .

(٢) بارثولد : الحضارة الاسلامية ص ١٠٠ .

البلاط البويهى أو البلاط الزيارى [1] . وقد عرف منهم نحو ثلاثة أو أربعة بأنهم من ذوى اللسانين الذين أجادوا النظم بالعربية والفارسية مثل الشيخ أبو الحسن شهيد البلخى . ويضيف الى هؤلاء أبا شعيب صالح بن محمد من مدينة هراة ، وأبا عبد الله محمد بن موسى الفرالاوى ثم أبا عبدالله جعفر بن محمد الرودكى الذى يعتبر أول الشعراء الفرس المجيدين ، بل يعتبره براون [2] من اكبر شعراء الفرس فى الفترة السابقة لقيام الدولة الغزنوية . وقد مدحه البلعمى وذاع صيته بين الشعراء المعاصرين ، حتى أن المعروفى البلخى يلقبه سلطان الشعراء .

ولد الرودكى فى قرية قرب سمرقند . وقيل انه ولد أعمى ، وكان حسن الصوت جيد الغناء فقربه نصر الثانى السامانى اليه وأدناه منه . وقد نظم قصيدة فارسية وغناها فى حضرة الأمير [3] . ونسب اليه أنه نظم كليلة ودمنة فكأنه ردها الى أصلها الفارسى . ومن حسن الحظ أن هذا العمل الكبير لم يضع كله ، فقد بقى منه ستة عشر بيتا من الشعر تضمنها كتاب أسدى المعروف بلغة فرس ، وهو المعجم الذى ألفه أسدى سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) [4] . كما يضيف عوفى الى هذا غزارة الانتاج التى عرف بها الرودكى فقد ملأت اشعاره نحو مائة مجلد . كما ذكر جامى فى كتابه بهارستان نقلا عن المعتبى أن أشعاره بلغت مليونا وثلاثمائة بيت [5] وقد تكسب بالشعر ، وجمع من ذلك ثروة طائلة فكان فى أيام مجده وتألق نجمه ، يملك مائتين من الرقيق . وكانت أمتعته تحمل على مائة من الابل ، وتوفى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ - ٩٤١) .

ويذكر المترجمون له أنه فى آخر ايامه فقد عطف الأمراء وأصابته

---

(١) Browne, vol. I, p. 445.

(٢) تاريخ الأدب فى ايران ٢٤ - ٢٥ .

(٣) Browne, vol. I, p. 456.

(٤) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٢٨ .

(٥) Browne, vol. I, p. 457.

الفاقة • ومن عجب أن يكون هذا مصير مثل هذا الشاعر الموهوب• ويفسر بارثولد [1] سر ما أصابه من بلاء بقوله ان الرودكي أذاع آراء لا تتفق مع الاسلام • فقد قال « لا معنى لتحويل الوجه الى القبلة والقلب منجذب الى القدسية المجوسية • ويجب الايمان بحب الاله العام لجميع الأديان ، فان الهك يقبل حبك ولكن لا يقبل صلاتك » • وعبر عن السماء والأرض بانها أبو الانسان وأمه • وقال عند موت أحد معاصريه « انه رفع روحه السامية الى السماء ووارى جسده الأسود التراب » •

ثم يمضى عوفى مفصلا القول فى العصر الساماني فيشير الى الشيخ ابى العباس فضل بن عباس معاصر الرودكي الذى رثا نصرا الثانى ومدح خليفته في قصيدة مشهورة [2] • وقد طلب اليه أحد سراة الفرس أن ينظم الشعر مقلدا الرودكي • ومن شعراء العصر الساماني أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقى الطوسى الذى ترجع شهرته الى أنه أول من نظم الملحمة الفارسية • وكان قد أتم نظم نحو ألف بيت منها ، عرض فيها لظهور زردشت وتوطد دينه حين اغتاله غلامه التركى • وقد ضم الفردوسى أعمال الدقيقى الى ملحمته الكبرى • وقد نال الدقيقى تقدير معاصريه وعده المعتبى من أبرز شعراء نوح الثانى بن منصور • كما يشير عوفى الى نماذج من شعره الغنائى • وقد ثارت حول الدقيقى التهم نفسها التى ثارت حول الرودكي فيتهمه بارثولد [3] بالمجوسية لأنه صرح بعلاقته بالعقيدة الزردشتية قائلا : « انه يفضل الخمر وشفتى حبيبه ودين زردشت على كل شىء آخر » • ويعقب براون [4] على ذلك بقوله « ان اعجابه بالمجوسية كان مقصورا على ناحية واحدة هى ما تبيحه من شرب الخمر •

---

(١) الحضارة الاسلامية ص ١٠١ •

(٢) Browne, vol. I, p. 457.

(٣) الحضارة الاسلامية ١٠٢ •

(٤) Browne, vol. I, p. 457.

ويضيف عوفى الى هؤلاء الشاعر منجيك الذى حوى شعره بعض اللهجات الخاصة والكلمات الغريبة ، الأمر الذى دفع الشاعر قطران التبريزى الى أن يطلب الى ناصر خسرو أن يشرح غريب ألفاظه [١] . ثم الشاعر أبو الحسن على بن محمد الغزالى اللوكرى الذى نظم الشعر متغزلا فى غلام كردى . كما نظم شعرا فى مدح نوح الثانى بن منصور والوزير ابى الحسن عبد الله بن احمد المعتبى . وكذلك الشاعر معروف البلخى الذى مدح عبد الملك الأول السامانى ، ثم الشاعر منصور بن على المنطقى من الرى ، الذى صحب الصاحب بن عباد حينا .

ويضيف عوفى أيضا أبا طاهر الخسروى وأبا شاكر البلخى الذى ألف افرين نامة سنة ٣٣٦ هـ ، (٩٤٧ م) . وله شعر ترجمه الى العربية أبو الفتح البستى [٢] . كما ذاع صيت أبى منصور عمارة فى مرو آخر عهد السامانيين وأول عهد الغزنويين . وعرف بوصفه البديع للربيع والخمر .

ويختم عوفى تراجمه لشعراء الفترة السابقة على الغزنويين بذكر سبعة شعراء منهم أبو المثنى البخارى وأبو المؤيد البلخى ، والمعنوى والجنازى النيسابورى ، بل اشار الى الأمير السامانى منصور الثانى بن نوح ونسب اليه نظم الشعر [٣] .

ولم يعرف العصر السامانى الشعر الفارسى فحسب بل رأى ميلاد النثر أيضا . وفى الكتب المنثورة التي تنسب الى هذا العصر ترجمة البلعمى لتفسير الطبرى سنة ٣٥٣ ترجمه للأمير منصور الأول السامانى [٤] . وتعتبر هذه الترجمة من أقدم نصوص النثر الفارسى [٥] . ثم كتاب الأبنية

(١) Browne, vol. I, p. 462.

(٢) Ibid., p. 467.

(٣) Ibid., p. 468.

(٤) Browne, vol. I, p. 340.

(٥) الحضارة الاسلامية ص ١٠٠ .

عن حقائق الأدوية لموفق الدين ابى منصور بن على الهروى الذى ألفه حول سنة ٢٦١ هـ (٩٧١ م) • ويشير بارثولد [١] الى أنه ألف للسامانيين كتابا فى العقائد باللغة العربية ، لوقاية الشعب من الرافضة ، ثم ترجم هذا الكتاب الى الفارسية كما ألف له تفسيرا للقرآن بالفارسية •

* * *

ثم قدر للشعر الفارسى أن ينطلق انطلاقته الرائعة فى القرن الحادى عشر الميلادى آخر الرابع ومستهل الخامس الهجرى ، وخاصة فى عصر الغزنويين • وهذه الانطلاقة فى العصر الغزنوى ليست لأنهم كانوا أكثر تذوقا للشعر ممن سبقهم من الأمراء الفرس أو أكثر اجازة للشعراء وجذبا لهم نحو بلاطهم • انما نعتقد أن السبب كامن فى أن النهضة الفارسية كانت قد رسخت أقدامها وشق الشعر الفارسى طريقه بنجاح ووضحت أصوله وتمكنت جذوره • وكان من حسن حظ الغزنوية أن الشعر فى عصرهم كانت قطوفه دانيات : غزر انتاجه ، وصفا نبعه فنسب اليهم • وثمة أمر آخر يفسر هذه النهضة التى اقترنت بالعصر الغزنوى وهو الأحداث التاريخية البارزة التى وقعت فى ايران فى السنوات العشرين فمن ٣٨٧ الى ٤٠٨ ، مات الصاحب بن عباد سنة ٣٨٧ ، كما زالت الدولة السامانية سنة ٣٩٠ ، ثم قتل شمس المعالى قابوس سنة ٤٠٣ ، كما قتل مأمون الثانى ملك خوارزم واستطاع محمود بن سبكتكين أن ينفرد وحده، وأن يضم اليه رجال الأدب الذين كانوا يحيطون بخصومه من الأمراء السابقين [٢] •

ومن الشعراء الذين ذاع صيتهم فى هذا العهد الفردوسى ، واسمه الحسن بن اسحق بن شرفشاه ، وكان يتخلص فى بعض اشعاره بابن شرفشاه [٣] • ولد حول سنة ٣٠٨ هـ ، أو بعد ذلك بقليل فى قرية رزان

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١١٨ •

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٣ •

(٣) براون : ص ١٣٣ •

بالقرب من طوس ، ولقب نفسه الفردوسى نسبة الى حديقة بطوس اسمها الفردوس ، كانت ملكا لسورى بن المغيرة عميد خراسان ، وكان أبوه يعمل بستانيا بها •

وقد عاش صدر شبابه فقيرا ثم فر الى غزنة وعاش بها فترة يتكسب بشعره حتى قدمه العنصرى الى السلطان محمود • وشغف بالأخبار القديمة والقصص الشعبى ، فقرأ فيه كتابا من تأليف أبى منصور العمرى فدفعه ذلك الى نظم الملحمة القومية شاهنامة وفرغ من نسختها الأولى سنة ٩٩٩ ـ ٣٩٠ هـ ، بعد خمس وعشرين سنة من العمل الشاق ، ثم أهداها بعد ذلك الى « أحمد بن محمد بن أبى بكر الخالنجانى » كما أهدى نسخته الثانية التى تمت سنة ٤٠١ هـ ت ١٠١٠ م الى السلطان محمود • وقد أكمل العمل الجليل الذى بدأه الدقيقى ، هذا العمل الذى جعله من أعظم شعراء عصره ، بل من أعظم الشعراء قاطبة [١] •

وقد غضب عليه السلطان محمود ففر من غزنة ، ثم لجأ فترة قصيرة الى الأمراء البويهيين ، وألف له منظومته الكبيرة الأخرى « يوسف وزليخا » ، ثم عاد الى طوس مسنا قد نيف على السبعين ومات سنة ٤١١ أو ٤١٦ هـ على وجه التقريب •

ومما كتب لشعره الخلود أنه لم يتذوقه الايرانيون فحسب ، بل تذوقه كل من عرف لغتهم ، تذوقه الهنود والأرمن والكرج والترك [٢] •

ويلى الفردوسى من شعراء العصر فى مكانته أصحاب المديح من الشعراء ومنشدى القصائد مثل العنصرى [٣] (المتوفى سنة ٤٣٢ أو ٤٤٢هـ) شاعر السلطان محمود • وأسدى [٤] صاحب الفردوسى ومخترع شعر

---

(١) بارتولد : الحضارة الاسلامية ص ١٠٥ ـ ١٠٦ •
(٢) المصدر نفسه •
(٣) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١٣٩ ـ ١٤٣ •
(٤) المصدر نفسه ص ١٧١ ـ ١٨٧ •

المناظرة والعسجدى (١) والفرخى (٢) ومنوجهرى (٣) الذى عاش حتى سنة ٤٣٣ ، وجماعة أخرى من الشعراء لا يرقون الى منزلة هؤلاء من بينهم بهرامى (٤) الذى ألف كتابا فى العروض والشعر اسمه (خجسته نامه) وعطاردى ورافعى وغضائرى (٥) الرازى ومنصورى ويمينى ، وشرف الملك الذى ينسب اليه كتاب فارسى فى صناعة الكتابة اسمه « كتاب الاستيفا » وزمينى العلوى المحمودى والشاعرة (رابعة بنت كلب) التى تنسب الى بلدة قسدار ، وجماعة آخرون كثيرون غير هؤلاء نجد أسماءهم وأشعارهم مذكورة فى الفصل التاسع من كتاب (لب الالباب) .

وهناك بالاضافة الى هؤلاء ثلاثة من الشعراء المتازين الذين ينتسبون الى هذا العصر ، وهم يختلفون بعض الشىء عمن سبق ذكرهم وهم : الكسائى (٦) الذى بدأ حياته يقول المدائح ، ثم ندم فى آخر أيامه لأن خدمة القصور تؤدى الى الرياء والملق . وقضى بقية حياته ينظم الأشعار الدينية ، ثم أبو سعيد بن أبى الخير الشاعر الصوفى الذى أنشد الرباعيات وبندار الرازى (٧) المنسوب الى الرى وقد عرف بأنه من أصحاب اللهجات . وكان محمود الغزنوى نفسه شاعرا فيما يقولون . وقد ذكره عوفى « فى لباب الألباب » تاليا للأمير التعيس « اسماعيل بن نوح » آخر السامانيين .

والأمر الذى يدعو الى الغرابة أن يحاط الغموض بالبويهيين الذين عاصروا هذه الانطلاقة العظيمة ، خاصة فيما يتعلق بموقفهم من الأدب الفارسى ، فلا نجد الا قدرا ضئيلا من الأدب الفارسى قد نسب اليهم رغم

---

(١) براون ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤ ـ ١٥٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٨ ـ ١٩٣ .
(٤) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١٩٤ ـ ١٩٦ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .
(٦) المصدر نفسه ص ١٩٩ ـ ٢٠٦ .
(٧) المصدر نفسه ص ١٩٦ ـ ١٩٩ .

كونهم فرسا . وكان بعضهم بعيدا عن الثقافة العربية مثل معز الدولة الذى جاء بغداد ودخلها واحتاج الى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى [1] . واعتقد أن استيلاء البويهيين على بغداد ، أو فرضهم سلطانهم ونفوذهم على الخلفاء قد جعل دورهم فى الثقافة العربية يغلب على دورهم فى الأخذ بنصيب من هذا الشعر الفارسى الجديد . ويبدو أن القسم الشرقى من أملاكهم قد انساق فى هذه النهضة الفارسية الدافقة . وقد ذكر محمد عوفى فى كتابه اسمى شاعرين من الشعراء أنشدا الشعر بالفارسية وكانا موضع عناية الصاحب بن عباد ، وهما منصور بن على الرازى الملقب بالمنطقى وابو بكر محمد بن على السرخسى الملقب بالخسروى . وكان الأول منهما مقربا من الصاحب بن عباد وقال فى مدحه القصائد الفارسية . أما الخسروى فقد نظم فى مدح الصاحب شعرا عربيا حينا وفارسيا حينا آخر [2] .

وكان بلاط الصاحب بن عباد فى أصبهان والرى موئلا للثقافة الفارسية الجديدة اذ يذكر عوفى عند حديثه عن بديع الزمان الهمذانى (٣) أنه زار الصاحب بن عباد وهو فى الثانية عشرة من عمره فأراد أن يختبره وطلب اليه أن يترجم بعض الأشعار الفارسية الى العربية نظما [4] . ويبدو أن مثل هذه الترجمة كانت أسلوبا شائعا فى ذلك العصر لاختيار قدرات المتعلمين . ولهذا نجد فى كتاب البندارى ترجمة مختصرة لشاهنامة الفردوسى وبعض الأشعار الفارسية منظومة بالعربية . وكان هؤلاء المترجمون يحفلون بالمعنى فقط رغم انهم كانوا من ذوى اللسانين [5] .

ولا ننسى أن نشير الى أن ابن سينا انتهى به المطاف الى أصبهان حيث الأمير البويهى علاء الدولة بن كاكويه (٤٢٣ ـ ١٠٣٧) . ولابن سينا

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٥ .

(٢) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١٠٩ .

(٣) Browne, vol. I, p. 463.

(٤) Browne, vol. I, p. 463.

(٥) **Ibid.**, p. 464.

خمس عشرة منظومة بالفارسية (١) • كما لجأ الفردوسى بعد طرده من غزنة الى أحد الأمراء البويهيين ، وألف له منظومته يوسف وزليخا (٢)•

ثم انطلقت النهضة الفارسية بعد ذلك الى آفاق أبعد مما انطلقت اليه الثقافة الفارسية القديمة فى عهد الساسانيين ، فقد حملها الغزنويون الى الهند (٣) ، كما حملها السلاجقة الى العراق وآسيا الصغرى (٤) وبلاد الشام • فكأن الاسلام حقق للسيادة الايرانية ما لم تره فى تاريخها القديم كله •

وقد قدر لايران بعد فتحها أن تكون الجسر الذى عبره العرب الى ما وراء النهر ، والطريق الذى سلكه الاسلام فى سبيله الى الانتشار فى بلاد تركستان • وقد أسهم الايرانيون فى الحضارة الاسلامية فى تركستان، من مدنهم انطلقت الثقافة الاسلامية وظلت مدارس ايران تغذى المدارس الاسلامية فى تركستان حتى قيام الدولة السامانية • ولعل هذا يدفعنا الى دراسة انتشار الاسلام فى تركستان حريصين على أن نبين دور الايرانيين فى انتشار الاسلام بتلك البلاد •

يمكننا أن نحدد النطاق الجغرافى الذى ستمتد اليه دراستنا تحديدا واضحا ، لأنه من المعروف أن الحد الفاصل بين ايران وتركستان ليس هو الخط الذى يفصل اليوم بين ايران وروسيا ، انما هو فى الحقيقة نهر جيحون باعتباره الحد الفاصل بين الثقافتين الايرانية والتورانية (٥)• ومعنى هذا أن الوطن التركى يشمل المناطق الخصبة الواقعة بين نهرى جيحون وسيحون ، أو الاقليم الذى يسمى فى المصطلح الاسلامى باسم بلاد ما وراء النهر •

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ١٢٣ •

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٨ •

(٣) Goetz : Persia and India after the Conquest of Mahmud : Legacy of Persia, pp. 89-116.

(٤) Gibb : History of Ottoman Poetry, vol. I, pp. 3-9.

(٥) Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion, p. 64.

على أن هذا الاقليم فى الحقيقة ليس هو وطن الاتراك جميعهم ، انما هو وطن الأتراك الغربيين فقط • أما وطن الأتراك الشرقيين فهو يتجاوز اقليم ما وراء النهر صوب الشمال حتى منطقة السهوب الروسية ، أو يمتد قليلا صوب الشرق حتى حدود الصين •

وهذا الوطن قد يتطاول أحيانا الى الشمال الغربى من بحر قزوين ويدخل منطقة القوقاز من الشمال ، وأحيانا أخرى يمتد حتى حوض الفولجا •

وستكون دراستنا لانتشار الاسلام شاملة تقريبا لهذا المصطلح الجغرافى الأعم ، أعنى سنعنى بالأتراك المغربيين وبالاتراك الشرقيين •

وسنعرض لانتشار الاسلام فى تركستان مهتدين بالخطوط الكبرى التى أشرنا اليها فى مقدمة الكتاب ، ومطبقين المنهاج نفسه الذين طبق فى دراسة انتشار الاسلام فى ايران ، وذلك بالتعرض لأحوال البلاد قبيل الفتح واثبات أن الاسلام دخلها فى أحسن الأحوال ملاءمة له • ثم نعرض للفتوح العربية للبلاد ونتائجها ، وما أعقب ذلك من دور العرب فى انتشار الاسلام فى وطن الترك ، وأسلوب هذا الانتشار فى عهد الطاهريين والسامانيين ، لنصل الى النتائج نفسها التى وصلنا اليها فى دراستنا لايران وهى صيرورة مدن تركستان مدارس اسلامية تسهم فى النهضة الاسلامية الكبرى ، وانضمام الترك الى مجموعة الشعوب الاسلامية التى أسهمت فى بناء الحضارة الاسلامية وأثرت التجربة الاسلامية • وأكسبت الفكر الاسلامى دما جديدا ساعد على انطلاقه • ثم انتقال الزمام الى الاتراك أنفسهم بعد أن اعتنقوا الاسلام وضعف سلطان الخلافة وتكونت منهم دول تركية خالصة متمسكة باسلامها وثقافتها ، دائبة على حماية دار الاسلام ومسهمة فى انتشار هذا الدين فى الآفاق المجاورة لها [١] •

---

(١) Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion. Four Studies on the History of Central Asia.

الباب الثانى

انتشار الإسلام فى تركستان

الفصل الأول
تركيا قبيل الفتوح العربية

الامارات التركية :

يحسن أن نتعرف على أحوال الوطن التركى خصوصا فى السنوات القلائل السابقة على بداية الفتح الاسلامى للبلاد . والتاريخ التركى يعتمد فى هذا العصر على آثار أورخون [١] ، التى تعتبر من أهم المراجع فى الكشف عن فجر التاريخ التركى ، وبداية ظهورهم فى آسيا الوسطى [٢] . ونستطيع أن نستخلص من هذه النقوش أنه فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى ، وفى أوائل السابع ظهر شعب جديد فى بلاد ما وراء النهر ، وأن هذا الشعب اتخذ للمرة الأولى فى تاريخ هذا الاقليم اسم « الترك » .

ومن الغريب أن النقوش الصينية والنقوش البيزنطية المعاصرة تؤيد ما جاء بنقوش أورخون ، وتتحدث عن بداية ظهور الشعب التركى فى هذه الفترة ، فقد وردت فى النقوش الصينية هذه كلمة « Tou Kieue » وفى النقوش البيزنطية وردت كلمة « Tourkoi » [٣] .

---

(١) Histoire des Turcs d'Asie Centrale, pp. 6-8.

(٢) **مصادر تاريخ الاتراك :** أول هذه المصادر ما يمكن أن نسميه بالمصدر التركى، ونعنى به آثار أورخون فهى أقدم أثر للسان التركى . وقد اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى أقدم آثار تركها الترك أنفسهم ، واتخذوا فيها لأول مرة اسم الترك ونقوش أورخون .

(٣) Barthold : Histoire des Turcs d'Asie Centrale, pp. 6-7.

واعتمادا على هذه المصادر نستطيع أن نعطى صورة لحياة هذا العنصر الجديد من النواحى السياسية والثقافية والاجتماعية • وأول ما يمكن قوله أن الشعب التركى الذى سيطر على منطقة ما وراء النهر فى هذه الفترة ، بدأ يكون سلسلة من الامارات التركية المستقلة التى انفصلت عن القسم الشرقى من عالم الترك •

وكان ظهور العنصر التركى مصحوبا بظهور لغة جديدة فى عالم آسيا الوسطى هى اللغة التركية • وقد بدأ الشعب التركى فى هذه الفترة بحكم موقعه ، يتعرض لتيارات ثقافية ، اما واردة من ايران واما من الصين ، فقد انتشرت بين الأتراك بعض العقائد الايرانية خصوصا المذهب المانوى • وبدأ المبشرون بالمسيحية يبذلون نشاطا بين هذا الشعب الذى ظهر على مسرح الأحداث •

وأهم ما يلاحظ أن الشعب التركى فى فترة ظهوره هذه كان شعبا محاربا من الطراز الأول ، وكان لا يزال متمسكا بالتقاليد البدوية القديمة •

وقد شهدت البلاد سيطرة الأرستوقراطية الاقطاعية عن ملاك الأرض الذين عرفوا باسم الدهاقين • ولم يكن يحد من سلطانهم كما هو الحال فى ايران تحالف العرش ورجال الدين • كان الحكام المحليون من الدهاقين هم الطبقة الممتازة فى البلاد (١) •

ولم تشهد البلاد ما يمكن أن نسميه بالدين الرسمى للدولة ، على الرغم من أن الطبقة الحاكمة كانت على الزردشتية ، وكانت المذاهب التى ظهرت فى ايران تجد لها ملاذا فى بلاد ما وراء النهر • ويبدو أن حرية العقيدة هذه قد أبيحت للبوذيين والنساطرة ورأت البلاد صراعا غير عنيف

---

(١) Barthold, Turkestan, p. 180.

بين الزردشتية والبوذية • ولهذا لم يلعب رجال الدين دورا يذكر في معارضة الفاتحين العرب (١) •

وكانت للارستقراطية المالية المؤلفة من التجار الذين أثروا في التجارة مع الصين وغيرها من البلاد مكانة خاصة • والطبري (٢) عندما يتحدث عن هجرات الصغد يطلق على هؤلاء التجار المياسير اسم الأمراء • اذ كانوا يملكون الضياع الواسعة ويبنون الحصون ولم يكونوا من حيث المكانة أقل من طبقة الدهاقين • وكانت مصالحهم مرتبطة أشد الارتباط بمصالح الارستوقراطية من الدهاقين •

وتظهر نقوش أورخون أن البلاد شهدت صراعا طبقيا عنيفا بين العامة وبين الدهاقين النبلاء • وأن الهوة بينهم كانت سحيقة الى أبعد الحدود (٣) • وفي أثناء السيادة الصينية انحازت الأرستوقراطية الى الصين محافظة على مكاسبها واستغلوا الولاء للصين في كبح الحركات الشعبية وتثبيت سلطانهم وانشاء امارات تركية مستقلة (٤) •

وقد وحد العرب فعلا امارات صغيرة عديدة متحاربة باستمرار (٥) • وكان أمير سمرقند الذى اتخذ لقب اخشيد أقوى هؤلاء الأمراء وأبعدهم نفوذا • كما اتخذ امراء فرغانة لقب أخشيد أيضا (٦) •

ولم يكن هؤلاء الأمراء تجمعهم بالدهاقين رابطة سياسية واحدة بل غلب على ديار الأتراك التفكك السياسي والصراع الداخلي • وقد عقد العرب أواصر الصداقة مع طبقة الدهاقين ، وأفادوا من انقسامهم الى أبعد الحدود •

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٠٥ ، ٤١٩ •

(٢) الطبرى جـ ٨ ص ٥٩ وما بعدها •

(٣) Barthold : Histoire des Turcs, p. 9.

(٤) Idem.

(٥) Barthold : Turkestan, p. 182.

(٦) Barthold : Four Studies, vol. I, p. 10.

وجد العــرب اذن مجتمعــا تركيا انفصــل اتراكه الشرقيــون عن الغربيين ، وتفككت عرا الوحدة السياسية بين الامارات التركية المتنازعة • كما شهدت البلاد أزمات اقتصادية طاحنة ، وافتقدت الوحدة المذهبية التى تهيىء الحافز القوى للنضال والاستماتة فى الدفاع • وقد حدث ذلك فى الوقت الذى توطد فيه النفــوذ العربى فى ايران ، واستقر بهم المقــام فى خراسان ، وأصبحت خراســان ثغرا اســلاميا يناوش الاتراك ويحاربهم ويشيع الفرقة بينهم ولا يعطى الامارات فرصة التجمع فى جبهة تركيــة موحدة كما ألف العرب طبيعة البلاد وطبيعة القتال فى هذه الأجواء قارسة البرد •

الغارات الثغرية من خراسان :

ان خراسان كقاعدة عربية لعبت دورا هاما فى التمهيد لنجاح الفتوح العربية باشــاعة الفرقة بين الامارات وضربها بعضها ببعض وابقــاء الجبهة التركية منقسمة متفرقة الكلمة ، كمــا أتاحت للعرب أن يكونوا لأنفسهم استراتيجية معينة للقتال فى تلك البلاد •

وقد بدأ الاحتكاك الأول بين الدولــة العــربية وبين هذه العنــاصر التركية الجديدة بعد أن فرغ العرب من فتح ايران سنة **٦٥١** م **(٣١ هـ)**• ففى هذه السنة توطد النفوذ العربى فى منطقة خراسان ، وورثت الدولة العربية من مخلفات الساسانيين هذا الخطر التركى أو المشكلة التركية •

واضطر العرب فى الرحلة الأولى أن يلتزموا ســياسة الدفاع نفسها التى سار عليها الساسانيون • وكان الدفاع العربى يكاد يكون مركزا فى منطقة خراسان التى نظمت تنظيمــا ثغــريا ، اذ أصبحت ثغرا من ثغــور المسلمين ، وظلت تخضع لهذا التنظيم الثغرى أزيد من خمسين سنة (من سنه **٦٥١** الى سنة **٧٠٥** م• **(٣١ ــ ٨٦)** •

وهذا التنظيم الثغرى كانت له أصوله وقواعده ، فكان يتضمن اقامة الحصون فى مناطق الحدود واسكان العرب وتوطينهم خراسان• وقد وضح

هذا التنظيم الثغرى فى عهد زياد بن ابى سفيان الذى ولى خراسان فى مستهل العصر الأموى • وقد لعبت خراسان فى فتح بلاد ما وراء النهر الدور نفسه الذى قامت به برقة فى فتح المغرب ، أو دور المغرب الأقصى فى فتوح الأندلس • ونجاح التوغل العربى فى تركستان كان يتوقف على اتحاد القبائل العربية فى خراسان من ناحية ، ثم اتحاد القبائل العربية مع الموالى الفرس من ناحية أخرى •

على كل حال كانت خراسان قاعدة تخرج منها غزوات خاطفة فى موسم معين هو موسم الصيف ، ثم تعود الى القاعدة الرئيسية اذا كان الشتاء • هذه الغارات الثغرية ألقى عليها البلاذرى (١) مزيدا من الوضوح • ومنه يتبين أنها اقترنت بالأسماء الآتية : عبد الله بن زياد ، وسعيد بن عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن زياد ، وسلم بن زياد ، وعبد الله بن خازم ، ويزيد بن المهلب • ويتابع البلاذرى أحداث هذه الغارات حتى تحولت الى فتوح منظمة فى عهد قتيبة بن مسلم • وقد تبين أن استتباب النفوذ العربى فى خراسان يرجع الى أبى موسى الأشعرى الذى وجه بديلا بن ورقاء الخزاعى غازيا ، حتى بلغ حصنى الطبيسى وهما « بابا خراسان » وقد صالح الخليفة عمر أهليهما على الجزية •

ولم يتوطد نفوذ العرب نهائيا فى خراسان الا فى خلافة عثمان الذى ولى عبد الله بن عامر بن كريز البصرة بين سنتى ٢٨ ، ٢٩ هـ • فغزا خراسان سنة ٣٠ هـ وبعث على مقدمته الاحنف بن قيس فأقر الصلح الذى عقد زمن عمر ، ثم تقدم صوب قوهستان فواجه أول جموع الترك « الهياطلة » فانتصر عليهم وفتحت المدينة عنوة •

وبدأت خراسان فعلا فى عهد والى البصرة العظيم عبد الله بن عامر تؤدى دورها الثغرى على أحسن وجه ، فقد بعث يزيدا الجرشى الى رستاق

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٠ ـ ٤١٩ •

زام قرب نيسابور ففتح عنوة ، كما فتحت باخرز وجبرين (١)، كما فتحت بيهق على يد الأسود بن كلثوم العدوى وخليفته أدهم بن كلثوم .

وكان عهد عبد الله بن عامر هذا من أعظم عهود ولاة خراسان ، فقد فتحت فى عهده بشت من أعمال نيسابور واشبند ورخ وزاوة وخوف واسبرائن وارغيان ، كما استولى رجاله على ابر شهر ، وصالحه جميع أهل نيسابور على الجزية . بل تقدم المسلمون صوب حمراندز ونسا ، واضطر دهقان ابيورد الى طلب الصلح كما طلب مرازبة سرخس وطوس وهراة وبادغيس وبوشنج ومرو الشاهجان .

ولم تقف أطماع عبد الله بن عامر عند هذا الحد ، فقد وجه الأحنف بن قيس الى طخارستان فتقدم بين نهر المرغاب والجبل ، وهزم أهل مرو الروز بعد نقضهم الصلح . ثم واجه عبد الله بن عامر أعظم تجمع للترك عرفه العرب قبل عهد قتيبة ، فقد اجتمع أهل طخارستان والجوزجان والطالقان والغارياب ، وكانوا فى نحو ثلاثين ألفا وانضم اليهم أهل الصغانيان ـ وقاد المعركة الأحنف بن قيس فى خمسة آلاف من المسلمين ، واشترك الفرس المسلمون فيها لأول مرة وهزمت جموع الترك .

وقد تحصن الأتراك المتقهقرون بالجوزجان فبعث الأحنف بن قيس اليهم الأقرع بن حابس التميمى فهزمهم ، وفتح الأحنف باسم عبد الله ابن عامر الطالقان والغارياب وسار الى بلخ فصالحه أهلها . ووصلت مقدمة جيشه الزاحف الى قرب خوارزم (٢) .

وقد دانت لعبد الله بن عامر جميع البلاد الواقعة على الضفة الجنوبية من نهر جيحون بل بدأت القوات العربية تعبر جيحون نفسه وصالحه دهاقين الأتراك المغربيين (٣) .

---

(١) البلاذرى : ص ٤١٠ .
(٢) البلاذرى : الفتوح ص ٤١٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤١٥ .

ولما رحل الحجاز للعمرة جعل فى خراسان ثلاثة من قواد جيشه هم : الأحنف بن قيس ، وحاتم بن النعمان الباهلى ، وقيس بن الهيثم ، وصالح أهل ما وراء النهر ، ويذكر البلاذرى أن عثمان بن عفان عقد لهم العقود [1] .

ولكن أمور خراسان اضطربت وكفت القاعدة عن الحركة أثناء فتنة عثمان وخلافة على [2] . ولم تزل خراسان مضطربة أمورها حتى قتل على [3] .

ولما آلت الخلافة الى معاوية كان عليه أن يواجه أوضاع خراسان المضطربة ، وأن يعيد الى القاعدة فعاليتها ، فولى قيسا بن الهيثم بن الصلت السلمى ، ثم عزله وولى خالد بن المعمر ، ورأى ألا يصلح خراسان الا عبد الله بن عامر صاحب الدور الأكبر فى عهد عثمان ، فاستعاده . فولى ابن عامر قيسا بن الهيثم السلمى خراسان ، فهوجمت بلخ ، وعادت الى طلب الصلح ، كما استقام امر هراة وبوشنج وبادغيس .

وظل الأمر على ذلك حتى ولى زياد بن أبى سفيان البصرة سنة ٤٥ هـ ، فرأى ألا تكون السلطة مركزة فى قيادة واحدة ، بل رأى أن يوزع القيادة ويعطى كل قيادة حرية العمل . فولى أمير بن أحمر مرو وخليد بن عبد الله الحنفى ابر شهر ، وقيس بن الهيثل مرو الروذ والطالقان والغاريات نافع بن خالد هراة وبادغيس وبوشنج وقادس ، والحكم بن عمرو الغفارى خراسان .

وفى عهد زياد بن ابى سفيان بدأت الجيوش العربية تستقر للمرة الأولى شمال جيحون . يقول البلاذرى [4] « كان الحكم أول من صلى وراء النهر » .

---

(١) المصدر والصفحة نفساهما .
(٢) البلاذرى : ص ٤١٥ .
(٣) المصدر والصفحة نفساهما .
(٤) البلاذرى : ص ٤١٦ .

ثم بدأت سياسة اسكان العـرب وتوطينهم فى هذه البـلاد فى عهد الربيع بن زياد الحـارثى ، الذى ولى خراسـان بعد وفاة الحكم بن عمرو الغفارى • فقد جمع من أهل البصرة والكوفة خمسين ألف أسرة • ثم نشط الربيع بن زياد نشاطا عظيما ، كما استطاع ابنه عبد الله أن يقـاتل أهل آمل حتى طلبوا الصلح • وبدأت جموع المسـلمين فى ذلك الوقت لا تكف عن عبور النهر والقتال فيما وراءه •

فلمـا ولى معـاوية عبيد الله بن زياد خراسـان عبر النهر فى نحو أربعـة وعشرين ألفا حتى أدرك بيكند ، فتصـــدت له خاتون بخـارى واستصرخت الترك ، ولكن المسـلمين هزموهم ، فطلبت الخـاتون الصلح وعاود المسلمون دخول بخارى ، وفتحت رامدين وبيكند فلما خلفه من قبل معاوية سعيد بن عثمان بن عفان عاود عبور النهر بعد أن نقضت خاتون بخارى الصلح ، وجمعت من الصغد والترك وأهل كش ونسف نحوا من مائة وعشرين ألفـا ، فهزم هذا التجمع التركى ، وعاودت الخاتون طلب الصلح مرة أخرى ، بل سارت فى ركاب سعيد بن عثمان وهو يقاتل أهل سمرقند حتى طلبوا الصلح ، كما عاونته فى فتح ترمذ • ثم عزل معاوية سعيد بن عثمان وولى مكانه عبد الرحمن بن زيادة ، فلما آلت الخلافة الى يزيد ولى خراسان سلما بن زياد [1] (٦٨١ ــ ٦٨٣) (٦٢ ــ ٦٤ هـ)• أول القواد العرب مقاومة لطبيعة الاقليم الجامحةالحافلة بالعقبات الطبيعية والممرات الجبلية التى يسهل للعدو الصمود عندها والدفاع عنهـا بالاضـافة الى الجو القارس البرد الذى لم يألفه العرب من قبل • وقد كان العرب قبل سلم ينظمون المسالح السريعة والغارات الخاطفـة حينا فاذا كان الشـتاء آوى العرب الى حصونهم فى خراسان حتى يكون العام الذى يليه ، لكن سلما كان أول القواد قضاء للشتاء عبر النهر [2] ، ومعنى هذا أن المجـاهدين العرب بدءوا يقهرون الطبيعة ويألفون هذه الأجواء •

---

(١) البلاذرى ص ٤١٩ •

(٢) البلاذرى ص ٤٢٠ •

وواجه القائد سلم جمـوع الأمراء الأتراك المحليين الذين اجتمعوا وتعاهدوا على أن يتناسوا أحقادهم لمواجهة هذه الغارات العربية الجديدة • وكانت هذه الاجتماعات تستأنف كل سـنة كلما لاحت طلائع المقـاتلة العرب [١] •

ويعدد البلاذرى [٢] منجزات سلم بن زياد فيذكر أنه صالح أهـل خوارزم على أربعمائة ألف واستعاد سمرقند بعد أن كانت قد خرجت عن طاعة المسلمين واستولى على خجندة وعبر نهر جيحون أكثر من مرة • وأوقع الهزيمة بجموع الصغد [٣] •

ومهما يكن من شيء فقد استطاع سلم أن يحرز نصرا على كل هذه القوى مجتمعة ، ولو كان العرب فى ذلك الوقت قد ارتأوا أن يتحـولوا من الغارات الثغرية الى الفتح المنظم لكان لأعمال سلم شأن آخر •

يبـدو أن هذه الاغـارات تركت أثرا فى الحوليات المعاصرة ، فقد استطاع المؤرخ شافان Chavannes العثور ضمن المجموعة الصينية (تشى ـ فو ـ يون ـ كوى) على كتـاب بعث به حـاكم سـمرقند الى امبراطور الصين سنة ٧١٨ ينـوه فيه بهذا التحـول العـربى الجـديد فى الاغارات والغزو ، ويذكر أن بداية الصراع مع العرب كانت منذ خمسة وثلاثين عاما مشيرا الى جهود سلم [٤] • على أن سلما اعتزل الولاية فى الفتنة التى أعقبت وفاة يزيد بن معاوية ، ومزقت الاحن القبليـة صفوف العرب فى خراسان [٥] •

وعاود العرب سيرتهم الأولى بعد ذلك بقليل فى ولاية عبد الله بن

---

(١) البلاذرى ص ٤٢٠ •

(٢) الفتوح ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ •

(٣) انضم سلم بن زياد الى عبد الله بن الزبير بعد وفاة يزيد وقد صالحه أهل خوارزم على الجزية كما صالح أهل سمرقند وهاجم الصغد وفتح خجندة وهزم الصغد هزيمة منكرة • بلاذرى ص ٤٢١ •

(٤) Barthold : Turkestan, note 6, p. 183 ; Chavannes : Documents 204 S.Q.

(٥) Barthold : Turkestan, p. 184.

خازم [1] الذى أصبح له الأمر فى خراسان ابان الفتنة الزبيرية ، وكان زعيم القيسية فى خراسان ، فلما استقام له الأمر بعث ابنه موسى ليعيد جهود سلم . وقد اخترق موسى بلاد ما وراء النهر فى الشتاء فلم يعد يخافه العرب ، واستولى على مدينة ترمز [2] واضطر أميرها الى اخلائها. وقد اجتمع فى وجهه أمراء الأتراك فى البلاد ، بل اجتمع له الترك وبقايا الفرس وفريق ممن يقال لهم الافتاليون ، فهزمهم واضطرهم الى التراجع والفرار وظل موسى يتابع جهوده فى هذه البلاد نحو خمسة عشر عاما (٦٨٩ - ٧٠٤ = ٧٠ - ٨٤ هـ) حتى تولى يزيد بن المهلب .

وفى ولاية يزيد بن المهلب (٧٠١ - ٧٠٤ = ٨٣ - ٨٥) [3] انضم الى موسى ثابت بن قتيبة الخزاعى واسترضى الأمراء المحليين واستقل بخراسان ، واقصى عمال يزيد وحملت اليه أموال البلاد ودان له الزعماء بالطاعة ولكن لم يسلس له قياد البلاد طويلا ، فقد دب الخلاف بينه وبين موسى وقتل ثابت فى الفتن التى أعقبت ذلك . واسترد الأمويون نفوذهم فى البلاد بفضل الوالى الفضل بن المهلب الذى دخل ترمذ سنة ٧٠٤ (٨٥ هـ) بعد أن مد له يد العون اخشيد الصغد وأمير الخطل . وهكذا انحاز الأمراء الترك فى هذا الصراع الى الخلافة الأموية [4] .

وقد ظل العرب على هذه السياسة الثغرية من الغزو السريع والتقهقر السريع حتى سنة (٨٥ هـ) على وجه التقريب ، حتى هيأت لهم جهودهم السابقة أن يحققوا بعض النجاح ، فقد تمرنوا على الطبيعة الجبلية ، وألفوا القتال فى الجو القارس البرد [5] . حقيقة انهم لم يحققوا كسبا أرضيا ذا بال ، ولكن تفاهما تم بعد هذا النضال ، بين أمراء البلاد المحليين وبين الحكومة العربية الشرعية .

(١) البلاذرى ص ٤١١ ، ٤٢٠ .
(٢) البلاذرى ص ٤١٢ ، - طبرى جـ ٨ ص ٤٥ ، ٤٧ -
(٣) الطبرى جـ ٨ ص ٢٠ .
(٤) البلاذرى ص ٤٢٤ .
(٥) Barthold : Turkestan, p. 182.

الفصل الثانى
فتوح العرب فى تركستان

كانت سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) بداية تحول جديد فى تاريخ العلاقات العربية التركية ، اذ بدأ الفتح الحقيقى لاقليم ما وراء النهر ، وبدأ الاقتحام الحقيقى لقلب المقاومة التركية • ثم تتابعت الجهود الأموية من بعد هذه السنة تلح على هذا الاقليم وتتدافع اليه ، حتى أصبح للأمويين دور مرسوم فى تاريخ تركستان ، هو دور قهر مقاومة الامارات التركية فى البلاد وتثبيت النفوذ العربى ، ثم التمكين للتيار الاسلامى من أن يمضى فى سبيله بين الناس مسالما فى الانتشار •

على أنه من الضرورى أن نشير الى أهم العوامل التى انهت الطابع الثغرى للغزو فى هذه السنة بالذات واستهلت صفحة الفتح الحقيقى المنظم•

وبعض هذه العوامل يعود الى طبيعة الحكم الأموى فى هذه الفترة وبعضها الآخر يعود الى طبيعة الاقليم الذى تجرى فيه الحوادث ، وطبيعة الاستعدادات التى كانت تجرى فى قاعدة خراسان •

ومما يلاحظ أنه فى هذا الوقت على وجه التحديد خلصت الدولة العربية من متاعبها الداخلية جميعها ، وكان عصر الوليد عصر استئناف الفتوح العربية فى كل مكان تقريبا • ففى ذلك الوقت كانت قوات موسى ابن نصير على وشك دخول المغرب الأقصى ، كما كانت القوات العربية تستعد لغزو السند • وليس من شك فى أن هذه الظروف مكنت الخلافة الأموية من أن تلقى وهى مطمئنة ثقلها كله فى هذه المعارك الفاصلة •

ويمكننا أن نضيف الى ذلك أن الاستعدادات العسكرية في قاعدة خراسان كانت قد اكتملت وأصبح اكتمالها يضمن النجاح. وهذا الاكتمال في الاستعداد مبرر طبيعي للقيام بعمليات عسكرية ذات طابع أعمق وأوسع . فقد استطاعت الدولة العربية أن تحشد في خراسان قوات عسكرية لم يكن في مكنتها أن تحشدها من قبل ، فقد اجتمع لقتيبة بن مسلم الباهلي الذي اقترن اسمه بالفتوح نحو سبعين ألفا من المقاتلة الأشداء .

والمصادر تشير الى تطور تم في هذه المنطقة في ذلك العصر وهو أن الدولة الأموية بدأت تجند أبناء البلاد لتدفع بهم الى المعركة كما دفعت بربر المغرب الأقصى الى معركة الأندلس . فقد كانت التقاليد الاسلامية منذ عهد عمر تمنع غير المسلمين من الاشتراك في الجيش لأن الخدمة في الجيش مرتبطة بالعطاء ، والعطاء حق لكل مسلم ، كما أن الدفاع حق للعرب ، وعلى أهل الذمة دفع الجزية مقابل الحماية .

غير أن القواد الأمويين بدءوا يشركون أهل البلاد ولو كانوا على غير الاسلام في جيش الغزو . وقد اشتركت قوات كبيرة منهم في جيش قتيبة . ووفد اليه المطوعة من بخارى وكشن ونسف وخوارزم . ويذكر البلاذري أن الدولة جندت نحو عشرين ألفا من هؤلاء ، فكأنها ضمنت معينا بشريا لا ينضب ، تستطيع أن تدفعه الى المعركة . كما ضمنت أن يتطرق الاسلام الى قلوب هؤلاء المطوعة بعد اختلاطهم بالعرب والتعاون معهم .

ويضاف الى ذلك أن القوات العربية استطاعت أن توقع الفرقه بين الامارات التركية ، فدب النزاع بين امارتي فرغانة وخوارزم ؛ وقد أفاد العرب من هذا الانقسام الى حد بعيد (١). ففي سنة ٧٠٥ (٨٦ هـ) استنجد

---

(١) Barthold : Turkestan, p. 185.

أمير الصغانيات بقتيبة ليعينه على أعدائه أمير شومان وأمير أخارون [1] • وفي سنة ٧١٢ (٩٤ هـ) سار قتيبة ليمد يد العون لأمير خوارزم في حربه مع أخيه الأصغر خرزاد والثوار من الدهاقين [2] • ومد له الخوارزميون وأهل بخارى يد المعونة • وفي معارك سنة ٧١٣ (٩٥ هـ) أمر أهل بخارى وكشن ونسف بأن يمدوه بعشرين ألفا من المقاتلة [3] • بهذا كان العرب يتناولون هذه الامارات كلا على حدة • ولم تجتمع في وجه العرب جبهة تركية موحدة • ولم تشعر الامارات التركية الا والنفوذ العربي قد تسرب الى الاقليم كله •

ولا يفوتنا أن نذكر أن العرب في هذه المرحلة ضمنوا ولاء شطر من الرأى العام في البلاد ، فقد عقدت صداقات بين العرب وبين الدهاقين [4] وذلك نتيجة للغارات الخاطفة التي تلاحقت في الفترة الثغرية الأولى ، ونشأ ود متبادل بين العرب وبين هؤلاء القوم ، يفسر في بعض الروايات على أنه اعجاب من جانب هؤلاء الوطنيين بفروسية القواد العرب وبسماحتهم وكريم معاملتهم • ومن الرجال الذين بقيت سيرتهم في ذاكرة الناس فترة طويلة ، ثابت بن قتيبة أحد رجال عبد الله بن خازم ، الذي اشترك في حملات ترمذ وأثار احترام الناس ، وظلوا يذكرونه وقتا طويلا [5] •

فلنعرض اذا للحملات التي قام بها الأمويون منذ سنة ٧٠٥ وكيف يسرت لهم أن يحققوا أهدافهم في بلاد ما وراء النهر •

وقد ارتبطت البداية في تاريخ الفتح العربي باسم فاتح عربي حمل راية الجهاد في اقليم ما وراء النهر ، كما حملها غيره في أنحاء أخرى من

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٥٩١ ومابعدها •

(٢) الطبرى جـ ٨ ص ٥٥٩ ومابعدها •

(٣) البلاذرى ص ٤٠٧ •

(٤) الطبرى جـ ٨ ص ٤٦ ، ٥٩ •

(٥) Barthold, p. 183

العالم الاسلامى ، ذلك القائد هو قتيبة بن مسلم عامل خراسان [1] من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى ، وهو الذى قدر له أن يستغل الامكانيات سالفة الذكر فى متابعة الزحف العربى الى آفاقه الجديدة . وقد استغرقت حملات قتيبة فى بلاد ما وراء النهر نحو عشر سنوات حافلة بالتوفيق والنصر . وجاءت تلك الجهود التى تلاحقت طوال تلك السنوات العشر على ثلاث مراحل ، كل مرحلة منها تختص بفتح اقليم من أقاليم ما وراء النهر .

المرحلة الأولى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) وفيها استعاد العرب منطقة طخارستان السفلى وأخمدوا الثورات التى نشبت فيها ، كما استولى على الطالقان وبلخ [2] .

والمرحلة الثانية من سنة ٨٧ هـ ـ الى سنة ٩٠ هـ (٧٠٥ ـ ٧٠٨ م) وفيها استطاع قتيبة أن يقتحم اقليم بخارى . وكان لسقوط بخارى أثر كبير فى البلاد كلها ، فقد أبرز مدى قوة العرب فى هذه المرحلة الجديدة ، فسارع ملك سمرقند بالاتصال بقتيبة لوضع شروط للصلح وتجديد المعاهدة القديمة التى كانت قد عقدت مع سلم بن زياد [3] .

والمرحلة الثالثة من سنة ٩١ هـ الى سنة ٩٣ هـ (٧٠٩ ـ ٧١١ م) وفيها امتد النفوذ العربى الى وادى جيحون وبلاد الصغد .

---

(١) البلاذرى ص ٤٠٧ ، الطبرى جـ ٨ ص ٤٣ .

خطب قتيبه الناس حثهم على الجهاد وقال : ان الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما ، ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق . فقال : هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون ، ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال : ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله الى قوله أحسن ماكانوا يعملون ، ثم أخبر عمن قتل فى سبيل الله أنه حى مرزوق فقال : ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فتنجزوا موعد ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر . (طبرى جـ ٨ ص ٥٩) .

(٢) البلاذرى ص ٤٢٦ ، طبرى جـ ٨ ص ٧٠ .

(٣) البلاذرى ص ٤٢٧ ، طبرى جـ ٨ ص ٣٩ ، ٨٤ .

والمرحلة الرابعة من سنة ٩٤ الى سنة ٩٧ (٧١٢ ـ ٧١٤ م) اتجهت الحملات العربية الى اخضاع المقاطعات الواقعة على نهر سيحون • ولم تكن الجهود كلها تقترن باسم قتيبة بل كان يرسل فى الوقت نفسه الحملات الصغرى بقيادة معاونيه لتتسرب الى المناطق النائية مثل حملات صالح بن مسلم فى اقليم فرغانة ، ومثل الحملات الأخرى التى أرسلت الى بيكند وخوارزم وكرمينية (١) ، بل أوغل قتيبة فى غزواته حتى كاشغر مقتربا من حدود الصين (٢) •

ولعل ذلك كله يصور لنا عمق التحول الجديد فى تاريخ الصراع العربى التركى • فقد كان هذا الاشتباك بداية لحرب طاحنة شاملة تمثل الاندفاع العربى فى الجهاد ، وهو لا يقل عمقا عن الاندفاعات العربية الأولى • فقد ظل عرب هذا الجيل يلحون فى المعركة عشر سنوات كاملة لم يتوقفوا فيها عن الكفاح وتجنيد قدرات الدولة كلها فى هذه المعارك الفاصلة ، وهى صورة رائعة لم تشهدها هذه المناطق منذ عرفها التاريخ•

فقد نظر العرب الى المشكلة الطورانية نظرة تختلف عن نظرة الفرس اليها ، فقد كان الفرس يركنون الى الدفاع فقط ، وكانت غارات الترك توافق سنى الضعف فى تاريخهم • أما العرب فقد شنوا الحرب فى ديار الترك أنفسهم ، وكانت المعركة من الشمول بحيث عمت اقليم ما وراء النهر كله •

لقد أمر قتيبة ببناء المساجد فى بخارى وسمرقند وغيرها من البلاد • وأنزل العرب فى قلعة بخارى كما أنزلهم سمرقند • ووصلت قواته شمالا حتى الشاشن وجنوبا بشرق حتى كاشغر ، وكانت اذ ذاك جزءا من

---

(١) البلاذرى ص ٤٢٨ ـ الطبرى ج ٨ ص ٥٩ ـ ٩٧ •

(٢) بدر الدين حى الصين : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٧ ـ ٢٨ • طبرى ج ٨ ص ٩٩ ـ ١٠٠ •

امبراطورية الصين • وولى العمال العرب على جمع البلاد بما فيها فرغانة (١) •

الأمويون بعد قتيبة : على أن جهود الأمويين بعد قتيبة أى فى الفترة الممتدة من سنة ٩٦ الى سقوط الدولة سنة ١٣٢ ، كانت منصرفة الى خوض معركة تثبيت السيادة العربية والدفاع عن المكاسب التى أحرزها العرب بعد هذه التضحيات الجسيمة والتمكين للنفوذ الاسلامى من أن ينتشر فى البلاد انتشارا طبيعيا • وكانت معركة الأمويين أبعد أثرا من معركة الفتح الأولى نفسها • فلو كان العرب قد فقدوا مكاسب عصر الفتح لظل التوغل الأموى فى اقليم ما وراء النهر مجرد ذكرى عابرة •

وكان الأمويون فى هذه الفترة يواجهون أخطارا داخلية نجمت من طبيعة الفتح وأسلوب الأمويين فى معاملة الشعوب الخاضعة لهم • فقد أبقى الأمويون على نفوذ الأمراء المحليين ما داموا قد دخلوا فى طاعتهم ودانوا بالولاء لعمالهم ودفعوا الجزية • فكان أغلب هؤلاء الأمراء تربطهم بالدولة معاهدات نظمت العلاقات بين الطرفين ونظمت على وجه خاص التعاون العسكرى والمالى •

لهذا كانت مشاكل الأمويين الداخلية نابعة من هؤلاء الأمراء الذين كانوا يستغلون فترات تغير الولاة أو فترات الاضطراب والضعف لنقض العهود والخروج على طاعة الأمويين واعلان الثورة (٢) • وكانت الدولة الأموية تقمع حركاتهم وتضع حدا لعدوانهم• وكان هؤلاء الأمراء الثائرون بعد اخضاعهم يفقدون امتيازاتهم القديمة وتدمج أقاليمهم فى الدولة العربية ادماجا كاملا • وقد امتلأت أخبار الفترة التى أشرنا اليها بحوادث الصراع بين الأمراء الثائرين والعمال الأمويين • ومن أمثلة هذه الثورات ثورة أمير فرغانة بعد قتيبة وعمله على استرداد نفوذه القديم ، وثورة بخارى

---

(١) Barthold, p. 185

(٢) كما حدث عند وفاة قتيبة • انظر : Barthold, p. 186

وسمرقند • ولم يكن الأمويون يتهاونون في حسم هذه المشكلة أو وضع حد لهذا العدوان • حتى اذا انقضى العهد الأموى كانت المشاكل الداخلية قد حلت وخضع أغلب الأمراء للحكومة العربية • وكان دخـول الأمراء المطرد في الاسلام يهذب ثوراتهم ويهيىء لهم أسـباب الألفة والتعاون مع العرب •

وكان الأمويون يواجهون مشاكل من نوع آخر : مشاكل التـسعب التركى نفسه في اقليم ما وراء النهر ، وهي مشاكل لا تختلف عما واجهه الأمويون في جميع الأمصار الاسلامية كلها ، وهي مسألة اطراد الدخول في الاسلام وتناقص حصيلة الجزية والخراج • وعمد الأمويون الى ابقـاء هذه الالتزامات المالية على الداخلين في الاسلام ونجم عن ذلك الكثير من الفتن والثـورات وفي الحقيقـة لم تكن التطورات في اقليم ما وراء النهر تختلف عما رأيناه في ايران ، اذ لم يستطع الأمويون الصمود أمام تيار اسلامي جارف يزداد شدة باستمرار واضطرارهم الى التراجع في عهد عمر بن عبدالعزيز (١) ومن أعقبه من الخلفاء • وكانت هذه الفتن الداخلية تختفي تدريجيا باطراد الدخول في الاسلام حتى اختفت نهائيا آخر العصر الأموى وأول العصر العباسي •

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٢ •

الفصل الثالث

الأمويون والعباسيون وانتشار الاسلام في تركستان

أدرك الأمويون فى اقليم ما وراء النهر أن معركة تأمين المكاسب وتثبيتها لن تتم بانصرافهم الى الميدان الداخلى فحسب ، لأن الارتباط كان وثيقا بين الاخطار الداخلية والخارجية . فقد كان الأتراك الشرقيون يلحون فى الاغارة على الحدود الشرقية للبلاد ويتعاونون مع الأمراء الخارجين ، منتهزين الفتن والثورات التى امتلأ بها العصر . وكان لزاما على الأمويين كما اخضعوا الأتراك المغربيين أن يصدوا عدوان الأتراك الشرقيين وأن يحولوا دون اتحاد كلمة الترك بكل ما استطاعوا من قوة .

وتعد مراحل الصراع بين الأمويين وبين الأتراك الشرقيين فى هذه الفترة من أهم الجهود التى قدر لها أن تحمى الاسلام والثقافة العربية فى البلاد . فقد نهض الأتراك الشرقيون وعاودوا الظهور فى القرن الثامن الميلادى ، وامتدت امبراطوريتهم من بلاد الصين حتى اقليم ما وراء النهر ، وظلوا يهددون اقليم ما وراء النهر طوال العصر الأموى . وحاولوا أكثر من مرة الافادة من ثورات الأمراء الخاضعين للعرب للاستيلاء على ما وراء النهر . وتوالت غاراتهم على بلاد الصغد وفرغانة (١) .

ولم يكف الأمويون عن التصدى لخطر الأتراك الشرقيين ، فتتابعت حملاتهم فى عهد الجراح بن عبد الله وعبد الله بن معمر اليشكرى الذى

(١) Barthold, p. 187

تابع الغزو فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد ، ونسب اليه أنه هم بغزو بلاد الصين نفسها [١] كما تتابعت الحملات فى عهد عبد الرحمن بن نعيم المغامذى وسعيد بن عبد العزيز الذى ولى البلاد فى عهد يزيد الثانى ، وفى عهد مسلم بن سعيد وغيره من القواد العرب [٢] .

وظل العرب والأتراك الشرقيون يتبادلون النصر والهزيمة فى معارك حياة أو موت ، حتى لاحت طلائع النصر فى آخر العصر الأموى على يد العامل أسد بن عبد الله القسرى (٧٣٥ - ٧٣٨م) (١١٧ - ١٢١ هـ) [٣]. ونصر بن سيار (٧٣٨ - ٧٤٨) (١٢١ - ١٣١ هـ) [٤] الذى يحتل فى تاريخ النضال الاسلامى مكانة لا تقل عن مكانة قتيبة ، فهو الذى حمى ما وراء النهر من الأتراك الشرقيين وصان تراث العرب فى البلاد . ففى عهده استفحل الخطر التركى ، واتصل الأتراك الشرقيون ببعض الأمراء الناقمين ، وهزم العرب فى اللقاء الأول وعبر الأتراك نهر سيحون ، منطلقين الى بلاد ما وراء النهر ، وصمد العرب لهم ، وأوقعوا بهم الهزيمة ، وفرقوا جموعهم ، وعبروا نهر سيحون من ورائهم يتعقبونهم ، ودخلوا اقليم الخطل وفتحوه . وظل نصر بن سيار يتابع هذا النصر حتى سنة ٧٤٨ م (١٢٩ هـ) ، وهى السنة التى استطاع فيها أن يعزل الخطر الخارجى عن المشاكل الداخلية وأن يقر السيادة العربية فى حوض سيحون وعقد المعاهدات مع أمراء اسروشنة والشاشن وفرغانة ، وأسر خان الأتراك الشرقيين وقتله [٥] .

كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموى التى مكنت السيادة الاسلامية من بلاد ما وراء

---

(١) Barthold, p. 188
(٢) البلاذرى ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، Barthold, p. 189
(٣) Barthold, p. 191
(٤) سى شيخ المضرية انظر : Barthold, p. 192
(٥) Barthold, p. 192

النهر ، وأضافوا الى هذه الجهود جهودا أخـرى فى ميـدان الدعـوة الى الاسلام ونشر الثقافة العربية فيالبلاد• وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول، فقد كان قتيبة بن مسلم يبنى المساجد فى بخارى وسمرقند [(١)] ولم تكن المساجد دورا للعبادة فحسب، انما كانت مدارس للثقافة الاسلامية واتبع ذلك بتوطين القبائل العربية فيالمدن الكبرى كبخارى وسمرقند [(٢)]• وتتابعت هذه الجهود فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى أسقط الجزية عمن أسلم وأمر عماله بالدعوة الى الاسلام [(٣)] • واستمرت هذه الجهـود بعد عمر خاصة فى عهد الوالى أشرس بن عبد الله السلمى (٧٢٧ – ٧٢٩ م ١٠٨ – ١١٠ هـ) اذ كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية فى البـلاد [(٤)] • فكان ذلك مقـدمة لمدارس بخارى وسمرقند •

وقام الأمويون فوق ذلك بالدعوة السلمية الى الاسلام خاصة فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى ألزم العمـال أن ينشروا الاسـلام كما اختار الوالى أشرس بن عبد الله السلمى المبعوثين من العـرب والفرس للتبشير بالاسلام بين الأتراك [(٥)] • يقول البلاذرى ودعا هشام أهل ما وراء النهر الى الاسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم ، فسارعوا الى الاسلام وانكسر الخراج [(٦)] • معنى هذا أن الآلاف من الناس تدافعوا الى اعتناق الاسلام وتعلم اللغة العربية •

ووضحت هذه الجهود بصـورة أوفر فى عهد نصر بن سـيار الذى تغلب على جميع الانقسامات الداخلية ، ووضع حدا لما عاناه المسلمون من

---

(١) انشأ فى بخارى جامعا معروفا باسم جامع قتيبة • وكان يمنح عطاء قدره درهمين لكل مسلم جديد • وكان يرسل الفقهاء الى البيوت لتعليم الناس شعائر الدين كما اجاز ترجمة القرآن الى اللغة الفارسية : بدر الدين حى الصين ص ٢٦ •

(٢) Barthold, p. 185

(٣) Ibid, p. 188

(٤) (٥) Ibid, pp. 191-192

(٦) البلاذرى ص ٤٣٥ •

مشاكل الجزية والخراج ويذكر الطبرى أن ثمانين ألفا من غير المسلمين اعتنقوا الاسلام فى عهد نصر . وذهب نصر فى تسامحه الى أبعد مدى ، فعفا عمن ارتد عن الاسلام وأعفاهم من متأخرات الجزية والخراج ، واستعاد الأسرى المسلمين وأقر الأمن على الحدود .

وما كاد الأمر يستتب للعرب على هذا النحو حتى بدأ التجار المسلمون يطرقون الطرق التجارية القديمة ، والمراجع الصينية تذكر أن قوافل المسلمين فى القرن الثامن الميلادى كانت تعبر طرق آسيا الوسطى كلها ، وانتهى بهم المطاف الى بلاد القرلوق على المجرى الأعلى لنهر الينسى ، ثم امتد نشاط هؤلاء التجار الى بلاد القرغيز . وقد أشار الرحالة المسلمون الى هذه الطرق التجارية ووصفوها أصدق وصف ، ومن الغريب أن تتفق هذه الأوصاف مع ما جاء بنقوش أورخون . وقد اهتم المسلمون على الخصوص بالطريق المؤدى الى بلاد الصين . وقد أفاض الرحالة المسلمون فى وصف الشعوب التركية المحيطة ديارها بهذه الطرق (١) .

دور العباسيين فى تاريخ الأتراك :

كان قيام الدولة العباسية فى خراسان وما وراء النهر تعبيرا عن حركة اسلامية ضخمة تمت آخر العصر الأموى . وأفاد العباسيون من الجهود التى بذلها الأمويون لنشر الاسلام واستطاع دعاتهم أن يجتذبوا جماهير المسلمين هناك لمبادىء الدعوة القائمة على العدل والاصلاح والامامة للرضا من آل محمد .

ووجد أهل البلاد المتطلعين الى مزيد من النفوذ والسلطان والراغبين فى الخلاص من مظالم العصر الأموى الأخير فى الدعوة الجديدة ما يحقق آمالهم (٢) . واستطاع أبو مسلم أن يجتذب الدهاقين والفلاحين الى دعوته ،

(١) Barthold : Histoire des Turcs d'Asie Centrale, p. 35

(٢) Barthold : Turkestan, p. 194

فانضم اليه على سبيل المثال أهل ستين قرية فى يوم واحد [1] ، بل اجتذب الى دعوته الناقمين على بنى أمية جميعا ، كخوارج سجستان [2] واليمانية. وقاد أبو مسلم أنصاره الجدد من الخراسانية والأتراك الغربيين فى زحفه الكبير عبر ايران حتى سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية . بل أسهم أبو مسلم فى قمع الحركات الايرانية المناوئة للاسلام ليتوطد نفوذه وتعلو كلمته . فقضى على ثورة قام بها الكهنة المجوس هناك [3] . وكان أنصاره الجدد وخاصة أهل بخارى عدته فى قمع الثورات العربية التى اشتعلت هناك عام ١٣٣ هـ ، فقد قاتل فى صفوف عامله زياد بن صالح بخارخدات قتيبة ومعه أهل نحو سبعماية من القلاع والحصون [4] . وأعان هؤلاء الأنصار زيادا فى استعادة سمرقند [5] .

وكان للعباسيين دورهم البارز فى تاريخ العلاقات العربية التركية وفى انتشار الاسلام بين أوطان الترك . فقد تعرضت بلاد ما وراء النهر لخطر فادح ، ذلك أنه بعد سقوط امبراطورية الاتراك الغربيين لم تشهد سهوب تركستان امارة قوية توحد البدو وتشد من أزرهم ، فانتهزت الصين الفرصة السانحة وبسطت نفوذها على الأتراك الشرقيين ، وأرادت أن تفيد من تفرق الامارات التركية وانشغال العباسيين بتوطيد دولتهم الناشئة ، فتفرض سلطانها على بلاد ما وراء النهر . وان كنا نعتقد أن المطامع الصينية لم تكن لمجرد فرض السيطرة السياسية ، انما كان القصد منها الاستيلاء على طرق القوافل التى تعبرها متاجر الشرق الأقصى الى ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوربا .

وفى سنة ٧٤٨ م . استولت الصين على سوياب وخربتها [6] ، وفى

(١) الطبرى ج ٩ ص ٨٣ .
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٩ .
(٣) Barthold, p. 194
(٤) الطبرى ج ٩ ص ١٤٨ Barthold, p. 195
(٥) الطبرى ج ٩ ص ١٤٨ .
(٦) بدر الدين الصين ص ٢٤ . Barthold, p. 195

السنة التالية قتل أهل الصين عامل الشاش لأنه لم ينفذ سياستهم ، وذلك بسبب تحـريض أخشيـد فرغانة [1] ، فى الوقت الذى استنجد فيه ابن أمير الشاش بالعرب . وكان القائد العباسى زياد بن صالح قد فرغ لتوه من اخماد الفتن الداخلية والثورات فى خراسان فتصدى للجيش الصينى ، وأنزل به هزيمة ساحقة . وكان هذا الجيش يقوده Kao-Hsien-Chlt وذلك فى يوليو عام ٧٥١ م [2] (١٣٤ هـ) .

والرواية العربية لا تخلو من بعض المبالغة حين تذكر أن خمسين ألفا من جند الصين قتلوا فى المعركة ، وأن عشرين ألفا أسروا ، على حين تذكر الوثائق الصينية أن الجيش كله لم يتجاوز ثلاثين ألف رجل [2] . وكان هذا النصر من أعظم الانتصارات العربية فى تاريخ آسيا الوسطى ، فقد كان على تركستان اذ ذاك أن تقرر الى أى المدينتين تنحاز ؟ الى المدينة الاسلامية أو الصينية [3] .

وقد تابع العباسيون توطيد سلطانهم هناك، ذلك أن أبا داود خالد بن ابراهيم الذى ولى بلخ من قبل أبى مسلم أحرز النصر فى الختل وكش وهرب دهقان الختل لائذا بالصين ، كما قتل دهقان كش فى هذه الحرب. ويبدو أن هذه الانتصارات العربية كانت شديدة الوقع على سياسة الصين، ففى سنة ٧٥٢ م . (١٣٥ هـ) بعث أمير اسروشنة الى الصين يستعديها على العرب فرفضت تلبية النداء [4] .

وكان من أثر انتصار العرب هذا ابعاد الصين عن المعـركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين . وبات على هؤلاء أن يلقـوا العـرب معتمدين على جهودهم ومواردهم وحدها [5] .

---

(١) بدر الدين الصين ص ٢٤ . تسمى المعركة معركة طالاس .

(٢) Barthold, 196

(٣) Barthold, 196

(٤) Barthold, 196

(٥) يعلل بدر الدين الصينى ابتعاد الصين بانها كانت تواجه ثورة هائلة فى =

وقد وضحت بعد هذا النصر تطورات هامة حقا فقد ضعف عدوان الأتراك الشرقيين ، ولم يعد العباسيون يجابهون قوات كبيرة كما فعل الأمويون من قبل . فقد تفرقت وحدة الأتراك الشرقيين . وقامت منهم امارات صغرى متناثرة حول حدود ما وراء النهر ، فظهرت امارة القرلوق سنة ١٤٧ هـ ، ٧٦٤ م . شرقى نهر سيحون واحتلت مدينة سوياب ، كما ظهرت امارة الأوغوز فى الحوض الأدنى من هذا النهر . ولم تعد جموع الأتراك الشرقيين تشكل خطرا فادحا على اقليم ما وراء النهر . بل أصبح لا هم لهم الا الغارات الخاطفة أو مد يد المعونة للولاة الترك الثائرين وكانت الدولة العباسية تصد هذه الغارات الخاطفة من ناحية وتقضى على الأمراء الثائرين من ناحية أخرى [١] . وقد عمد العباسيون الى بناء الأسوار عند رشت وقرب بخارى وفى بلاد الشاش لاعطاء الاقليم الحماية والطمأنينة التى لا بد منها لتمضى المشروعات الاسلامية فى طريقها الى النجاح [٢] .

وقد بذل العباسيون الجهود الكبيرة فى صد عدوان الأتراك الشرقيين، ففى عهد الخليفة المنصور بعث الليث رسولا الى بلاد فرغانة وكان أميرها قد آوى الى كاشغر واضطر الى طلب السلام ودفع الجزية ، ثم دعاه العرب الى الاسلام فلما أبى أودع السجن حتى ولى المهدى الخلافة [٣] .

أما المهدى فقد بعث أحمد بن أسد فى حملة الى فرغانة ، ثم أعقب ذلك بعثه الرسل يطلبون الى كثيرين من الأمراء الخضوع لسلطانه ، فاستجاب له كثيرون: منهم اخشيد الصغد واخشين أسروشنة وملك فرغانة وخان القرلوق وخاقان التقوز أوغوز وملك التبت . بل بلغ من جرأة

= الداخل . وقد اشتعلت هذه الثورة سنة ٧٥٤ وكادت أن تقضى على نفوذ أسرة تانغ واضطرت الى مصالحة العرب والترك . وان الولاة العرب فى ماوراء النهر ساعدوا الصين فى اخماد الثورة بأمر من الخليفة المنصور . انظر صفحات ٣٦ ، ٤٦ .

(١) Barthold, p. 201

(٢) Barthold : Hist. des Turcs d'Asie Centrale, p. 32

(٣) Barthold : Turkestan, p. 201

المهدى أن بعث الرسل الى امبراطور الصين [1] يطلب الخضوع لنفوذه •
أما الرشيد فقد بعث عامله الغطريف بن عطاء عمرا بن جميل الى فرغانة لغزو القرلوق • وفى الوقت نفسه كان الفضل بن يحيى يقضى على الفتن الداخلية فى البلاد ، ويتلقى فروض الولاء والطاعة من أمير اسروشنة [2].

ولما كان المأمون مقيما بمرو فقد بعث جيشا الى بلاد الصغد واسروشنة وفرغانة [3] • ويشير المؤرخون الى حملة بعثها العباسيون سنة ١٩٤ هـ (٨٠٠ م) الى مدينة قولان ، وقبيل احتدام النزاع بين الأمين والمأمون بدأ الأخير يلقى المتاعب من الاتراك الشرقيين • فقد شق القرلوق عصا الطاعة وتبعهم خاقان التبت • وكان ملك كابل يستعد لغزو ما جاوره من بلاد خراسان ، وكف أمير اترار عن دفع الجزية • وقد أشار الفضل بن سهل على المأمون بأن يكتب الى القرلوق وخاقان التبت بأنه قد ولاهما على بلادهما ويعدهما بالوقوف الى جانبهما فى حروبهما مع الأمراء المجاورين، كما أشار عليه بأن يهادن ملك كابل ويعرض عليه الصلح وأن يرد الى أمير اترار جزية سنة [4] • ويبدو ان هذه الجهود تكللت بالنجاح •

وهكذا استطاع العباسيون أن يحلوا هذه المشكلة المستعصية فى تاريخ العلاقات العربية التركية بوقفهم عدوان الأتراك الشرقيين وقضائهم على الخطر الصينى •

العباسيون وانتشار الاسلام فى البلاد :

كان للعباسيين ـ كما رأينا ـ دورهم الواضح فى المجالين السياسى والعسكرى وكان لهم أيضا دورهم فى انتشار الاسلام والثقافة العربية فى البلاد •

---

(١) Ibid, p. 202

(٢) انظر الطبرى جـ ١٠ ص ٦٠ ـ ٦٣ •

(٣) البلاذرى ص ٤٣٦ •

(٤) البلاذرى ص ٤٠٩ ، ٤٣٧ •

ويمكننا أن نقول ان العباسيين وجدوا حركة اسلامية كبيرة انتشرت في خراسان وفي اقليم ما وراء النهر • وكانت تلك البلاد طوال العصر الأموي تابعة اداريا لولاة خراسان • واستطاع العباسيون أن يستغلوا هذه الحركة لصالحهم وأن يكسبوا رضا المسلمين هناك توطئة للقضاء على الحكم الأموي • اذ لم يكن من الممكن أن يعتمد العباسيون على حركة سطحية ضحلة لا تمكنهم من النجاح المنشود • ولم يكن اختيارهم لمنطقة خراسان وما وراء النهر عبثا •

وقد اتجهت الدعوة الهاشمية الى اقليم خراسان وما وراء النهر أواخر العصر الأموي واضطلع بها قبل أبي مسلم يحيي بن زيد العلوي وابراهيم بن محمد العباسي • وكان منطق الدعاة العباسيين اذ ذاك يجذب اليه هؤلاء المسلمين الجدد ، فقد كانوا يدعون لاحياء سنة رسول الله وأن ينال المسلمون حقوقهم السياسية والمدنية ، ولا يمكن أن يغفل أولئك المسلمون دعوة تلك أهدافها ومراميها •

كان الدعاة العباسيون في السنوات السابقة على انتصارهم يسعون الى طبقات معينة من الناس ، يسعون الى كسب اليمانية دون المضرية وكسب أهل الريف وطبقة الدهاقين ، فاتخذت حركتهم طابعا شعبيا صرفا • وكانت الدعوة تلقى الاستجابة الشاملة اذ يذكر أن ست قرى دخل أهلها في دعوة أبي مسلم في يوم واحد ، وان نجاح الثورة العباسية في خراسان وما وراء النهر يدل على هذه الحركة الاسلامية التي استغلوها لصالحهم •

وقد أكدت الأحداث التالية لنجاح انقلابهم هذه الحقيقة ، ذلك أن الانشقاق العلوي لقي قبولا في منطقة بخارى حيث قامت ثورة شريك بن صالح تنادي بأحقية العلويين • وقد تجمع حوله نحو ثلاثين ألفا من بخارى وحدها • بل امتدت هذه الحركة الى خوارزم الى ان تمكن العباسيون من القضاء على هذه الثورة واستعادة نفوذهم •

ويرجع الفضل الى العباسيين في أنهم مكنوا لهذه الحركة الاسلامية

العميقــة من أن تمضى فى سـبيل نجاحها ليكتسب اقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث طابعا اسلاميا واضحا •

وأهم الجهود التى بذلها العباسيون فى الميدان السياسى والعسـكرى هى حماية اقليم ما وراء النهر من الأخطار الداخلية والخارجية التى هددته وحمايته من خطر الصين والأتراك الشرقيين ، ثم القضاء على ثورات الأمراء المحليين • وليس من شك فى أن الأمن الذى انتشر فى البلاد فى ظل بنى العباس أعلى من شأن الحكم العربى فى نظر الناس وساعد من طريق غير مباشر على التمكين للحركة الاسلامية من أن تمضى فى طريقها ونجـاح الادارة العربية فى حل المشكلات التى استعصى حلها رفع من قدر الحضارة الاسلامية فى نظر الناس •

وكان على الولاة العباسـيين أن يمكنــوا للنظم الادارية فى البــلاد مستهدين بالتقاليد الساسانية ، وأن يوحدوا بين الفرق والاتجاهات المختلفة وأن يسودوا الأمن والطمأنينة ، وألا يضـعوا السيف فى علاقتهم بالولاة الثائرين أو بحلفائهم من الأتراك الشرقيين • وقد تحقق للعباسيين اخضاع البلاد تماما للنفوذ الاســلامى ، والقضــاء على أى تهـديد من الداخل أو الخارج عندما عدلوا عن السياسة القديمة من كثرة عزل الولاة وتوليتهم الى سـياسة جـديدة أكثر ملاءمة تقضى بأن تكون الولاية وراثيــة فى أبنـاء الاشراف من أهل البلاد العليمين بأحوالها والذين يظفرون بتقدير الناس واحترامهم (١) •

وقد بذل هؤلاء الولاة حتى ظهور الطاهريين جهودا عظيمــة ، فقد تصدوا لثورات العرب فأخضعوها وقضوا عليهــا ، كما قضــوا على ثورات الايرانيين أيضا ، فقد استطاع عبد الجبار بن عبد الرحمن (١٤٠ هـ ، ٧٥٧ م) الذى خلف أبا مسلم فى حكم البلاد أن يهزم مجاشع بن حريث

---

(١) Barthold, p. 198

الأنصـارى عامل بخارى وأن يقضى عليه لميوله العلوية [1] • وفى عهـد المهدى اندلعت ثورة يوسف البرم مولى ثقيف الخارجى فى بخارى سـنة (١٦٠ هـ ، ٧٧٦ م) وكان يوسف يمد سلطانه الى مرو الروذ والطالقان والجوزجان ، ثم اشتعلت ثورة أخرى فى عهد المأمون وهى ثورة يوسف حفيد منصور بن عبد الله• وانتشرت فتن الخوارج فى سجستان وبادغيس• وظلت سجستان بؤرة للثورات حتى فى عهد الطاهريين والسامانيين • ثم كانت ثورة اشناس فى بادغيس سنة ١٥٠ هـ •

كما تصدى هؤلاء الولاة لثـورات اتبـاع ابى مسلم الذين اتخذوا البياض شعارا لهم وسموا المبيضة • ومن أنصار أبى مسلم الذين أعلنوا الثورة فيما وراء النهـر اسحق التركى ، كما ثار المقنع الخراسـانى قرب مرو • وكذلك ثورة رافع بن الليث الذى هزم واستسلم للمأمون• وكان الأتراك المسلمون من وراء هذه الثورات يؤيدون هذا الفريق حينا وذاك أحيانا [2] •

وقد أضاف العباسيون الى سياستهم تلك أمرا آخر كان بالغ الأثر فى التقريب بين الأتراك والعـرب دافعا لمن بقى منهم على دينـه الى اعتناق الاسلام ونقصد استخدام الترك فى الجيش ووظائف الدولة • وقد وجد العباسيون تقاليد عربية قديمة مطبقة منذ أيام الأمويين وهى استخدام غير المسلمين فى الجيش ، فتوسع العباسيون فى استخدامهم • وقد انشأ الفضل ابن يحيى البرمكى فرقة كبيرة فى خراسان من الأتراك الغربيين بلغ عدد أفرادها نحو خمسين ألف مقاتل بعث منهم الى بغداد عشرين ألفا ، وأطلق عليها اسم الفرقة العباسـية • واشـترك فى قوات على بن عيسى رجال من الصغد • وكان جيش طاهر بن الحسين يضم سبعماية من الخوارزمية [3]•

(١) الطبرى جـ ٩ ص ١٢٨ •

(٢) Barthold, pp. 199-200

(٣) Barthold, p. 203

والجديد فى الأمر هو استخدام هؤلاء الجند الترك فى بغداد نفسها. وقد استن المأمون سنة جديدة حينما دعا كثيرين من زعماء الاتراك الى الدخول فى خدمته ودعا زعماءهم الى بغداد ومنحهم الصلات . واشترك فرسان الترك فى الحرس الخليفى . واستمر هذا التقليد فى عهد المعتصم حين ظهر الحرس التركى وفيه من الصغد وفرغانة وأسروشنة والشاش وكانوا دعائم الخلافة . وقد قرب ذلك بين الأتراك الغربيين وبين الاسلام وساعد على انتشاره من ناحية كما ساعد على تثبيت السيادة الاسلامية من ناحية أخرى .

وفى عهد المعتصم كان الاسلام قد رسخت قدمه فى بلاد ما وراء النهر وبدأ الأتراك أنفسهم يتبنون حركة الجهاد بين جيرانهم الأتراك الشرقيين [1] . يقول البلاذرى « المعتصم بالله حل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من الصغد الفراغنة والأسر وأهل الشاش وغيرهم، وحضر ملوكهم بابه ، وغلب الاسلام على ما هناك وصار [2] أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك .. ففتح مواضع لم يصل اليها أحد من قبله » .

وقد تبع انتشار الاسلام على ذلك النحو سير الثقافة العربية فى طريقها المرسوم فلم تعد ثقافة الوافدين من العرب انما توطنت بين أهل البلاد الذين بدءوا بعد تعلم اللغة العربية يضيفون الكثير الى الانتاج الاسلامى . واذا كانت مدارس ما وراء النهر قد ازدهرت فى عهد الطاهريين والسامانيين حينما برزت بخارى وسمرقند كمراكز للعلم والثقافة ، فليس من شك فى أن الخطوات الأولى التى أدت الى هذا التطور قد تمت فى القرنين الثانى والثالث الهجرى .

ومن الممكن أن نكشف عن الجهود التى بذلها مسلمو ما وراء النهر

---

(١) Ibid, p. 212

(٢) البلاذرى ص ٤٣١ .

فى الثقافة الاسلامية اذا درسنا فى عمق كتب الطبقـات : طبقات الأطبـاء والحفاظ والفقهاء والشعراء واللغويين والنحاة والمفسرين • فلا شك فى أننا نجد مادة غزيرة تلقى ضوءا على هذه الجهـود التى بذلهـا أبناء هذه البلاد • ومما لا شك فيه أن بروز علماء من أهل تلك البلاد لا فيما وراء النهر فقط بل فى العالم الاسلامى كله مثل الترمذى والبخارى والفرغانى أمر لم يتم بين عشية وضحاها ، بل لا بد من أن يكون هذا الجيل من العلماء مسبوقا بجيل آخر مهد لظهور أمثال الرجال •

الفصل الرابع
الحركات الاستقلالية
الطاهريون والسامانيون

وفى مطلع القرن الثالث اشتركت خراسان فى الحركة الاستقلالية التى عمت العالم الاسلامى كله بقيام الدولة الطاهرية بها • ولم يكن ظهور هذه الامارات مصادفة ، انما كان ثمرة لتطور أكثر خطورة وعمقا • فقد كانت الامارات استجابة لحركة اسلامية شاملة ظهرت فى صورة رغبة جامحة أحس بها الخراسانيون المسلمون فى المشاركة فى الحياة الاسلامية • والواقع أن قيام الطاهريين ـ كما بينا ـ كان تعبيرا عن حركة اسلامية كبيرة شملت خراسان كلها • ونعتقد أنها شملت ما وراء النهر كذلك • فقد كان الطاهريون [١] يحكمون خراسان كلها وما وراء النهر، ويعتمدون على ولاء الخراسانيين المسلمين وولاء الأتراك الغربيين الذين استجابوا للاسلام • وكان الطاهريون يستمدون نفوذهم الحقيقى من القوتين معا الخراسانية والتركية الغربية •

وكان من الطبيعى أن تتأثر الحركة الاسلامية فى وطن الأتراك الغربيين بظهور الطاهريين وبسط نفوذهم على البلاد • فقد قام الطاهريون بدور مرسوم ، وكانت له أبلغ النتائج ، فقد أمنوا الحركة الاسلامية عن طريق الحكم المستقر الذى أقاموه ، وانصرفوا الى الاصلاحات الداخلية بصورة لم تكن معهودة من قبل •

(١) Barthold, p. 212

وقد انصرفت عنايتهم الى الأمور الزراعية ، فأنفقوا نحو مليونى درهم فى حفر قنوات باقليم الشاش ظلت قائمة حتى القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى [1] • وفاق اهتمامهم بالزراعة كل وصف ، وكانت المنازعات تثور بين الناس بسبب استخدام الماء فى الرى وكان عبد الله بن طاهر يستعين بالفقهاء لحل هذه المشاكل •

وكان الطاهريون يدأبون على كسب ولاء جماهير المسلمين اذ كانت عنايتهم واضحة بالطبقات الفقيرة المستضعفة • وقد دفعهم ذلك الى العناية بالتعليم العام ، وتمكين أبناء الفلاحين من الأخذ بنصيب من الثقافة العربية• ومعنى هذا أن الثقافة العربية لم تعد ثقافة الطبقة الأرستوقراطية بل أخذت تنتشر بين الجماهير [2] •

وقد أدت هذه الحياة الاقتصادية المستقرة من ناحية وتشجيع الطاهريين من ناحية أخرى ، الى تشجيع الحركة العلمية لا فى نيسابور ، أو فى مدن خراسان فحسب ، بل فى مدن ما وراء النهر نفسها ، وبدأت مدارس بخارى وسمرقند ترسخ قدمها فى الانتاج ، وتذيع شهرتها فى الآفاق • وكان الطاهريون أنفسهم على درجة كبيرة من الثقافة الرفيعة • فقد عرف عبد الله بن طاهر بقرض الشعر وكان ابن اخيه منصور بن طلحة يؤلف الكتب [3] •

وثمة حقيقة أخرى بدت فى عهد الطاهريين وساعدت على التمكين للحركة الاسلامية ، وهى احتشاد المرابطين والمطوعة والغزاة فى خراسان بعامة ، وفيما وراء النهر بخاصة ، وقد أصبحت ما وراء النهر فى عهد الطاهريين بلدا اسلاميا ، وكان المجاهدون يفدون اليها للمشاركة فى جهاد الأتراك الشرقيين وحماية دار الاسلام [4] •

---

(١) Barthold, p. 212

(٢) Ibid, p. 212-213

(٣) الثعالبى : اليتيمة جـ ٤ صفحات ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢١ •

(٤) Barthold, p. 215

ويبدو أن هؤلاء الغزاة كان لهم شأن فى عصر الطاهريين فقد أصبحت لهم طائفة تنظم شئونهم ، وكان قائد المطوعة يتمتع بشهرة واسعة . وكان المطوعة فى بلاد ما وراء النهر يعرضون خدماتهم .

وكان الطاهريون أكثر ادراكا للخطر الذى يتهدد البلاد من الأتراك الشرقيين الذين لم يكفوا عن الاغارة الخاطفة على حدود الاقليم . وكانوا فى الوقت نفسه الذى يبثون فيه الاستقرار فى الداخل ، يدفعون خطر الهجوم التركى المتدافع [1] . وفى عهدهم خضعت امارة أسروشنة للنفوذ الاسلامى وقد أسلم أمراؤها واشترك منهم حيدر الملقب بالأفشين فى الحياة الاسلامية فى بغداد .

وكانت جيوش الطاهريين لا تكف عن حماية مناطق الأطراف ، وقد بلغت أعمالهم العسكرية فى الحياة الاسلامية فى بغداد .

والدور الذى لعبه السامانيون أكثر بروزا ، فكما كان لهم دورهم المرسوم فى تاريخ الحركة الاستقلالية الايرانية كان لهم دورهم المرسوم فى تاريخ الاسلام فى تركستان . ففى عهدهم وضحت ثمار الجهود التى بذلها العرب فى دفع الاسلام فى هذه المناطق طيلة قرنين من الزمان ، وأحرزت الحركة الاسلامية نجاحها المرجو ، فثبت الاسلام فى قلوب الأتراك الغربيين ، بل انتشر بين الأتراك الشرقيين ودخلت الأمة التركية فى الحياة الاسلامية لتلعب دورها المرسوم .

أفادت بلاد ما وراء النهر من الحركة الاستقلالية التى نشأت فى خراسان فى ظل الطاهريين ، ولكن ظهور السامانيين كان فى الحقيقة ينبوع هذه الحركة الاستقلالية من اقليم ما وراء النهر نفسه . فقد كان مركز القوة السامانية ومركز الاشعاع السامانى وكما خضعت ما وراء النهر لنفوذ خراسان السياسى فى عهد الطاهريين خضعت خراسان هذه المرة المنفوذ السامانى المنطلق من وراء النهر .

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٠٧ .

وقد نبتت قوة السامانيين فى أرض ما وراء النهر الصميمة ، بدءوا حياتهم عمالا للطاهريين فى مدن ما وراء النهر ، ثم اشتركوا فى القضاء على ثورة رافع بن الليث وخدموا المأمون وفازوا برضاه ، فطلب أن يولى نوحا على سمرقند سنة ٢٠٤ هـ وأحمد بن أسد على فرغانة ، ويحيى بن أسد على الشاشن [١] وأسروشنة والياس على هراة [٢] . ولما ولى طاهر بن الحسين خراسان أقرهم فى هذه الأعمال .

بل استطاع نوح بن أسد أن يجمع بين سمرقند وبين اقليم الصغد . انما الذين وطدوا ملك السامانيين [٣] وثبتوا نفوذهم هم أولاد أحمد بن أسد خاصة نصر الذى خلف أباه على سمرقند ومايليها من قبل الطاهريين . فلما انتهى ملك بنى طاهر ولاه الخليفة العباسى المعتمد بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ . فلما آلت اليه الامارة رسميا على هذا النحو ، ولى أخاه اسماعيل على بخارى فى السنة نفسها .

ولما توفى نصر سنة ٢٧٩ هـ آلت زعامة السامانيين الى أخيه الذى مضى بالامارة فى طريق التوسع والازدهار ، فقهر الصغاريين وانتزع طبرستان من يد أميرها محمد بن زيد ، كما ضم الرى وقزوين وصد عدوان الأتراك الشرقيين .

ومات اسماعيل فى مدينة بخارى سنة ٢٩٥ فخلفه ابنه أحمد بن اسماعيل الذى قضى على الدولة الصغارية ، اذ أسر سبكا السبكرى غلام عمرو بن الليث الصغارى وأسر أخاه محمد بن الليث . ولما قتل احمد ابن اسماعيل سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) أقر الخليفة المقتدر ابنه نصرا على بلاد ابيه . ولما توفى نصر بن احمد سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) خلفه نوح ابن نصر فى خراسان وما وراء النهر . وقد تصدى لمؤامرات البويهيين

(١) Barthold, pp. 209-210

(٢) الخضرى تاريخ الأمم الاسلامية ص ٣١٠ .

(٣) Barthold, p. 215

والزياريين حتى توفى سنة ٣٤٣ فخلفه عبد الملك بن نوح حتى مات سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) فآلت الامارة الى أخيه أبى صالح منصور • وفى عهده دبت الشيخوخة فى جسم الدولة فقامت الثورة بسجستان والرى واحتدم النزاع بين البويهيين ، وانتهت الدولة بوفاة نوح الثانى بن نصر سنة ٣٨٧ هـ ، (٩٩٧ م) •

اذن هذه مساهمة واضحة من جانب الاتراك الغربيين فى الحركة الاستقلالية التى عمت العالم الاسلامى كله فى ذلك الوقت ، وبدأ الأتراك الغربيون فى ظل بنى سامان يلعبون دورا بارزا فى الحياة الاسلامية •

وكانت من أولى ثمرات الاستقلال السامانى فيما وراء النهر تمكن الحركة الاستقلالية من البلاد وانتصارها انتصارا لا تقهقر بعده (١) ، وتمكن الثقافة العربية من البلاد وصيرورة الاقليم مركز اشعاع ثقافى اسلامى عظيم ، امتد أثره شرقا حتى الصين وشمالا حتى كاشغر وغربا حتى حوض الفولجا • يقول الثعالبى « كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم ادباء الأرض وموسم فضلاء الدهر » (٢) •

وقد مهد السامانيون لذلك التطور الهام بسياسة داخلية ناجحة تهدف الى نفس الاتجاهات التى سعى اليها الطاهريون من قبل من استتباب الامن والاعتماد على تأييد شعبى شامل ومن انعاش للحياة الاقتصادية بتشجيع التجارة والزراعة والصناعة •

ويبدو أن السامانيين كانوا قد وصلوا بالحياة الاقتصادية فيما وراء النهر الى درجة من الازدهار لم تشهدها البلاد من قبل أشار اليها المقدسى الذى تحدث عن الصادرات والواردات وأشاد بنفوذ السامانيين وفضلهم (٣) •

---

(١) Barthold : Histoire des Turcs d'Asie Centrale, p. 47

انظر : ابن الأثير ج ٧ ص ١٠٠ ، و ج ٨ ص ٢ – ٣ •

(٢) ج ٤ ص ٢١ •

(٣) انظر : الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٣ •

ترجم الثعالبى للكثير من مظاهر الحركة الأدبية فى خراسان وما وراء النهر =

هذا ويجمع المؤرخون على انبعاث نهضة اسلامية كبرى من مدارس ما وراء النهر خصوصا من بخارى وسمرقند • وقد أشرنا الى هذه الحقيقة عند تناولنا لتاريخ ايران • ولا ننكر أن هذه النهضة تطور طبيعى وضحت مظاهره منذ أيام الأمويين ووصل الى القمة فى ذلك العصر • ولا ننسى أن نذكر أن مستوى الرخاء ومظاهر الثروة تساعد على تشجيع الحركة العلمية ونموها • وقد أسهم السامانيون فى هذا البعث بتشجيعهم الحركة العلمية وتقديرهم لرجال العلم • وقد عمل اسماعيل بن أحمد السامانى على توطيد سلطانه فى بخارى بمعونة الفقهاء وقد أعفاهم من تقبيل الأرض بين يديه وكان يختار نخبة من فقهاء الحنفية ورجال العلم فى بخارى لأخذ رأيهم فى المسائل الهامة •

هذا وقد سار السامانيون فى الطريق نفسه الذى سلكه الطاهريون قبلهم من اشاعة الحياة الثقافية فى أوساط العامة ويعترف المؤرخ بارثولد [١] بذلك النفوذ العظيم للمدارس الثقافية فى عصر السامانيين بقوله : « وتدل الوثائق التى بين أيدينا على أن المدارس التى قامت بخراسان وما وراء النهر فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) لعبت الدور الأهم فى

= ولترجمته قيمة بالغة ، فقد توفى سنة ٤٢٩ أعنى أنه عاش فترة من حياته معاصرا للسامانيين كما أنه نفسه كان من أهل نيسابور • وقد أورد نماذج كثيرة من شعراء نيسابور وبلخ وبخارى •

انظر • اليتيمة ج ٤ ص ٢ ـ ٢٩ و ص ٢٩٧ ـ ٣٣٤ •

ويمتدح المقدسى سيرة السامانيين فى الحكم ويقول : انهم من أحسن الملوك سيرة ونظرا واجلالا للعلم وأهله ، فقد كان من رسومهم مثلا أنهم لا يكلفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم • ويذكر المقدسى أن فى أمثال الناس « لو ان شجرة خرجت على آل سامان ليبست » ويقول : ألا ترى الى عضد الدولة وتجبره وتمكنه وكمال دولته وقوة أسره ، فقد فتحت له البلاد طوعا وملك ماملك فلما تعرض لآل سامان وطلب خراسان أهلكه الله وشتت جمعه وفرق جيوشه ولكن أعداءه من ممالكه فتبعا لمن عاند آل سامان •

المقدسى ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩ •

(١) Barthold, p. 255

نشر الاسلام • وانه اذا كانت الحركة الاسلامية قد أحرزت نجاحا خارج حدود ما وراء النهـر ، فان الفضـل فى ذلك يرجع الى مدارس ما وراء النهر » •

وقد كان لحركة الاحياء الثقافية الفارسية التى اتخذت وجها اسلاميا فى العصر السـامانى والتى أفضنا فى الحـديث عنها اثرا بالغـا فى تاريخ الحضارة الاسلامية فيما وراء النهر خاصة وفى تركستان عامة • والمؤرخون يرون فى الدور الذى قام به السامانيون فى هذا الصدد امتدادا للمحاولات الساسانية القديمة ، وان كانت هذه المحـاولات الجـديدة قد فتحت أمامها آفاقا أوسع • وقد كانت تأثيرات المدينة الايرانية تنفذ الى ما وراء النهر لكن لم تتح لايران على الاطلاق الفرصـة لاخضـاع الاتراك الغـربيين ، أما السامانيون فقد فتحوا أمام الحضارة الايرانية الاسلامية آفاقا عظيمة ، فهى لم تنتشر فى اقليم ما وراء النهر فقط انمـا طبعت الاتراك الشرقيين بطابع فارسى واضح •

وفى ظل السامانيين اتحد الاتراك الايرانيون فى ايران مع الأتراك فى آسيا الوسطى فى دولة واحدة ، ربما للمرة الأولى فى تاريخ المنطقة ، ونزح كثيرون من الايرانيين واستقروا فى تركستان فى ظل السامانيين ، وبدأت اللغة الفارسية الجديدة لغة عصر الاحيـاء تكسب عالم الأتراك الى جانب اللغة العربية • بل نفذ هذا التأثير الفارسى فى عهد السامانيين ومضى فى طريقه شرقا حتى وصل الى حدود الصين (١) •

والأمر الذى جعل للسامانيين مكانتهم المتـازة فى تاريخ الحضـارة الاســلامية هو موقفهم من الأتراك الشرقيين • فقـد كان هـذا الموقف استمرارا للسياسة العربية القديمة التى وضحت فى أول عصر المأمون • لكن الالحاح العربى المستمر لفرض السيادة فى آسيا الوسطى فتر الى حد

---

(١) Barthold : Hisetoire des Turcs d'Asie Centrale, pp. 34-35

كبير فى عهد الطاهريين ، فقد كان اهتمامهم بخراسان اهتماما كبيرا كما جنحوا الى سياسة الدفاع وصد الهجمات وبناء الأسوار •

أما السامانيون فقد نبع نفوذهم الحقيقى من منطقة ما وراء النهر طرحوا سياسة الدفاع ونفضوا أيديهم من سياسة بناء الأسوار ، بل اهملوا هذه الأسوار ولم يجددوها ، لأنهم كانوا يرون ان كلمة الاسلام لا ترتفع بين الأتراك الشرقيين الا اذا ظهر العالم الاسلامى بمظهر القوى القادر على المبادأة بالهجوم (١) •

ولم تكن سياسة السامانيين الهجومية بالشمول الذى رأيناه فى العصر العباسى الأول ، انما كان هذا الهجوم أقرب الى الغارات الخاطفة منه الى أى شىء آخر • ولم يكن هدفهم أن يحصلوا على كسب أرضى كبير بقدر ما كانوا يهدفون الى ارهاب الأتراك الشرقيين ووقف عدوانهم وايقاع الرعب فى قلوبهم • وقد قام السامانيون بحملات متلاحقة فى مناطق البدو المحيطة بهم كتلك الحملة المشهورة التى نسبت الى نوح بن أسد على منطقة اسفيجاب (٢) • فقد كانت هذه المدينة لا تزال بيد أسرة تركية وكانت لها امتيازات كبيرة مثل الاعفاء من الضرائب ، كما قام اسماعيل بن احمد بحملة مشابهة على مدينة طالاس سنة ٨٩٣ (٢٨٠ هـ) كما استطاع سنة ٩٠٤ م (٢٩٢ هـ) ان يطرد الغزاة الترك بمعونة الذين خفوا اليه من كافة أرجاء العالم الاسلامى • وفى النصف الأخير من القرن العاشر وصلت هذه السياسة الهجومية الى أقصى مدى لها ، اذ قام السامانيون بحملة كبيرة على بلاساغون ووقع ابن خاقان الترك أسيرا فى أيديهم • وقد فرض السامانيون سلطانهم على مناطق الأتراك الشرقيين بصورة لم تشهدها البلاد من قبل •

---

(١) Barthold : Histoire des Turcs d'Asie Centrale, p. 48

(٢) Barthold, p. 211
وقد أسفرت هذه الحملات عن الاستيلاء على بعض المدن الهامة مثل طالاس التى استولوا عليها سنة ٨٩٣ وحولوا معبدها الى مسجد جامع •

والدور الخالد الذى قام به السامانيون ليس هو الجهـاد فحسب انما كسبهم عالم الاتراك الشرقيين للحضارة الاسلامية ، هؤلاء الأتراك الذين سيصبحون مادة للاسلام وقوة للحضارة الاسلامية • لقد كان السامانيون يطبقون سياسة الجهاد الحقة ، السيف من ناحيـة والتبشـير السـلمى من ناحية أخرى ••

لقد تضافرت عوامل كثيرة لتحقيق ذلك الكسب الكبير ، منها ذلك النشاط العظيم فى ميدان الدعوة الى الاسـلام ، والوثائق تظهر الجهـود الكبيرة التى قامت بها مدارس ما وراء النهر خصوصا بخارى وسمرقند ، والتى نشطت الى أبعد الحدود فى القرن الرابع الهجـرى عصر الدعـوة الشاملة الى الاسلام بين الترك •

وقد اضطلع بهذه الدعوة المسلمون من الأتراك الغربيين وهم أكثر فهما لأوضاع الترك وأعرف بلسانهم • قام الخراسانيون بالدعوة الى الاسلام بين الأتراك الغربيين ، كما قام الأتراك الغربيون بهذه الجهود بين الأتراك الشرقيين •

ومن الجهود التى بذلت فى هذا السـبيل جهـود الفقيه ابى الحسن محمد بن سفيان الكلماتى الذى غادر نيسابور سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) وقضى بعض الوقت فى بخارى ثم رحل الى ديار الأتراك الشرقيين ودخل فى خدمة كبير خاناتهم ، ومات هناك سنة ٣٥٠ هـ (١) • ونضيف الى ذلك جهـود الفقيه أبى الحسن سعيد بن حاتم الذى رحل الى ديار هؤلاء الترك ولقى حتفه هناك • وقد حفلت هذه الفترة بالمئات من أمثال هؤلاء الدعاة •

ولا يفوتنا أن نذكر أن القرن الرابع الهجرى شـهد نشـاطا كبيرا للصوفية الذين نزلوا الى ميدان التبشير الذى احتكره الفقهاء من قبل ،

---

(١) Barthold: Four studies on the history of Central Asia, Vol. I, p. 20

وقد شهد هذا القــرن التوفيق بين التصــوف والفقه ، الأمر الذى حمى الصوفية من عدوان الفقهاء وأطلق يدهم فى الميدان الدينى •

لقــد قام هؤلاء المتصــــوفة بدور كبير الى جانب الفقهــاء ، فالفقهاء يخاطبون الطبقة المثقفة والصوفية يتعمقــون بالعقيــدة فى نفــوس طبقات السذج والعوام • وقد كان هؤلاء المتصــوفة فى الحقيقة لا يتحدثون عن الجهاد أو الاستشــهاد ، انمــا يتحــدثون عن الخير والبر ، ويخــوفون من العذاب والعقاب ، ويكسبون قلوب الجمــاهير فى منــاطق البــدو بحياتهم المتقشفة وسيرتهم وزهدهم وعمق ايمانهم وصدق دعوتهم (١) •

وقد دخل الصوفية ميدان الدعوة الى الاسلام فى بلاد التركستان فى عهد السامانيين • تغلغل نفوذهم بين الأتراك الغربيين أولا ثم انطلقوا الى الأتراك الشرقيين • والرحالة الأوربيون يتحدثون عن ذلك النشاط الذى بذله الصوفية فى آسيا الوسطى وعن النجاح الذى أحــرزوه وعن تغلبهم على منافسة الديانات الأخرى مثل المسيحية أو البوذية •

وثمة عامل آخــر كان له وزنه فى انتشــار الاســـلام بين الأتراك الشرقيين ، ونقصد به التجارة ، وقد لعبت التجــارة فى هذا الميدان دورا بارزا • اذ المعروف أن الاحتكاك التجــارى بين منــاطق البــدو وأماكن الاستقرار احتكاك طبيعى • فالبدو الترك كانوا ينظرون الى البلاد المستقرة المزدهرة نظرة اكبار ، وهى موردهم الطبيعى للمنسوجات أو غيرها من المصنوعات التى لا تتوافر فى البيئــات البــدوية • ومنــاطق الاســتقرار بدورها تتطلع الى مناطق البداوة على أنها مورد طبيعى للمادة الخام والثروة الحيوانية (٢) •

وقد بدأ هؤلاء البدو أول الأمر يقبلون على أســواق المسلمين فيما وراء النهر ويألفون البضــائع الاســلامية ويعتمدون عليها وتزداد حاجتهم

(١) Barthold : Histoire des Turcs d'Asie Centrale, p. 57

(٢) Barthold : Turkestan p. 17

اليها باستمرار • وكان هؤلاء البدو يقودون قطعانهم الى المدن الواقعة على الحدود دون انتظار رحيل التجار اليهم • وكانت تسترعى انتباههم الأعشاب الطويلة على ضفاف الانهار يأوون اليها زمن الشتاء (١) •

وكانت تستهويهم من الاسلام هذه الجوانب المادية أولا ثم يتبعون هذا الاعجاب بالمادة بالتطلع الى الدين الاسلامى باعتباره العامل الموجه لهذه الحضارة المزدهرة ، ثم تميل قلوبهم اليه فيدخلون فيه •

وهذا القول يصدق على خانات الأتراك الشرقيين وطريقة دخولهم فى الاسلام • فقد أعجبوا أول الأمر بأحوال المسلمين وحاصلاتهم وصناعاتهم وأتبعوا ذلك بالاعجاب بدينهم • ويبدو أن التجار المسلمين استغلوا هذه الصلات المتبادلة وقاموا بدور المبشرين • وليس من شك فى أن التبشير كان يمضى جنبا لجنب مع النشاط التجارى •

كان التجار المسلمون من الأتراك يحملون المنتجات الاسلامية الى اتجاهات متعددة عبر المسالك التى فتحها الصغد من قبل • وكانت أهم هذه الطرق تلك المؤدية الى بلاد الصين ومنها تفرغت شمالا الى ديار الأتراك الشرقيين • وكانت المسافة بين طالاس وديار الكيماك مسيرة احدى وثمانين يوما •

وكان هنالك طريق آخر من اقليم ترخان حتى اقليم القرغيز والى حوض نهر ينسى الأعلى • وتحفل المصادر الاسلامية بالمعلومات عن الطريق المؤدى الى القرغيز ، وتتفق هذه المعلومات الى حد كبير مع ما ورد فى النقوش الصينية ونقوش أورخون • ويبدو أن العرب اهتموا بهذا الطريق البرى اهتماما عظيما ولهذا أفاض الجغرافيون العرب فى وصفه والاشارة اليه (٢) •

---

(١) Barthold : Four studies, Vol. I, pp. 17-18

(٢) ابن خرداذبة • ص ٢٥ ـ ٢٩ ، ٣٤ ـ ٤١ •

وقد وضحت سيطرة المسلمين على هذه الطرق التجارية منذ تمكن العباسيون من هزيمة الصين • وتشير الوثائق الصينية الى أنه فى القرن العاشر الميلادى نفذ التجار المسلمون شرقا حتى منغوليا • وكان فى مكنتهم أيضا الوصول الى بلاد الكيماك عن طريق آخر من المجرى الأدنى لنهر سيحون • كانت هذه المناطق خارج نفوذ السامانيين ولكن المهاجرة أقاموا بها المراكز الصناعية • وكان بعض هؤلاء المهاجرة من خوارزم أيضا • وقد جنت خوارزم أرباحا طائلة عن طريق التجارة مع هؤلاء البدو [١]• واذا كان هؤلاء التجار المسلمون قد استطاعوا أن يرفعوا المستوى الحضارى لدى الأتراك الشرقيين فانهم أثاروا اعجاب هؤلاء البدو بالعقيدة الاسلامية [٢] •

وفى ختام الحديث عن عوامل نجاح الدعوة الاسلامية بين الأتراك الشرقيين يجب ألا نغفل عامل الهجرة• فقد كانت الهجرات تتجه باستمرار من اقليم ما وراء النهر الى مناطق البداوة وطن الأتراك الشرقيين • وكان هؤلاء المهاجرة أكثرهم من عنصر الصغد الذين عرفوا بهذا النشاط • ولم يقطع الاسلام هذه الصلات بل استمرت هجرات الصغد بعد اسلامهم • وأخذوا يتخطون حدود ما وراء النهر باستمرار • وكانوا يؤسسون مدنا أو مستعمرات خاصة بهم تنتشر خارج حدود الاقليم للقيام بعمليات المبادلة التجارية [٣]

وكان الأتراك كثيرا ما يحتكون بهذه المستعمرات التى انتشرت على حدودهم • وكانت الدولة فى بعض الأحيان تجيز لبعض القبائل التركية عبور مناطق الحدود • وقد سمحت لبعض قبائل الأوغوز بالمرابطة فىمناطق الرعى مناقليم ما وراء النهر فى مقابل التعهد بحماية الحدود ، كما سمحت

---

(١) Barthold : Four studies, Vol. I, pp. 17-18

(٢) Idem

(٣) Barthold : Turkestan, p. 254

(*) يبدو أن القراخانيين كانوا زعماء التقوز أوغوز الذين قضوا على ملك القرلوق .

لفريق التركمان بزعامة سلجوق بن دقاق بالاقامة عند الأطراف الشمالية لنهر سيحون ٠

وكان هذا الاحتكاك المستمر بهذه المستعمرات الاسلامية يقرب بين الأتراك الشرقيين وبين الاسلام ٠ وليس من قبيل المصادفات أن تكثر هذه المدن وهذه المستعمرات المنتشرة خارج بلاد ما وراء النهر فى العصر السامانى بالذات فهو العصر الذى تدفقت فيه الدعوة الاسلامية بنجاح الى أوطان الأتراك الشرقيين ٠

الفصل الخامس

نتائج اسلام الأتراك الشرقيين

ظهور القرا خانيين

كل العوامل التى أشرنا اليها اجتمعت فى آخر العهد بالسامانيين لتصنع ذلك الحدث الكبير فى تاريخ الاسلام فى آسيا الوسطى ، وهو انتشار هذا الدين بين الأتراك الشرقيين وظهورهم فى الحياة الاسلامية وتكوينهم دولا اسلامية تركية تتطاول الى ما وراء النهر كما فعل القراخانيون ، أو تبسط نفوذها على بغداد وايران وتخضع ما وراء النهر لسلطانها كما فعل السلاجقة .

كانت أول امارات الأتراك الشرقيين ظهورا فى تركستان امارة القراخانيين . والغموض يحيط بالقراخانيين [١] ، بأصلهم وكيفية اسلامهم ومتى تم اعتناقهم الاسلام على وجه التحديد ، رغم الدور العظيم الذى اضطلعوا به فى تاريخ انتشار الاسلام فى آسيا الوسطى .

فالمؤرخون الذين أرخوا للسامانيين لم يشيروا من قريب أو بعيد الى هذا الشعب صاحب الدور العظيم ، كما لم يشر اليه الرحالة والجغرافيون العرب . ومن الغريب أن تستقى أخبارهم من بعض المراجع المتأخرة من القرن الرابع عشر الميلادى الذين استقوا أخبارهم من روايات

---

(١) Barthold : Turkestan, p. 254, Hist. des Turcs, p. 59

وقد أغفلوا ماضيهم السابق على الاسلام بعد أن تركوا الأبجدية الا يغورية الى العربية أنظر أيضا :

Barthold : Four Studies, Vol. I, p. 21

مبكرة بعض الشيء [1] • وهذه المراجع المتأخرة بدورها لا تشير الى القبائل التى انتسب اليها القراخانيون ولم تتحدث عن هجرات الشعوب التركية التى ارتبطت بظهورهم • ولم ينجل ذلك الغموض الذى لف تاريخهم الأول حتى بعد اكتشاف ديوان محمود الكشغرى الذى ألفه والقراخانيون قد استقر نفوذهم منذ عهد بعيد فعنى بحاضرهم أكثر مما عنى بماضيهم •

على كل حال نستطيع بالمقارنة بين هذه المصادر جميعها : ما كتب فى عصر السامانيين وما كتبه الرحالة والجغرافيون العرب وما استنبطه بارثولد من ديوان الكشغرى ، ومن ذلك المؤلف الجغرافى مجهول الأسم (ألف سنة ٣٢٨ هـ ــ ٩٣٩ م) الذى عثر عليه باحث يسمى تومانسكى، لذلك يسمى « مخطوط تومانسكى » ، وما ورد فى ثنايا الكرديزى الذى ألف فى القرن الحادى عشر •

ويتبين مما كتبه الكرديزى وما ورد فى مخطوط تومانسكى أن ديار القرلوق (من الأتراك الشرقيين) وهى الديار التى وصفها الجغرافيون العرب وصفا دقيقا قد تعرضت لغزو شعب تركى آخر هو شعب اليغما من أتراك التقوز أوغوز [2] • ثم يزيدون الأمر وضوحا فيذكرون أن اليغما هؤلاء كانت ديارهم تشمل كاشغر وشطرا من البلاد الواقعة بين الحوض الأدنى لنهر ايلى الذى يصب فى بحيرة ولخشن والمجرى الأدنى لنهر شو الذى يصب فى بحيرة ايسك كول ، ويمتد نفوذهم فى بعض الأحيان الى الجنوب من نهر نارين أحد روافد سيحون [3] •

ولما كان القراخانيون يرتبطون بكاشغر ارتباطا وثيقا فقد كانت منطلقهم ومقرا لخاناتهم • وكانوا فى بعض الأحيان يطلقون عليها اسم

---

(١) المؤلف جمال قرشى الذى ينقل عن كتاب تاريخ كشغر من القرن الحادى عشر
Hist. des Turcs, p. 59

(٢) Barthold : Hist. des Turcs, p. 60

(٣) Idem

(اردوكنت) أو مقر السلطان على نحو ما يذكر محمود الكشغرى • فلا بد اذن أن يكون القراخانيون قد انحدروا من شعب اليغما ، وهو من الأتراك التقوز أوغوز أو الايغوريين •

ثم يزداد أصل القراخانيين وضوحا ويلقى مزيد من الضوء على أوليات تاريخهم اذ يشير محمود الكشغرى الى شعوب التوخشى والجغيل من الأتراك الشرقيين (١) • هذه الشعوب التى يحدد المؤرخون الفرس ديارها تحديدا واضحا اذ يذكرون أن التوخشى نزلوا بالاقليم الواقع الى الشمال من نهر شو على حين نزل الجغيل الى الشمال من بحيرة ايسك كول • ومن الغريب أن نجد السلاجقة فى عصر ملكشاه الذى قام بحملته المشهورة فيما وراء النهر يطلقون على القراخانيين اسم الجغيل (٢) • ويذكر محمود الكشغرى أن هؤلاء الأوغوز يطلقون اسم الجغيل على جميع الأتراك الذين ينزلون بين سيحون والصين •

اذ ان القراخانيين من اليغما وهم من الجغيل الذين لعبوا دورا هاما فى تاريخ آسيا الوسطى فى مستهل القرن الرابع الهجرى • وينتمون الى العنصر نفسه الذى انتمى اليه القرلوق الذين كانوا أقرب ما يكونون من دار الاسلام ، وأكثر تعرضا لاشعاعاته الحضارية • وتقترب بلادهم من طراز ، وكانوا أول الأتراك الشرقيين اعتناقا للاسلام •

ثم يفيض محمود الكشغرى فى معرفته بعالم الترك فيذكر أن الأوغوز (السلاجقة) اطلقوا على القرلوق أيضا اسم التركمان (٣) • وتلك كلمة ظهرت للمرة الأولى فى القرن الرابع الهجرى وهى فارسية الأصل (تورك مانند) ومعناها أشباه الترك • وفى القرن الثانى عشر كان صاحب مدينة بلاساغون وهو من سلائل القراخانيين يطلق عليه اسم التركمانى ••

(١) Barthold : Hist. des Turcs, p. 41

(٢) Idem

(٣) Hist. des Turcs

هكذا تعددت أصول القراخانيين فهم من اليغما وهم من الجغيل القرلوق والأوغوز •

لكن الذى يعنينا من تاريخ القراخانيين هو اسلامهم•• كيف حدث؟ ومتى تم ؟•

يختلف المؤرخون فى السنة التى أسلم فيها هؤلاء وفى أول الخانات دخولا فى الاسلام والمؤرخان ابن الأثير (١) ومسكويه (٢) يتحدثان عن سنة ٣٤٩ هـ • (٩٦٠ م) على اعتبار أنها فيصل فى تاريخ الاسلام فى تركستان ، فيذكران أنه فى تلك السنة تدافعت جموعهم نحو الاسلام تدخل فيه ، وأنه اعتنق الاسلام فى هذه السنة بعينها نحو مائتى ألف خيمة (خاركاه) من الأتراك الشرقيين (٣) ، أعنى ما يقرب من مليون نسمة دخلوا فى الاسلام فى عام واحد ، وهى صورة قل أن رأت حوليات الاسلام لها نظيرا • وعهدنا بعمليات التحول الى الاسلام عمليات بطيئة لا تتخذ هذا المجرى السريع • ولعل ذلك يذكرنا بما سبق أن أشرنا اليه عند حديثنا عن أبى الحسن محمد بن سفيان الكلماتى النيسابورى الذى مات فى ديار الأتراك الشرقيين سنة ٣٥٠ هـ • ويبدو أن الكلماتى هذا هو الذى أدى نشاطه الكبير الى ادخال هذه الجموع فى الاسلام • وقد بذل جهودا مماثلة فقهاء آخرون نذكر منهم أبا الحسن سعيد بن حاتم الاسبانيكنى الذى رحل هو الآخر الى ديار الأتراك الشرقيين فى وقت سابق على سنة ٣٩٠ هـ (٤) (٩٩٩ م) •

ويشير المؤرخون وخاصة جمال قرشى الذى ينقل من كتاب عن تاريخ كاشغر ألف فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩١ •

(٢) تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٨١ • Barthold : Turkestan, p. 254

(٣) Barthold : Four studies, Vol. I, pp. 98-100

(٤) Barthold : Turkestan, p. 259

الهجرى) [1] الى أن أول خانات القراخانيين اعتناقا للاسلام هو ستوق بغراخان عبد الكريم المتوفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) (٢) • وتؤيد هذه الأقوال كتب المناقب التى وضعت مؤخرا فى آسيا الوسطى • ويبدو أن المنطق الطبيعى يقول بأن دخول هذه الجموع فى الاسلام قد سبقه اسلام الخانات أنفسهم وأن الشعب أخذ يدخل فى دين ملوكه • ولا بد أن اسلام القراخانيين تم قبل سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) اذ أن اقدم الروايات تذكر أنه توفى سنة ٣٤٤ هـ ومعنى هذا أنه اسلم قبل وفاته • وليس بعيدا أن يكون قد اعتنق الاسلام فى أواخر ايامه • ويؤيد هذه الحقيقة أن عاصمة القراخانيين كانت مدينة اسلامية فى السنة التى أسلم فيها ستوق بغراخان•

ولم يقف انتشار الاسلام بين الأتراك الشرقيين عند هذا الحد ، فقد انتشر بين الأتراك الشرقيين كلهم فى ذلك الوقت نفسه ، فقد أسلم قوم من الأوغوز النازلين عند مصب نهر سيحون • وافتتح خان الأوغوز عهده بأن حرر المدن الاسلامية التى كانت تدفع الجزية لغير المسلمين ، فكأن دخوله فى الاسلام اقترن باشتراكه فى معركة الجهاد ، كما أسلم القرلوق(٣) وأسلم من الأوغوز السلاجقة • على كل حال ما كاد القرن الرابع الهجرى ينتصف حتى كان الأتراك الشرقيون قد أسلموا كلهم وأسلم خاناتهم •

والأمر الذى أبرز دور القراخانيين فى الحياة الاسلامية ودفع المؤرخين الى الاهتمام بهم والافاضة فى الحديث عنهم ، هو اتجاههم الى الى ما وراء النهر حيث الحضارة العربية التى ازدهرت هناك ، وحيث الاشعاع الثقافى العظيم من مدارسه التقليدية التى تمت بالصورة التى أشرنا اليها فى عصر السامانيين •

---

(١) Idem

(٢) زامباور جـ ٢ ص ٣١٢ •

(٣) Barthold : Hist. des Turcs, p. 61

والحقيقة أن احتكاك الأتراك الشرقيين بالسامانيين فيما وراء النهر قديم يرجع الى مستهل القرن العاشر الميلادى بل قبل ذلك (١) • ففى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) والنصف الأول من القرن الرابع الهجرى أنفذ السامانيون الجيوش الى مناطق البدو الترك لاخضاعهم• وقد استولى نوح بن أسد على اسفيجاب كما أرسل اسماعيل جيشا الى مدينة طراز وأرسل نصر جيشا الى شاوغر • هذا وقد أغار الأتراك الشرقيون على ما وراء النهر سنة ٩٠٤م (٣٩٢ هـ) (٢) فى عهد اسماعيل بن أحمد، ثم استولى هؤلاء الترك على بلاساغون سنة ٩٤٢ م (٣٣١ هـ) وتصدى لهم السامانيون سنة ٩٤٣ م (٣٣٢ هـ) وأسروا ابن خاقان الترك (٣) • وظل السامانيون يفرضون سلطانهم على الأتراك الشرقيين حتى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، يدل على ذلك ما كان من بنائهم الربط والحصون قرب ميركى (٤) •

ولكن يبدو أن أطماعهم فى أملاك السامانيين قد شد من أزرها اسلامهم فى عهد ستوق بغراخان ، وتأكد هذا الاسلام فى عهد حفيده هارون بن موسى الذى اتخذ لقب شهاب الدولة وظهير الدعوة ، ونقش هذا اللقب على السكة التى ضربها بايتاق سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢م) (٥) • ولم يجد مقاومة تذكر فى غزو ما وراء النهر • وكان قد تم الاتفاق سرا بين هرون وبين والى خراسان اذ ذاك أبى على احمد بن محمد بن أمير الصغانيان على اقتسام أملاك السامانيين ، على أن تترك بلاد ما وراء النهر لبغراخان وتطلق يد أبى على فى البلاد جنوب نهر جيحون (٦) •

---

(١) Barthold: Turkestan, p. 256

(٢) الطبرى جـ ١٢ ص ٣٩٢ – ٢٩٤ •

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٧ •

(٤) Barthold: Turkestan, I, 256

(٥) لقبه شهاب الدولة على النقود (زامباور جـ ٢ ص ٣١٢) Barthold, p. 257

(٦) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٠ ، جـ ٩ ص ٣٧ •

والمؤرخون يختلفون فى الكشف عن الأسباب الحقيقية التى دفعتهم صوب الغرب نحو ديار الأتراك الغربيين فى الوقت الذى كان يجب عليهم أن يندفعوا صوب الشرق ليفتحوا للاسلام أفقا أرحب يمتد حتى حدود الصين • ونعتقد ان القراخانيين لم يكن يمنعهم من الاتجاه صوب الشرق الا خوفهم من الاصطدام بقوة الصين ، هذا والحضارة الاسلامية المزدهرة فى مدن الاقليم وما عرف به من وفرة الثراء ورقة الحضارة كان عاملا هاما فى جذب انظار هؤلاء البدو ، كما اجتذبت بغداد البويهيين الديلم •

ويعلل هذا الاتجاه أيضا بأنه كان باغـراء من طبقـة الدهاقين فيما وراء النهر الذين أخذوا على السامانيين اتجـاهاتهم الشـعبية وهم الذين استدعوا الأتراك الشرقيين ويسروا مهمتهم وأطلعوهم على عورات البلاد• ويؤيد هذا أن الدهاقين جنوا الفـائدة مضـاعفة بعد أن تمت للقراخانيين السيطرة على البلاد فقد احتفظوا بحاضرتهم القديمة فى كاشغر ، وأصبحت ما وراء النهر تابعة لهم تطلق فيها أيدى الدهاقين (١) •

وهنالك تفسير آخر وهو أن بعض رجال الدين فى عهد السامانيين الأواخر ظنوا أن فى تغيير الحكم فائدة لهم ، لذلك مهـدوا الطريق أمام القراخانيين للتقدم صوب الغـرب ، يدل على ذلك موقف الفقهاء خـلال أحداث الفتح • فقد أفتوا بألا يحمل الناس السلاح فى وجه الغزاة (٢)• وقد نال الفقهاء من الامتيازات فى عهد القراخانيين اضعاف ما حصلوا عليه فى عهد السامانيين • وكان رجـال الدين ينتظرون ظهور هؤلاء الفاتحين لتخليص العالم الاسلامى من نفوذ الشيعة •

على كل حال لم يلق هـارون بن موسى معارضـة تذكر من أهـل البلاد أثنـاء تقـدمه الى اسفيجاب وسـمرقند وبخارى ودخوله حاضرة

(١) Barthold: Four studies, Vol. I, p. 21

(٢) ابن الاثير جـ ٩ ص ٧٠ ، Barthold: Turkestan, p. 258

السامانيين فى ربيع الأول سنة ٣٨٢هـ (مايو ٩٩٢م) (١) • ولكن هارون ما لبث أن انسحب الى سمرقند ثم مات فى طريق عودته لبلاده •

ولم تقف أطماع القراخانيين رغم وفاة هرون فقد عاودوا غزو البلاد مرة أخرى فى سنة ٩٩٦ م (٣٨٦ هـ) وقد استنجد نوح آخر السامانيين بسبكتكين فخف الى نجدته وانضم اليه امراء الجوزجان والصغانيات والختل ولكن سبكتكين صالح القراخانيين على أن تكون الحدود الفاصلة بينهم وبين السامانيين بادية قطوان وتتم سيطرتهم على كل البلاد الواقعة شمال حوض طبرستان • وبهذا احتفظ القراخانيون بحوض نهر سيحون كله ولم يقيموا فى بخارى انما احتفظوا بعاصمتهم القديمة وأصبحت ما وراء النهر ولاية تابعة لهم (٢) •

ولم يتوقف زحف القراخانيين صوب الغرب فقد تمكن ارسلان خان على الذى اتخذ لقب ارسلان ايلك من هزيمة بقايا السامانيين سنة ٩٩٩م (٣٩٠هـ) (٣) واستولى على ما وراء النهر كله باسم القراخانيين • ومات آخر السامانيين سنة ١٠٠٥ م بعد محاولات عديدة لاسترداد أملاك الدولة (٤) •

ولم يغفل القراخانيون دورهم كمبشرين بالاسلام وذادة عن تراثه• ولم يفتهم أن يسهموا بنصيب كبير من الجهاد فى أقصى الشرق رغم اهتمامهم بالغرب واستيلائهم على ما وراء النهر • الدليل على ذلك أن خان كاشغر ارسلان خان على مات شهيدا سنة ٩٩٨ م وهو يحاول نشر الاسلام الى الشرق من كاشغر (٥) •

---

(١) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٨١ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٣٥ _ ٦٦ •

(٢) Barthold : Four Studies, Vol. I, p. 21, Turkestan, p. 263

(٣) Barthold : Turkestan, p. 268

(٤) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٨١ •

(٥) Barthold : Four studies, Vol. I, p. 21

وفى عام ١٠٤٣ م (٤٣٥ هـ) ، بفضل نشاط القراخانيين اعتنق أتراك القرغيز الاسلام وكانت أعدادهم تربو على عشرة آلاف خيمة • وكانوا فى الصيف يقيمون قرب بلاد البلغار واذا كان الشتاء أقاموا قرب بلاساغون •

ولم يكف القراخانيون عن الاتجاه صوب الشرق فقد سقطت فى أيديهم مدينة ختن فى عهد قدرخان يوسف الذى توفى سنة ١٠٣٢ م (٤٢٤ هـ) ، كما اتجهوا صوب الشمال الى القبائل التى تقطن وادى نهر ايلى فأخضعوها لسلطانهم (١) •

على كل حال استطاع القراخانيون فى القرن العاشر والثانى عشر أن ينشروا الاسلام على جانبى جبال تيان شان التى توحدت بزعامة القراخانيين أو الايلك خانيين • ولم يفتهم أن يكسبوا حكمهم طابعه الشرعى شأنهم شأن جميع الدول المستقلة التى ظهرت فى ذلك العصر ، فقد اتخذوا لقب موالى أمير المؤمنين ونقش اللقب على سكتهم وضربوا العملة باسم الخليفة القادر ودعوا له على منابر بلادهم • واتخذ ايلك خان نصر لقب ناصر الحق (٢) •

وأن حياتهم ونظمهم لم تكن تختلف عن حياة البدو من الترك وذلك بانقسام دولتهم فى فترة ضعف السلطة المركزية الى اقطاعات سرعان ما تستقل ، بعضها يتضاءل مساحة وبعضها الآخر ينفسح رقعة • وكانت هذه الاقطاعات فى حروب داخلية متصلة • وقد اختفت السلطة المركزية تماما فى القرن الخامس عشر ، واستقلت كل مدينة بأمير • وسرعان ما استقل ولاة ما وراء النهر متخذين لقب ايلك خان (٣) • ولكن اسلامهم وفتحهم بلاد ما وراء النهر كانت له نتائجه الهامة فى تاريخ

---

(١) Barthold : Four Studies, Vol. I, pp. 98-100

(٢) نقود بخارى بتاريخ ٣٩٠ هـ Morkov : Katalog زامباور جـ ٢ ص ٣١٢ •

(٣) Barthold : Four Studies, Vol. I, 22-23

الحضارة الاسلامية • ويكفى أنهم نبذوا الأبجدية الايغورية القديمة ، واتخذوا الأبجدية العربية • وعملوا على توغل الحضارة العربية حتى حدود الصين • ولم يؤد استيلاؤهم على ما وراء النهر الى الحد من التطور الثقافى للبلاد بل ظلت التطورات التى وضحت فى العصر السامانى مستمرة فى عهد القراخانيين • وظل الفقهاء يحظون بالعناية والرعاية نفسها كما أن سقوط السامانيين جعل الدهاقين يستردون نفوذهم • ويحتمل أن يكون الدهاقين هؤلاء قد شاركوا فى الصراع بين الملوك وبين الارستوقراطية العسكرية التى اشتدت سطوتها فى العصر القراخانى • وكان الخانات يعتمدون على تأييد عامة الناس على حين كانت الارستوقراطية يؤيدها الفقهاء •

على كل حال كان اسلام القراخانيين وفتحهم ما وراء النهر اسهاما لا شك فيه فى الحضارة الاسلامية •

ولكن اسلام الاتراك الشرقيين لم تقتصر نتائجه على مجرد قيام امارة تركية خالصة منهم تنشر الاسلام حتى حدود الصين وتتطلع الى ما وراء النهر فتستولى عليه وتنبذ أبجديتها الايغورية وثقافتها الصينية لتكتسب طابعا عربيا واضحا ولترعى الثقافة العربية فى مدارس ما وراء النهر •

بل سرعان ماتدافع الأتراك الشرقيون نحو مزيد من الظهور ليكونوا جند الاسلام وسادته فى القرن الخامس الهجرى ، ونعنى بهم السلاجقة الأوغوز من الأتراك الشرقيين • وكانت جموع هؤلاء الأوغوز فى عهد الدولة السامانية قد وفدت على بلاد ما وراء النهر مهاجرة ، وسمح لهم بالاقامة فى المجرى الأدنى من نهر سيحون ، أو فى المناطق الواقعة الى الغرب والجنوب الغربى من اسفيجاب (١) • ثم بدءوا يعتنقون الاسلام الذى تفشى بين الأتراك الشرقيين جميعهم فى القرن الرابع الهجرى • ثم انفصل فريق منهم بزعامة سلجوق بن دقاق • وقد اعتنق سلجوق وجماعته

(١) Barthold: Turkestan, p. 257, Four Studies, Vol. I, p. 22-23

من الاوغوز الاسلام وحرروا مسلمى جند من دفع الجزية وقد مات سلجوق ودفن فى جند (١) •

ولكن خلفاءه لم يطب لهم المقام بعد أن أساء عامل جند معاملتهم فأنزلهم السامانيون قرب مدينة نور سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) وفى القرن الخامس الهجرى عبروا نهر جيحون ، ودخلوا ايران جماعات متفرقة استطاعت أن تنتهز فرصة ضعف البويهيين وضعف الخلافة العباسية فسيطروا على ايران كلها •

ويصف البندارى (٢) كيف دخل طغرلبك بغداد واستقر بها وكيف استقبل بها وكيف أسس سلطانه على انقاض سلطان البويهيين • وكيف قضى على الملك الرحيم آخر سلاطين بنى بويه بالعراق •

لكن السلاجقة ما لبثوا أن استداروا الى الشرق فدخلوا ما وراء النهر واخضعوا القراخانيين وخان كاشغر لسلطانهم واستولوا على خوارزم • وبلغ النفوذ السلجوقى القمة فىعهد ملكشاه (٣)• وتوغل هذا النفوذ نحو اوزكند (٤) • وأصبح الأتراك الشرقيون القوة الكبرى التى تسيطر على الخلافة وتوجه الحياة الاسلامية •

انتشار الاسلام صوب المغرب فى بحر الخزر وحوض الفولجا :

رأينا كيف انتهى الفتح العربى حتى بحر قزوين وكيف احتك العرب بالديلم • ثم كيف أطل الحكم العربى على بلاد القوقاز من الجنوب بفتحهم أردبيل وأذربيجان (٥) • وقد وقف المد الاسلامى عند سلسلة الجبال التى تفصل اقليم القوقاز الحالى ، عند حدود ايران الشمالية •

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٢٢ •

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ – ١٠ •

(٣) أسر ملكشاه أحمد خان بن خضر • زامباور ج ٢ ص ٣١٢ •

(٤) Barthold : Hist. des Turcs d'Asie Centrale, p. 63

(٥) ولى عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة اذربيجان فقاتل أهلها وصالحوه على الجزية ثم عاود المسلمون غزو اردبيل فى ولاية عقبة بن فرقد السلمى • ويبدو أن اردبيل لم يستقم للمسلمين بعد كل هذا ، فقد بعث عثمان بن عفان الوليد بن الوليدين =

حدث هذا كله أواخر عهد الراشدين ، لكن يبدو أن المد الاسلامى لم يستطع أن يدخل بلاد القوقاز عن طريق هذا النطاق الجبلى الذى كان من الصعب اجتيازه • ولم تستطع الاتصالات بين العرب والخزر عن هذا الطريق أن تثمر ثمرات ذات قيمة • بل يبدو أن العلاقات لم تكن على ما ينبغى أن تكون عليه بين العرب والخزر • فكان العرب من ناحية لا يكفون عن الاغارة على مدينة داغستان العاصمة الخزرية القديمة (١) حتى اذا رأى الخزريون عاصمتهم مهددة بالسقوط فى أيدى العرب هجروها الى عاصمة أخرى فى الشمال على مصب نهر الفولجا بعيدا عن متناول العرب وفى مأمن من غزواتهم • وكان الخزريون بدورهم لا يكفون عن تهديد مناطق الحدود العربية • وكان الحكام الخزريون كثيرا ما ينحدرون نحو الجنوب الى الحدود العربية • ولم يجد العرب بدا من أن يعتصموا بسياسة الدفاع بعد أن أعيتهم سياسة الهجوم •

واذا كان الاسلام لم يمتد الى بلاد القوقاز على نطاق واسع من الجنوب عن طريق الثغور العربية فى اذربيجان وقزوين ، فانه نفذ الى بلاد القوقاز عن طريق بلاد ما وراء النهر واستدار حول بحر قزوين ، ثم انحدر الى بلاد القوقاز نحو الجنوب •

وقد قام اقليم خوارزم بدور كبير فى هذا الصدد • وكانت خوارزم تقع على الطرف الشمالى الغربى لاقليم ما وراء النهر • وكان الخوارزميون قد وطدوا صلات قوية مع الجماعات البدوية على حدود ما وراء النهر • وارتبطوا بهم بعلاقات تجارية وطيدة •

= عقبة سنة ٢٥ هـ • فحارب فى اذربيجان حتى طلب أهلها الصلح • وولى على بن أبى طالب اذربيجان سعيد بن سارية الخزاعى ثم الاشعث بن قيس الكندى • ولم يقنع العرب بأسلوب الفتح فقد وطنوا العرب فيها خاصة أهل العطاء والديوان وأمروهم بدعوة الناس الى الاسلام •

وبدت اذربيجان فى عهد على بلدا قد غلب عليه الاسلام ، فقد مصرت وبنى مسجدها الجامع ونزحت اليها العشائر مهاجرة من مصر والشام • ولم تكف الدولة الاسلامية عن الاهتمام بثغر اذربيجان فقد وليها خازم بن خزيمة فى خلافة الرشيد فبنى سورها وحشد فيها المقاتلة • انظر البلاذرى ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ، ٣٣٣ •

(١) البلاذرى ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ •

ولما تدفق النفوذ الاسلامى الى هذا الاقليم لم يجد الخوارزميون بدا من أن يذعنوا بالطاعة للحكم العربى حرصا على تجارتهم ، ويذكر البلاذرى (١) أن بعض ملوكهم كاتب قتيبة بن مسلم بعد توغله فى البلاد يستعين به فى تخليص العرش من أخ له ينافسه •

ويبدو ان هذه العلاقات بين العرب والخوارزميين أثمرت ثمراتها وانتهت باسلامهم • ولا نستطيع أن نحدد بالضبط الفترة التى شهدت هذا التطور الخطير وان كنا نرجح أن ذلك تم فى أيام السامانيين وأصبحت خوارزم بلدا اسلاميا ، بل شهدت قيام دولة اسلامية مستقلة • فقد حكمتها أسرة مسلمة فى الفترة الممتدة من سنة ٣٤٠هـ الى ٤٠٧ (٢) •

وقد اتجه الخوارزميون بنشاطهم صوب الغرب ، صوب حوض الفولجا والقوقاز ونشأت بينهم وبين بلاد الخزر صلات قوية (٣)• وانتشر التجار الخوارزميون فى اقليم القوقاز ، بل اشترك جنود من خوارزم فى جيش خاقانات الخزر وقاتلوا معهم • انما كانوا يكفون عن الاشتراك فى القتال اذا اشتبك الخزريون مع القوات العربية عند ثغور ايران الشمالية • ويبدو أن التجار الخوارزميين الذين انتشروا فىالقوقاز قاموا بنشاط كبير فى ميدان الدعوة الى الاسلام واستغلوا صلاتهم القوية فى نشر الاسلام •

ولا نستطيع بالضبط أن نقدر الجهود التى بذلها الخوارزميون فى هذا الميدان ولا حقيقة النتائج التى تمخضت عنها هذه العلاقات • هل انتهت هذه الجهود باسلام الخزر على نطاق واسع ؟

والمؤرخون يختلفون فى ذلك كله فالمؤرخ بارثولد لا ينكر حقيقة تفشى الاسلام بين أهل الخزر • ويرى أن الحركة الاسلامية بلغت غايتها فى القرن الرابع الهجرى الذى شهد توطد الصلات بين خوارزم والخزر

---

(١) البلاذرى ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ •

(٢) Barthold: Four studies, Vol. I, p. 30-32

(٣) Idem

الى أبعد الحدود • كما يرى أن الجماعات الاسلامية لعبت دورا كبيرا جدا فى نضال الخزر مع الروس فيقـول « ان الخاقان اذعن لرعاياه المسـلمين واذن لهم بمهاجمة الروس وانضم الى المسلمين التجار النصارى والمتوطنون فى ايديل والمهتمون بأن تظل تجارة المدينة فى مأمن من الغـارات » **(١)** ثم يستدرك فيقول : « انه اذا كان الشعب قد اعتنق الاسلام فان الملوك لم يدخلوا فى هذا الدين ، وشايعتهم الطبقة الارستوقراطية فى البلاد وأنهم ظلوا على اليهودية التى أصبحت ديانة رسمية للملوك » **(٢)** •

على حين تؤكد الرواية الاسلامية اسلام الخزر جميعهم وتؤكد أن وقوف الخوارزميين مع الخزر فى وجـه الروس هو الذى أدى الى هـذا التحول الكبير الى الاسلام • لأن أهل خوارزم اشترطوا الثمن لهذه المعونة أن يعتنقوا الاسلام •

واذا سـلمنا بصحة ما يقـوله بارثولد فان تمسـك الملوك بعقيـدتهم القديمة ليس معنـاه أن الخزر جميعهم صـدوا عن الاسـلام • والمراجع الاسلامية صريحة فى تأكيـد هذه الحقيقـة فى الوقت الذى يغض فيـه بارثولد من قيمة هذا الرأى بقوله : « وعلى هذا فان الاسلام لم يستطع أن يسود بلاد الخزر » **(٣)** •

ثم ظهر الروس على المسرح السياسى منذ سنة **٣٣٢** هـ **(٩٤٣ ـ ٩٤٤)** وكانوا فى عنفوان البداوة والقوة • وقد وصفهم مسكويه بقوله : « هؤلاء أمة عظيمة لهم خلق عظام ولهم بأس شديد ، ولا يعرفون الهزيمة ولا يولى الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل • ومن عـادة الواحد منهم أن يحمل آلة السلاح ويعلق على نفسـه أكثر آلات الصـناع ، من الفـأس

---

(١) Barthold : Hist. des Turcs, pp. 51-52

(٢) Ibid, p. 52

(٣) Barthold : Hist. des Turcs, p. 52

والمنشار والمطرقة وما أشبهها ، ويقاتل بالحربة والترس ويتقلد السيف ويعلق عليه عمودا وآلة كالدشنى ... » (١) .

وقد شرعوا يهددون أذربيجان فأغاروا على عاصمتها برذعة واتجهوا صوب مراغة ، ودعا المرزبان محمد بن مسافر أمير اذربيجان الى الجهاد لوقف عدوانهم وصد خطرهم (٢) .

هذا هو الدور الذى لعبه الأتراك فى تاريخ الاسلام ، اتصل الأتراك الغربيون بالعرب ثم أسلموا فى عصر بنى طاهر واتصل السامانيون بالأتراك الشرقيين حتى اعتنقوا الاسلام وتكونت منهم دولة استولت على ما وراء النهر ، بل ظهروا فى الحياة الاسلامية كلها حين اندفع السلاجقة الى بغداد.

وقد تأثر الترك بالثقافة العربية الخالصة فى الدور الذى يمكن أن نسميه بالدور العربى الذى استمر منذ فتوح الأمويين حتى قيام السامانيين. وفيه كانت الثقافة الشائعة فى مدارس خراسان وما وراء النهر كلها ثقافة

---

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٢ ، أنظر ابن خرداذبة ص ١٥٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٦ .

نص ما ورد فى ابن الأثير (ج ٦ ص ١٤٦) .

« وفى هذه السنة خرجت طائفة من الروسية فى البحر الى نواحى اذربيجان وركبوا فى البحر فى نهر الكر وهو نهر كبير فانتهوا الى برذعة فخرج اليهم نائب المرزبان ببرذعة فى جمع من الديلم والمطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل فلقوا الروس ، فلم يكن الا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم وقتل الديلم عن آخرهم وتبعهم الروس الى البلد فهرب من كان له مركوب وترك البلد فنزله الروس ونادوا فيه بالامان فأحسنوا السيرة . وأقبلت العساكر الاسلامية من كل ناحية فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم . وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم فينهاهم الروس عن ذلك فلم ينتهوا سوى العقلاء فانهم كفوا أنفسهم وسائر الرعاع والعامة لا يضبطون أنفسهم، فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه وألا يقيموا بعد ثلاثة أيام . فخرج من كان له ظهر يحمله وبقى أكثرهم بعد الأجل فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا بعد القتل بضعة عشر الف نفس وجمعوا من بقى بالجامع وقالوا اشتروا أنفسكم والا قتلناكم وسعى لهم انسان نصرانى فقرر عن كل رجل عشرين درهما فلم يقبل منهم الا عقلاؤهم فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شيء قتلوهم عن آخرهم .. »

عربية خالصة كتب عنها بالتفصيل الثعالبى فى يتيمته • وأسهم الترك فى الحياة الاسلامية وأضافوا الى الحضارة العربية • يتحدث الثعالبى عن مدرسة بلخ وما أسهمت به فى الثقافة العربية بقوله : « كان يقال أخرجت بلخ أربعة من الأفراد : ابا القاسم الكعبى فى علم الكلام وأبا زيد البلخى فى البلاغة والتأليف وسهل بن الحسن فى شعر الفارسية ومعمد بن موسى فى شعر العربية » (١) •

أما فى الدور الفارسى دور احياء الفارسية فبدأ بظهور السامانيين واستمر حتى ظهور السلاجقة • وقد تأثروا بالنهضة الفارسية التى نبعت من بلاط السامانيين فيما وراء النهر • وتذوقوا الشعر الفارسى الجديد وانفعلوا به وظهر منهم شعراء أسهموا فى هذه النهضة الأدبية •

معنى هذا أن صلة تركستان بايران كانت صلة قوية ، أخذت عن ايران الكثير وأعطتها الكثير • واذا كانت تركستان قد تأثرت بما صدر عن ايران من تيارات ثقافية وفكرية ، فانهم أثروا فى تاريخ ايران السياسى بالسلطان الذى وصلوا اليه فى عصر السلاجقة •

وقد ظهر أثر كل من ايران وتركستان فى اقليم ثالث هو اقليم الهند •

---

(١) الثعالبى : اليتيمة جـ ٤ ص ٢١ •

الباب الثالث

انتشار الإسلام في شمال الهند

الفصل الأول
أحوال الهند قبيل الفتح العربى

ان بلاد الهند رغم وضعها الجغرافى المتطرف نحو الجنوب شاركت بنصيب كبير فى أحداث العالم الذى نعرض له بالدراسة : أى عالم الشرق الأوسط وآسيا الوسطى ، تأثرت بالأحداث الكبيرة التى وقعت فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى • فقد كانت الهند فى الحقيقة غير معزولة جغرافيا عن بقية آسيا ، رغم هذه الجبال الشامخة التى تحيط بها من الشمال ، فان جبال الهملايا هذه بها مسارب ضيقة تؤدى الى التبت وتركستان • وفى الحدود الشرقية الجبلية بعض المسالك التى تصل أرض الهند بالصين الغربية وشرق آسيا • وفى الغرب تمتد جبال هندكوش فى الشمال حتى البحر جنوبا • ولكن تخترقها مسالك تصل الى التركستان وأواسط آسيا عبر أفغانستان وتنفذ الى ايران عبر بلوخستان •

هذه الممرات الجبلية اذن تصل الهند بالشرق الأوسط وآسيا الوسطى وقد مكنتها من أن تستجيب لما فيها من أحداث وتطورات •

ففى طريق هذه الممرات نفذ الغزاة والمهاجرون من آريين واغريق وهون وعرس واتراك ومغول فتركوا أثرا كبيرا فى الشمال والشمال الغربى • وكانت الثقافة البوذية منافسا قويا لايران فى عالم آسيا الوسطى، وظلت كذلك حتى ارتفع شأن الحياة الثقافية فى عهد الساسانيين وانتشرت المؤثرات الساسانيين فى تركستان وأفغانستان •

ولما خضعت ايران للنفوذ العربى دخلت اليها موجات الفتح وازدادت الهند صلة بالشرق الأوسط والعالم الاسلامى ، وغدت الثقافة الهندية منبعا

هاما من المنابع التى تأثرت بها الحضارة الاسلامية • حتى اذا تجاوب الشرق الاسلامى باصداء الحركات الاستقلالية فى القرن الرابع الهجرى تأثرت السند بها وامتدت اليها أطماع محمود الغزنوى • بل تأثرت الهند بالتيار المغولى الدافق على الشرق ، ذلك أن المغول سيطروا على ايران وتركستان ودخلوا الهند مسلمين ليؤسسوا امبراطورية المغول •

وفى الحقيقة نريد اخضاع الهند للمقاييس نفسها التى أخضعنا لها انتشار الاسلام فى ايران وتركستان • كانت احوال الهند فى الواقع تشبه الى حد كبير أحوال ايران ، بل سارت فى الخط والاتجاه نفسيهما ، امبراطورية قوية مسيطرة تنخر فيها عوامل ضعف معينة تنتهى بها الى صورة من الفرقة زمن الفتح •

وظهور أسرة كبتا الثانية فى الهند مستهل القرن الرابع الميلادى يشبه ظهور آل ساسان فى ايران فى القرن الثالث الميلادى • وكانت بطولات شندرا كبتا الأول (٣٢٠ ـ ٣٢٥) وخليفته سامودرا كبتا (٣٢٥ ـ ٣٨٥) اشبه ببطولات اردشير وسابور • فقد استطاع شندرا كبتا الأول أن يؤسس الملك الحقيقى للكبتيين واتخذ فى نقوشه لقب ملك الملوك(١) وقد تمكن من طرد السيث أصحاب كنشكا من الهند (٢) ، ومد نفوذ دولته حتى نهر الكنج (٣) ، وأدركت غزواته شرق الهند واجبر الامارات القائمة هناك على أن تعلن الولاء وتدفع الجزية • واستطاعت الأسرة أن تبعد عن حدودها ستاربة السكا • ووطدت نفوذها فى الشمال والوسط والغرب بل أخضعت الدكن والبنغال وآسام لنفوذها (٤) •

واعتمد آل كبتا فى مد هذا النفوذ وتأكيد هذا السلطان على البرهمية الجديدة(٥)، كما اعتمد الساسانيون على كهنة زردشت(٦) وكان

---

(١) Advanced History of India, p. 149

(٢) السادانى جـ ١ ص ٣٢ •

(٣) Advanced History of India, p. 45

(٤) السادانى جـ ١ ص ٣٢ •

(٥) Price : History of India, p. 71

(٦) Price, p. 75

البراهمة عمادهم فى النفوذ والسلطان • وقد تحدث الرحالة الصينى فاهيان عن بلاطهم ومظاهر النهضة التى تجلت فى أيامهم ، وأشار الى المدن الكبيرة الزاخرة بالحركة والحياة ، والاديرة المزدحمة بالرهبان والمدارس والجامعات •

وكما كان العهد الساسانى انطلاقا للفكر الايرانى كان العهد الكبتى يحتل المكانة نفسها من تاريخ الهند ، ففى عهد آل كبتا تطور الفن والأدب واكتملت اللغة السنسكريتية (١) • وفى أيامهم عاش شاعر الهند العظيم وقصاصها الكبير كاليداسا مؤلف ملحمة ساكونتالا المشهورة • وبلغ الأدب السنسكريتى الذروة (٢) •

واذا كان الساسانيون قد أضعفت من قوتهم معاركهم مع البيزنطيين، حينا ومع الترك فى آسيا الوسطى حينا آخر ، فان ملك آل كبتا ما لبث أن أطاح به خطر جديد لم يقف عند حدود الهند ، بل اقتحمها ، اذ دخل الهون الهند مغيرين فى القرن الخامس الميلادى منحدرين من بلاد ما وراء النهر (٣) • وفى الوقت الذى كانت فيه جموعهم تهدد أوروبا ، كانت بعض هذه الجموع تقضى على حضارة الكبتيين الزاهرة • لقد وقف ساكندرا كبتا (٤٥٥ ـ ٤٣٠) فى وجههم ولكنهم ما لبثوا أن أطاحوا بالامبراطورية بعد وفاته • وفى آخر القرن الخامس ومستهل السادس امتد نفوذ الهون فى كل ناحية • لكنهم لم يستطيعوا أن يتسربوا الى قلب الهند ، فقد وقف لهم الأمراء الاقطاعيون فى العهد الكبتى وتقلص نفوذهم ، فأصبح مقصورا على رقعة فى شمال غرب الهند وفى مالوة • وظلوا فى حروب متصلة مع الأمراء المحليين حتى فنيت دماؤهم فى دماء الشعوب الهندية (٤) •

---

(١) Ibid, p. 76

(٢) **Price, p. 78**

(٣) Advanced Hist. of India, p. 158

(٤) Price, p. 78; Advanced Hist. of India, p. 154

ولكن يبدو أن الهند كانت تملك من عناصر المقاومة والصمود ما مكنها من ابتلاع الهون والتخلص من آثارهم • ودبت الحياة فى شمال الهند مرة أخرى لكنها صحوة كانت أشبه بصحوة الموت • لقد أدت غارات الهون الى تفكك دولة آل كبتا الثانية • ونشأت على انقاضها امارات محلية صغيرة مثل امارة تانسر التى كانت تتحكم فى مدخل وادى الكنج (١) ، ولكن امارة قنوج هى التى انطلقت منها الصحوة الجديدة فى عهد الملك هرشا من سلائل الكبتيين الذى انطلق نفوذه من امارة قنوج • وخاض معارك متصلة من سنة **٦١٨** الى سنة **٦٢٧** ليعيد شيئا من أمجاد آل كبتا الغابرة • فأخضع ملوك مالوة ، واستولى على امارة تانسر واهى شاشترا ، وشرافستى ، وبراياجا (٢) وانتشر نفوذه فى شمال الهند كلها • واتخذ الألقاب الملكية نفسها التى اتخذها آل كبتا من قبل (٣) •

ولكن عوامل الضعف التى بثها الهون لم يقض عليها تماما، فما لبثت أن أطلق من جديد بعد وفاة هارشا بقليل سنة **٦٤٧** (٤) • وتفكك ملك هارشا عقب وفاته مباشرة • ولم يستطع خلفاؤه الضعاف أن يقفوا فى وجه قبائل الهون التى أخذت تتدفق من جديد على الهند (٥) • وعمت الفوضى البلاد وقامت الحرب الأهلية بين الامارات • وكان البراهمة يؤججون هذه الحرب احتفاظا بنفوذهم وامعانا فى محاربة البوذية والقضاء عليها (٦) •

واستطاعت امارة قنوج رغم انسلاخ الجزء الأكبر من امبراطورية هارشا الواسعة عنها أن تمسك رمقها (٧) ، وأن تقاوم غزوات أمراء

---

(١) Price, p. 79

(٢) Advanced History of India, pp. 156-159

(٣) Ibid, p. 157

(٤) Advanced History of India, p. 157

(٥) Price, p. 83

(٦) الساداتى ج ١ ص ٣٥ •

(٧) Price, p. 83

قشمير والبنغال وما حولها ، وهى التى سيقدر لهـا أن تتصـدى للزحف الاسلامى الدافق من السند .

ثم امارة دهلى التى ظل بسال ديو واحفاده يسيطرون عليها . وكانت أملاكها تمتد بين الهملايا والوتد هايا (١) أما امارة مالوة فقد نهض بها راجا كرسنا واشتهر خلفاؤه بالبطولة فى الحرب ورعـاية الفنون والآداب السنسكريتية . واشتهر من بين حكام الكجرات مولراجا الذى بنى معبد سومنات (٢) . وامارة قشمير (٣) التى أتيح لها فى القرن الخامس الميلادى أن توسع من رقعتها حتى اشتهر أمرها . وقد خضعت لنفوذ الصـين فى القرنين السابع والثـامن . بل استطاعت الصـين أن تغـزو قشـمير عـام ٧٤٠ م (٤) لتضاعف الفوضى السياسية التى أصابت البلاد اذ ذاك . كما ظهرت امارة بهـار والبنغال . ثم امارة السـند التى قدر لهـا أن تواجه الزحوف العـربية التى قادها محمد بن القاسم . فقد خضـع هذا الاقليم طويلا بعد وفاة هارشا لقبائل السكا الآرية . وكان هذا الاقليم فى عهد الرحالة الصينى هيوان تسانغ تحكمه أسرة من الشدار . ثم انتقل ملكها الى رجل من البراهمة يقال له شاش ثم خلفه ابنه داهر (٥) .

هكذا ظل تاريخ شمال الهند حتى الفتح العربى موسـوما بالبعثرة والفرقة فقد انقسمت البلاد كما رأينا الى امارات متنازعة يحـارب بعضها بعضا . كانت أحوال الهند قبيل الفتح العربى من الفرقة والانقسام (٦)

---

(١) السادانى ج ١ ص ٣٥ .

(٢) الساداتى ج ١ ص ٣٥ .

(٣) Advanced Hist. of India, p. 157

(٤) Price, p. 83

(٥) Advanced Hist. of India, p. 164-169

(٦) يقول المسعودى (مروج الذهب ج ١ .

« اختلفت الهند فى آرائها فتخربت الأحزاب وتجيلت الأجيال وانفرد كل رئيس بناحية فتملك على أرض السند ملك وتملك على أرض القنوج ملك وعلى أرض القشمير ملك وتملك على مدينة المانكير ملك يسمى البادى »

مثل ما كانت عليه الامارات التركية فيما وراء النهر ، هذه الفرقة التى استغلها العرب وتسللوا منها الى البلاد .

وقد شهدت الهند التطاحن المذهبى نفسه الذى شهدته ايران . فقد شهدت ايران حربا بين الزردشتية والمانوية والمزدكية هزت كيانها العقيدى ، وشهدت هذا التطاحن نفسه بين البرهمية والبوذية. وكما غلف الزردشت ايران بطبقية جامدة عنيفة سار البراهمة فى الطريق نفسه .

فقد استطاع البراهمة بعد العصر الويدى ان يستعيدوا السلطة والنفوذ فثبتوا نظام الطبقات الذى كانوا قد أقاموه من قبل ، ووضع قديسهم الأعظم منو شرائعه وفقهه الذى أصبح يسير أمور الهند فى كافة نواحيها (١) . وشرائع منو تعطى البراهمة امتيازات تجعلهم فوق الملوك أنفسهم . فقد كان الملك لا يقطع أمرا دون الرجوع اليهم وكان يجيب مطالبهم كاملة . وأباحت شريعته للطبقات الثلاث الأولى الحق فى أن يصاهر بعضها بعضا على ألا يخالفوا طبقة الشوادر ، وان فعلوا نبذوا وأصابهم الخزى فى حياتهم ومماتهم (٢) .

وقد فقد البراهمة نفوذهم فىالعهد الكوشانى (٢٥ق٠م-١٥٠م) (٣)، وبدأت دعائم شرائعهم تهزها الدعوة البوذية لتقلل من سلطانهم وتحد من سطوتهم . لكن ما لبثوا أن استعادوا سلطانهم فى عهد آل كبتا (٣٢٠ - ٥٠٠) (٤) . فظهرت برهمية جديدة ، وفى نقوش قنوج ودهلى ومهوبا ذكر للعودة الى هذه المعتقدات القديمة (٥) . وقد ساعد على استرداد سلطانهم القديم ما وجدوه عند الأمراء الراجبوتيين من مناصرة وتشجيع. وسيطر البراهمة على التعليم (٦) ، وتمركزت السلطة فى أيدى الملوك

(١) الساداتى ج ١ ص ١٥ - ١٧ .
(٢) الساداتى ج ١ ص ١٥ - ١٧ .
(٣) Price, p. 71
(٤) Price, p. 78
(٥) Price, p. 77
(٦) Price, p. 76

الذين دانوا بدينهم وخضعوا لسلطانهم . وكان على البراهمة ليؤكدوا هذا النفوذ أن يعملوا على تقويض صرح البوذية المتسامحة ، التى ناوأت سلطانهم وتسربت الى نظم الهند الاجتماعية والسياسية (١) . وتغلغلت بين الطبقات الشعبية وزاد أتباعهم وعظم نفوذهم . ولم يعمد البراهمة الى الاضطهاد المذهبى فحسب ، بل عمد رؤساؤهم الى ادخال قدر كبير من التطور والتسامح فى شعائرهم فى وقت كان الكهنة البوذيون قد تنكبوا الطريق السوى ، وانحرفوا بمبادىء العقيدة فمكنوا للبراهمة من مقاتلتهم.

ومما يدل على تقدم البراهمة وتقهقر البوذية ، المقارنة بين ما ذكره فاهيان الرحالة الصينى الذى زار الهند مستهل القرن الخامس الميلادى ، وبين ما ذكره هيوان تسانغ الذى زار البلاد فى النصف الأول من القرن السابع . مما ذكره فاهيان يتبين كيف كانت البوذية فى القرن الخامس مستهل عهد آل كبتا بالغة الذروة ، فكانت بلاد البنجاب الكنج عامرة بالأديرة التى يقصدها ألوف الرهبان ليتعلموا فيها أسرار الدين ويعيشوا عيشة الزهد والنسك . وكانت تلك الأديرة تعيش على صدقات المؤمنين وهبات الملوك ، وكانت مراكز للمعرفة والزهد ، وفى تلك الأديرة حل فاهيان ضيفا (٢) .

أما هيوان تسانغ فانه يستخلص مما شاهده كيف عقد النصر للبراهمة وأسفر ذلك عن خراب المعابد والأديرة البوذية فى كثير من الولايات ، كما خربت باتلى بواترا عاصمة البوذية ، وأخذ نجم البوذية يأفل من الهند بسرعة وكانت المعابد التى أقيمت فى القرن السابع قليلة جدا . وفى القرن الثامن اضمحلت البوذية تماما وفقدت على الأقل سلطانها السياسى ولم تعد لها السيطرة الا فى نيبال شمالا وسيلان جنوبا(٣)

---

(١) Price, p. 77 ، الساداتى ج ١ ص ١٧ .

(٢) لويون : حضارة الهند ص ٣٩٠ .

(٣) نفس المصدر ٣٧٣ ، ٣٩٣ .

وشهدت الهند حربا خفيــة وتناحرا عميقــا بين البرهميــة المتقدمة والبوذية المتقهقرة ، فليس من الغريب أن ينحاز القساوسة البوذيون الى جانب محمد بن القاسم فى المعــركة الفاصلة ليس خيــانة منهم كما يذكر ماجيومبار (١) ، انما انتقاما لما نالهم من البرهميين المتسلطين •

ولم يؤد انتصار البرهمية الى انشقاق دينى وصراع طائفى أضعف من مقاومة عقائد الهند وهى تتصدى للاســلام ، وانما أدى الى صراع طبقى عنيف ، فقد كانت الطبقية البرهمية التى تطل من أقوال فاهيــان وهيوان تسانغ(٢)، والامتيازات الاجتماعية التى تمركزت فى يد كهنتها، وقصرها المصاهرة على أبناء الطبقات الممتازة ، سببا فى تبرم الطبقــات الأخرى من هذه الطبقة الجامدة • يقــول الســير توماس أرنولد (٣) مبينا الأوضاع الاجتماعية السيئة التى خلفها البراهمــة « ان الاهانات والاحتقــار الذى انصب على الطبقات المنحطة من الهندوكيين على أيدى اخوانهم فى الدين والعراقيل التى لا يمكن التغلب عليها ، والتى وضعت فى سبيل فريق من هذه الطبقات يرغب فى تحسين حالته ليوضح لنا فى هذه المقارنة الصحيحة فوائد النظام الدينى الذى لا يفرق بين منبوذ وسيد ، والذى يهيىء مجالا حرا للتمتع بأى مطمح •• فكان الخــلاص الذى يقــدمه الاســــلام الى الهندوكية من نظام الطبقات العليا » •

ولا يمكن أن تكون الأوضاع الاقتصادية وقت بداية الفتوح العربية أحسن حالا من الأوضاع السياسية والدينيــة والاجتمــاعية ، فلم تعرف الهند فى تلك الأيام الاستقرار السياسى أو الدينى أو الاجتماعى فما بالك بالاستقرار الاقتصادى •

ولبيان الهوة الاقتصادية التى تردت فيها الهنــد ، لا بد من المقارنة

---

(١) Advanced Hist. of India, p. 182

(٢) Advanced History of India, p. 196

(٣) الدعوة الى الاسلام ص ٣٢٣ •

بين ما ذكره الرحالة الصينى فاهيان الذى زار الهند بين سنتى ٤٠٥ و٤١١ ووصف الحياة الهندية (١) • وكان فاهيان بوذيا حج الى وطن البوذية ليعرف الكثير عن أديرة البوذيين • وقد رحل من الصين عبر الطريق القديم الواقع جنوب صحراء جوبى عبر ختان وكاشغر • وقد عبر جبال يامير ثم عن طريق يشاور رحل الى قنوج • وأخيرا عبر البحر الى سيلان ثم عاد بطريق البحر الى الصين •

وقد أعطى فاهيان صورة براقة عن عهد الملك الكبتى شندرا كوبتا الثانى (٢) لمجتمع سعيد مستقر حضاريا واقتصاديا •

أما الرحالة الآخر هيوان تسانغ فكان عالما صينيا جليل الشأن ، رحل من الصين سنة ٦٢٩ • وقد رحل الى طشقند وسمرقند وحج الى الهند ومكث بها أربعة عشر عاما وجابها كلها • وكان يقابل بالترحاب أينما حل، وعنى به الملك هرشا كثيرا وعقد له مجمعا فى قنوج • وقد أعطانا صورة مغايرة تماما للصورة التى أعطاها فاهيان • فالمساحات الواسعة من الأرض فى شرق الهند ، والتى كانت يانعة الخضرة رآها هيوان جرداء(٣) والمبانى الجميلة التى كانت تزينها خربت والسبل لم تعد آمنة • وكاد الرحالة نفسه يقع ضحية لقطاع الطرق (٤) • وكانت الطبقية على أشدها وخربت مدينة باتليترا ومؤسساتها الثقافية •

فلا عجب اذا كان مجتمع شمال الهند قد تحول الى مجتمع يطرد العناصر التى لا يقدر على أن يعولها • ولعل ذلك يفسر هجرات قبائل الجات (الزط) الذين عرفوا بالشجاعة والمهارة فى التجارة والخبرة بالزراعة • هاجروا الى ايران • وقيل ان على بن أبى طالب استخدمهم فى

---

(١) Price, pp. 74-75

(٢) Advanced History of India, p. 197

(٣) Ibid, pp. 197-198

(٤) Price, p. 82

حراسة أموال البصرة فى موقعة الجمل • وأنزلهم الأمويون ثغور الشام للمشاركة فى حمايتها • ووطنهم الحجاج فى سهول العراق ليقوموا باصلاح بطائحها وزراعتها •

وليس أصدق فى وصف أحوال الهند ساعة الاشتباك مع العرب وتأكيدا لما ذكرت من تعليق المؤرخ الهندى السردار بانيكار (١) بقوله : « ظلت بلاد الهند عامة فى مأمن من الغزو الخارجى بعد أن خفت وطأة الهون • وأدى هذا الأمان من التهديد الخارجى الى ضعف الروح القومية عند الهنود ، وضعف الروح المحاربة • فالروح المحاربة للهند لا تستيقظ الا فى وقت الخطر والغزو• وعاشت الهند تتجرع كأس العزلة والانزواء ، فقد قطعت علاقاتها بالصين بسبب تطور الأمور فى آسيا الوسطى وسيطرت سيلان على مضيق مالقة • وتوقفت الأمة الهندية عن النمو ، واضمحلت الحضارة بسبب الافتقار الى الدماء الجديدة أو الاحتكاك بالحضارات الأخرى • وأصيب المجتمع بالجمود » •

وكان هذا الاضمحلال جليا فى كل ناحية ، حتى فى النواحى الأدبية والثقافية انحط الذوق الأدبى وتمثل ذلك فيما كتبه الأدباء ماغا وهرشا • حتى المعنويات أصابها الانحطاط وأصبح وصف أعمال الوحشية والعنف أمرا يتغنى به الشعراء • كما سعى الاضمحلال الى العمارة وعدمت الحوافز العظيمة التى أنتجت معابد شمال الهند• وأصبحت الأعمال المعمارية تصور الانحراف الخلقى الذى تردت فيه الطبقة العليا صاحبة النفوذ • وامتد الضعف الى العقيدة والاخلاقيات • وشهدت البلاد تفاوتا كبيرا فى توزيع الثروة ، فأشار مؤرخو العصر الى أخوين تصدقا بعدة ملايين ، كما أشاروا الى الثروة الطائلة التى جمعها بيمال شاه الذى بنى معبدا من المرمر الخالص •

---

(١) A Survey of Indian History, pp. 104-110

كان الأثرياء يتصدقون لكن لبناء المعابد وتزيين أماكن الحج واغداق الهبات على المؤسسات الدينية ، بينما غلب الفقر على الفلاحين البسطاء . وتحكمت البيروقراطية الوراثيـة المتعفنـة فى مقـدرات النـاس . هذه البيروقراطية التى سخر منها الأديب الهندى كشمندرا فى قصتيه (نارما مالا) وديسو باديسا . هذه أحوال الهند قبيل الفتح فلننظر كيف أثرت فى وقائع الفتح ؟ . وكيف يسرت من توغل العرب فى البلاد ؟.

الفصل الثانى
الفتوح العربية فى السند والملتان

فى عرضنا للفتوح العربية فى الهند سنطبق المنهاج نفسه الذى التزمناه عند دراسة هذا الموضوع نفسه فى ايران وتركستان ، فمثلا لم يكن هذا الفتح فتحا عسكريا فحسب ، انما كان شأنه شأن التوسع العربى فى ايران وفى غيرها من البلاد ، فأعقبت الانتصارات العسكرية هجرات العشائر العربية التى تجمعت فى منطقة مكران أو بلوخستان لتنتشر فى البلاد ، وحمل العرب الى البلاد أسلوبهم نفسه فى الحياة وخلافاتهم التقليدية نفسها ونزاعهم القبلى بين القحطانية والعدنانية • وفى أعقاب الفتح أيضا انتشرت الثقافة العربية منطلقة من المدن العربية التى أسست فى عهد الأمويين والعباسيين • بل هاجرت الى الهند الصور الفكرية نفسها التى طبعت العالم الاسلامى فى القرن الأول • وانتقل اليها الخوارج بفرقهم ودعاياتهم وانتقل اليها الشيعة الاثنا عشرية والاسماعيلية •

وقد تم هذا الفتح أيضا فى ظل الوحدة التى أظلت العالم الاسلامى فى عهد عبد الملك والوليد • وكانت الدولة العربية التى استردت قوتها تضرب بأقصى شدة فى بلاد ما وراء النهر والسند بالطريقة والأسلوب نفسيهما •

وكان الحجاج بن يوسف نفسه هو القوة الدافعة الموجهة ، فليس غريبا أن نجد شبها كبيرا بين فتوح السند وفتوح ما وراء النهر ، لأن الأيدى المحركة والعقلية المدبرة واحدة • ومحمد بن القاسم فاتح السند،

لا يكاد يختلف فى كثير عن قتيبة بن مسلم ، كلاهما من اتباع الحجاج وأركان حربه الذين يأتمرون بأمره •

وثمة أمر آخر يقرب أوجه الشبه بين فتوح السند وغيرها من الفتوح التى تمت فى عهد بنى أمية على الخصوص ، وهو كون الفتوح مسبوقة بفترة طويلة من الغارات الثغرية الخاطفة بالتخطيط نفسه الذى رأيناه فى بلاد ما وراء النهر وبلاد المغرب والغارات الخاطفة التى لا تحفل بالنصر أو الهزيمة والذى يعنيها أن تتدرب على طبيعة البلاد وتكتسب مزيدا من المعرفة ومزيدا من الخبرة استعدادا للمعارك الحاسمة •

ثم تحولت هذه الغارات الثغرية الى فتح منظم بالكيفية نفسها وفى الوقت المناسب وتجسد هذا التحول على يد فاتح عربى أشبه بالفاتح العربى الذى تحول بالغارات الثغرية على بلاد ما وراء النهر الى فتح منظم •

الغارات الثغرية على اقليم السند : تعرضت امارة داهر فى السند لسلسلة من الغارات الثغرية منذ أيام عمر بن الخطاب حتى عهد الوليد بن عبد الملك • وهذه الغارات الثغرية وأساليبها وتفاصيلها تكاد ان تجعل معركة الهند أقرب شبها بمعركة افريقية والمغرب من حيث اشتراك العنصر البرى والبحرى معا فى عمليات عسكرية واحدة •

كانت الغارات الثغرية فى بلاد المغرب تجرى فى البر والبحر على حد سواء • وفى الوقت الذى كانت فيه الجيوش البرية تتوغل فى افريقية وتعدوها صوب الغرب ، كانت البحرية العربية تكتسب مزيدا من الخبرة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، استعدادا للتحول الذى شهده عصر عبد الملك ، والذى قاده حسان بن النعمان فى معركة قرطاجنة ، حين ركز العرب الهجوم على المدينة من البر والبحر على حد سواء •

كانت الغارات الثغرية على السند مجالها برى وبحرى ، حتى اذا تم التحول الى الفتح المنظم اشتركت القوتان معا فى احراز النصر •

وقد رأينا كيف ظهرت البحرية العربية فى معركة ايران فى عهد عمر بن الخطاب (١) وكيف اشتركت فى احراز النصر فى راشهر (خرمشهر) • وكيف أدى ذلك الى استيلاء العرب على جنوب ايران • وقلنا كيف كان ذلك تطورا هاما فى تاريخ البحرية الاسلامية فى المحيط الهندى وأن هذا كان بداية للظهور الاسلامى فى ميدان البحر •

والبحرية العربية لم تكد تفرغ من معركة ايران فى عهد عمر ، حتى بدأت تغير غارات ثغرية خاطفة على ثغر الديبل • ولا ندرى أكان ذلك تطلعا عربيا الى اقليم السند أم كان ردا على غارات مماثلة قامت بها بحرية الهند على سواحل ايران ؟

على كل حال اشتبكت البحرية العربية بقيادة المغيرة بن أبى العاص بالبحرية الهندية قبالة الديبل ، وأحرزت انتصارا كبيرا ترك أثرا فى ظهور هذه البحرية وفى نموها الأمر الذى جعل هذا النصر أشبه بنصر المسلمين فى معركة ذى الصوارى فى حوض البحر الأبيض • لم تكن غارات عهد عمر فتحا عربيا ، انما كانت غارات خاطفة تمهد لتطور كبير (٢)

ويبدو من رواية البلاذرى (٣) أن الغارات البحرية فترت نوعا ما فى عهد عثمان بن عفان رغم اهتمامه بتقصى أحوال السند • وأغلب الظن أن ذلك لم يكن كرها فى الاشتباك بقدر ما كان خوفا من مغبة الاشتباك مع بحرية كانت لا تزال قوية كبحرية الهند •

وعاود المسلمون الاشتباك البحرى فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقد قامت فى ثغر الديبل بوارج هندية على بعض السفن التجارية

---

(١) انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٨ • ولى عمر بن الخطاب عثمان بن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان سنة ١٥ هـ فوجه اخاه الحكم الى البحرين وأغار على تانة وبروص • كما وجه المغيرة بن أبى العاص الى خور الديبل •

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٨ •

(٣) البلاذرى ص ٤٤١ •

العربية وأسرت بعض النساء المسلمات . وقامت البحرية العربية تتعقب هذه السفن ، وأرسلت حملة بحرية الى ثغر الديبل بقيادة عبيد الله بن نبهان وبديل بن طهفه البجلى الذى قتل فى الميدان (١) ، لأن البحرية الهندية كانت لا تزال على شىء من القوة والقدرة على المناورة .

على كل حال خلص المسلمون فى عهد عبد الملك من هذه الغارات الثغرية بتجارب واسعة ودربة على النضال والمقاومة ، ومعرفة أساليب العدو وفنونه ، ومعرفة أوثق بأحوال المحيط الهندى ومسالكه . مظهر هذا كان تحول الغارات الثغرية البحرية الى هجوم بحرى سافر قوى ، على يد أمير البحر العربى محمد بن هارون (٢) ، كما تحولت الغارات البحرية الى زحف يقوده محمد بن القاسم .

ولم تكن الغارات الثغرية ميدانها البحر فقط ، انما كانت تجرى فى المجال البرى . فقد أصبحت منطقة مكران فى أقصى الحدود الشرقية لايران تؤدى الدور نفسه الذى أداه اقليم خراسان . أصبحت قاعدة كبرى تتجمع فيها المقاتلة والعناصر العربية المهاجرة ، وكانت هذه القاعدة تتهيأ عبر الأيام حتى بلغ الاستعداد قمته فى عهد الحجاج بن يوسف .

المهم أن هذه القاعدة أدت فى تاريخ السند الدور نفسه الذى أدته خراسان فى تاريخ ما وراء النهر . خرجت منها الحملات الخاطفة التى كانت تحرز نصرا سريعا ثم تعود فى سرعة خاطفة ، فهى أشبه بحملات سلم بن زياد وعبد الله بن خازم فيما وراء النهر أو عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى .. النصر لا يؤدى الى فتح دائم ، والهزيمة لا تثبط الهمة ولا توهن العزيمة . وكان العرب يستخرجون من النصر والهزيمة التجربة المفيدة .

واستمرت هذه الغارات البرية تتلاحق منذ أيام عثمان حتى آخر

---

(١) البلاذرى ص ٤٤١ .
(٢) البلاذرى ص ٤٤٢ .

عهد عبد الملك ، ونستطيع أن نستخرج الصورة الحقيقية لهذه الغارات ، مما ورد فى كتاب البلاذرى (١) • أولها تفكير فى الغزو فى عهد عثمان حينما طلب من عبد الله بن عامر بن كريز عامل العراق أن يوجه الى ثغر الهند • ثم محاولة أخرى فى عهد على بن أبى طالب آخر سنة ٣٨ هـ وأول سنة ٣٩ هـ ، حين قام الحارث بن مره العبدى بغارة ثغرية فظفر وأصاب مغنما وسبيا ، وقسم فى يوم واحد ألف رأس • وقتل ومن معه بأرض القيقان سنة ٤٠ هـ (٢) وهى أشبه بحملات عبد الله بن سعد فى برقة فى عهد عثمان •

ثم كانت غزوات المهلب بن أبى صفرة أيام معاوية سنة ٤٤ هـ ، فقد انحدر من ناحية كابل فقاتل وغزا (٣) • وهى أشبه بحملات عقبة بن نافع الفهرى فى المغرب الأقصى •

وفى هذا العهد نفسه أيضا كانت غارة عبد الله بن سوار العبدى الذى ولى ثغر السند • والبلاذرى يتحدث عن تحالف بين الهنود وبين الأتراك فى أيام المهلب • وكان هذا التحالف من وراء المقاومة العتيدة التى لقيها (٤) ، وتلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة بن المحبق الهذلى « فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها » (٥) •

والحملات الثغرية لم تكن تخرج من جنوب ايران فحسب انما كانت تغزو الهند من سجستان فى الشمال (٦) ، مثل غزوة عباد بن زياد ويظهر أن عهد زياد بن أبى سفيان ، هو عصر اشتداد الغارات الثغرية

---

(١) البلاذرى ص ٤٣٨ •
(٢) البلاذرى ص ٤٣٨ •
(٣) البلاذرى ص ٤٣٨ •
(٤) البلاذرى ص ٤٣٩ •
(٥) البلاذرى ص ٤٣٩ •
(٦) البلاذرى ص ٤٤٠ •

حقا ، فقد ولى المنذر بن الجارود العبدى ثغر الهند ثم عبيد بن زياد الباهلى • وظلت الحملات الثغرية مستمرة حتى عهد الحجاج بن يوسف ، وطوال أيام عبد الملك ؛ من هذه الحملات حملة سعيد بن أسلم بن زرعة ومجاعة ابن سعر التميمى • وتوالت المناورات الثغرية فى عهد الحجاج ، فقد ولى سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى مكران ثم ولى مجاعة بن سعر التميمى حتى اذا كان عهد الوليد كان التحول العظيم الى الفتح •

اذن التزمت تلك الغارات الثغرية الأسلوب نفسه الذى عرفته الحياة الاسلامية فالحارث بن مرة يشبه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، والمهلب ابن أبى صفرة يشبه عقبة بن نافع وسلم بن زياد ، وحملات الحجاج أشبه بحملات أبى المهاجر دينار فى المغرب •

وأسفرت الحملات العربية الأخرى خصوصا فى بلاد ما وراء النهر عن عزل الأتراك عن المعركة اذ لولا جهود عبد الله بن خازم وولده موسى لكان التحالف التركى الهندى خطرا فادحا على العرب فى اقليم السند ، كما ازداد العرب خبرة ومعرفة بأحوال الهند • وفى هذه الفترة تم تعرف العرب على قطاعات من الرأى العام سيكون لها أثرها فى معركة الفتح فقد وضحت جذور التحالف بين العرب وبين الهنود المعروفين بالجات (الزط) •

الفتوح المنظمة :

ثم قدر لهذه الغارات الثغرية على اقليم السند أن تتحول الى فتح منظم كما تحولت الغارات الثغرية فى مختلف ميادين التوسع الاسلامى • فقد اكتسبت الدولة العربية وحدتها الكاملة فى عهد الملك والوليد ، وبدا الحجاج بن يوسف فى هذا الميدان الشرقى وقد سيطر على زمام الأمور سيطرة كاملة ، واذا به يوجه القوات العربية الى غاياتها توجيه القائد الماهر • وكانت اجراءات تسليح قاعدة الزحف واعدادها للتحول الكبير قد تمت واكتملت • والمؤرخون يتحدثون عن ثغر مكران وعن اعداده

فى عهد الوليد بن عبد الملك ليصبح قاعدة للزحف العربى • تجمعت فيه القوات العربية المقاتلة من جند البصرة والكوفة ومن جند الشام وجمع العتاد ، وتكدست الأسلحة وحرص الحجاج على أن يهيىء للقوات العربية كل ما تحتاج اليه اذا بدأت عملياتها العسكرية (١) •

وقد صحب ذلك كله تطورا فى الاستراتيجية العربية فقد سلحت القوات الأموية بنوع جديد من المجانيق لم يعرفه العرب من قبل ، اذ يتحدث البلاذرى عن استخدام محمد بن القاسم لنوع منها يعمل فيه نحوا من خمسماية من الجنود فى وقت واحد (٢) • وهذا النوع من الأسلحة لم تعرفه الهند من قبل • وقد تسبب فى ايقاع الذعر فى القوات المدافعة عن ثغر الديبل •

وشمل هذا التطور الجانب البحرى ، واذا بالسفن العربية فى عصر الوليد تتسم بالجرأة والاقدام وتتخذ دور المبادأة بالهجوم • وليس معنى ذلك الا أن العرب قد استفادوا من حملاتهم البحرية السابقة ومن احتكاكهم ببحرية الهند • ولا يبعد أن يكون العرب قد أعدوا نوعا جديدا من السفن المقاتلة قادرة على السيطرة على المحيط الهندى ومواجهة أساطيل السند •

وهناك شبه بين هذا التطور فى ميدان المحيط الهندى وبين ما حدث فى غرب البحر الأبيض المتوسط وما كان من اشتراك البحرية العربية فى معركة قرطاجنة •

ومن مظاهر الاستعداد لحملة السند ما كان من استخدام الحكومة العربية لطوائف من الهنود تطلق عليهم المصادر العربية اسم الزط (الجات)

---

(١) البلاذرى : الفتوح ص ٤٢١ • جهز الحملة بكل ما احتاج اليه حتى الخيوط والمسال والقطن المحلوج المنقوع فى الخل •

(٢) يقول البلاذرى (ص ٤٤٢) ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسماية رجل •

وكانوا عدة العرب فى الفتح وكانوا من أشد الهنود اخلاصا للحكم العربى ومعاونة للعرب على احراز النصر • وقد تم الاتصال بين العرب وبين جماعات الجات فى مستهل خلافة عبد الملك بن مروان ، عندما هاجروا من الهند هربا من الأوضاع الاجتماعية السيئة التى فرضها البراهمة • وقد اتجهوا صوب الغرب • وكانت الدولة الأموية بصدد الاتجاه الى ميدان جديد من ميادين الانتاج الزراعى وهو اصلاح الأرض البور وزراعتها لحساب الدولة للحصول على مزيد من المال ، وعملت الدولة على ردم المستنقعات ، وأنفقت الأموال الكثيرة فى تلك السبيل • وقد عمل الحجاج ابن يوسف على توطين المهاجرة الهنود فى الأرض المستصلحة وامدادهم بالبذور والسائمة • وتوثقت عرا التحالف بين الجات والعرب حتى اذا كان فتح السند اشتركوا فى فرق المرتزقة (١) •

واكتملت هذه الاستعدادات كلها للفاتح محمد بن القاسم بن محمد الثقفى بن أخى الحجاج الذى اختير ليقود معركة السند ، كما اختير قتيبة ابن مسلم ليقود معركة ما وراء النهر • وقد عقد لمحمد بن القاسم على ثغر الهند وضم اليه ستة آلاف من خيرة جند الشام (٢) وانضم اليه مجندون من محاربى البصرة والكوفة وجهزت حملته بكل ما تحتاج اليه •

وكان التجمع لهذه الحرب يتم فى مدينة شيراز (٣) ، حتى اذا اكتمل الاستعداد أصدر الحجاج بن يوسف أمره بالتحرك صوب الجنوب، فدخلت قوات محمد بن القاسم ثغر مكران ، وفى أعقابها فرقة المطوعة والمرتزقة من قبائل الجات الهندية ، ثم كان الأمر بالتقدم صوب اقليم بلوخستان لدخول أرض الهند •

ويضفى البلاذرى تقديرا خاصا على الحجاج بن يوسف الذى كانت

---

(١) الساداتى جـ ١ ص ٥٦ •

(٢) Price, p. 99

له القيادة العليا ، وكان كل من محمد القاسم وقتيبة بن مسلم ينفذان ما يأمر به • وكان الحجاج عليما بأحوال البلاد ، مسيطرا على القوات العربية يحركها كما يشاء • وكان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة ، ويرسم الخطة ويصدر الأمر بالقتال • وكانت الرسائل ترد اليه فى مقر قيادته كل ثلاثة أيام تحمل أنباء القتال ، وبلغ من تدخله فى حملة السند أنه كان يوجه القادة العرب الى أفضل الطرق لاستخدام المجانيق الكبيرة التى سلحت بها القوات المهاجمة (١) • وفى الوقت نفسه كانت استعدادات مماثلة تجرى فى البحر ، كانت سفن أمير البحر محمد بن هارون تتجمع وتشحن بالرجال والأدوات •

وتركز الهجوم العربى على أول اهداف الحملة على ثغر الديبل الذى كانت تخرج منه سفن داهر على السفن العربية فى البحر • واشتركت القوات البرية والبحرية فى المعركة وفى احراز النصر • وظهر تفوق العرب فى العدد والعدة ، وعملت المجانيق عملها فى دك المدينة وهدم قلاعها • وضربت البحرية الحصار على الثغر • واستسلمت المدينة ، وأصبحت أول مدينة عربية فى السند ، اذ جعلها محمد بن القاسم أول الخطط العربية فى البلاد • اذ أنزل بها أربعة آلاف من العرب ، وبنى بها المسجد الجامع ودار الامارة (٢) • وأصبحت الديبل قاعدة بحرية للمسلمين فى المحيط الهندى ، كما كانت قاعدة العمال ومقر الحكومة •

ويتبين مما ساقه البلاذرى من أحداث ما بعد الديبل أن أمير السند داهرا لم ينسحب من الديبل انسحاب المهزوم ، انما توغل نحو الداخل ليختار مكانا للبقاء يتيح له مزيدا من المقاومة ، لم يقف محمد بن القاسم بعد الديبل بل أخذ يتقدم صوب الداخل •

وصدقت ظنون العرب فى الجبهة الداخلية فبدأت قطاعات من السكان

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٢ •

(٢) البلاذرى ص ٤٤٣ • يذكر البلاذرى البلاد التى استولى عليها محمد بن القاسم قبل الديبل ومنها فنزبور وارمائيل Price, p. 99

تؤيد العرب وتستجيب لهم وتوفر لهم المؤن ، وهذا أشبه باعتماد العرب على طبقة الدهاقين فيما وراء النهر • ويبدو من النزر اليسير من الأخبار التى ذكرها البلاذرى أن عقودا للصلح عقدت ، ولا بد أن مدنا استسلمت بموجب هذه العقود ، كما أشار البلاذرى الى فرض الخراج والجزية ، الأمر الذى يدل على أن هذه البلاد فتحت صلحا بموجب اتفاقيات عقدت •

وتقدم محمد بن القاسم على الضفة اليمنى لنهر السند بحثا عن قوات العدو الرئيسية • ولكنه تبين أن داهرا اختار مكانا للقاء فى موضع يقع شرق مصب السند مباشرة معتقدا أن النهر قد يعوق العرب عن العبور ، أو قد يؤخر عمليات الزحف ويتيح له مزيدا من المقاومة • وقد عبر محمد بن القاسم النهر على جسر من الزوارق • وفوجىء داهر فى مكانه فارتد الى حصن روار حيث كان أول لقاء بين العرب وبين مقاتلة الهندوس الذين تمرسوا على استخدام الفيلة والرمى بالنبال واستخدام النفط (١)• ونشبت معركة من المعارك الفاصلة ، يقول البلاذرى : « ولقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله ، وترجل داهر وقاتل وقتل عند المساء وانهزم المشركون فقتلهم المسلمون كيف شاءوا » (٢) • ولا يقل هذا النصر البرى عن النصر الذى أحرزه العرب عند الديبل • وتكاد أنباء القتال فى السند بعد ذلك أن تكون استسلاما بعد ذلك القتال العنيف ، وبعد مصرع داهرا • فقد تقدمت القوات العربية صوب الشمال فدخلت العاصمة برهمناباد العتيقة (٣) • وقد قاومت مقاومة عنيدة لأنها لم تفتح صلحا ، انما فتحت عنوة • وكانت خسائر الأرواح لم يسمع بمثلها من قبل• ويذكر البلاذرى أن قتلاها بلغوا ثمانية آلاف • ورغم هذه المبالغة فان الدلالة لا تخفى (٤)•

---

(١) Lance-Poole : Medieval India, p. 5

(٢) البلاذرى ص ٤٤٤ •

(٣) البلاذرى ص ٤٤٤ •

(٤) المصدر والصفحة نفساهما •

وواصل العرب تقدمهم صوب الشمال يكتسحون المدن التى تقع فى سبيلهم • ويبدو أن أغلب المدن الواقعة فى الطريق قد فتحت صلحا على الشروط العربية المعروفة ؛ فقد استولى محمد بن القاسم على مدينة الرور عاصمة امارة السند البرهمية • وكان ابن داهر قد تحصن فيها من جديد ليبذل جهدا أخيرا فى المقاومة ولكنه هزم • وعبر العرب نهر بياس رافد السند ، وحاصروا الملتان أعظم مدن السند الأعلى (١) • وكانت مدينة الملتان ليست مجرد مدينة عادية من مدن الاقليم ، انما كانت أشبه بعاصمة دينية كبيرة ، تركزت فيها المعابد الشهيرة ، وكان الناس يحجون اليها « وكان بد الملتان بدا تهدى اليه الأموال وتنذر له النذور ويحج اليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ••• » (٢) • والملتان لم تفتح صلحا ، انما فتحت عنوة • وكانت مقاومتها عنيدة ، مقاومة البوذية المتمسكة بأمجادها وتقاليدها ، لأن محمد بن القاسم قتل المقاتلة وسبى الذرية ، وصادر الأموال ، وهى معاملة المدن التى تفتح عنوة • وأصاب العرب فى الملتان مغانم تقرب مما أصابوه فى مدائن كسرى • يتحدث البلاذرى عن الذهب الذى أصابوه ، والذى قدمه الحجاج بنحو مائة وعشرين مليونا من الدراهم (٣) •

واتخذ الأمويون اجراء كان له صدى كبير فى البلاد بأسرها ، اذ اعتبر البوذيون أهل ذمة لهم ما لأهل الذمة من الحقوق والواجبات « وما البد الا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس » (٤) • وقد أصبح وادى السند بأسره فى قبضة الفاتح العربى وجاءت القبائل « تقرع الأجراس وتدق الطبول هاتفة مرحبة » فقد استبد بهم الهندوس

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٥ •

(٢) البلاذرى ص ٤٤٥ •

(٣) البلاذرى ص ٤٤٥ •

(٤) البلاذرى ص ٤٤٤ •

واستنزفوا دماءهم • وكان على رأس هؤلاء المرحبين الميد والجـات الذين أمنوا على أنفسهم وأموالهم (١) •

وكان الفتح العربى بعد ذلك يتجه اتجاها طبيعيا صوب الغرب بقصد السيطرة على شمال الهند كله باخضاع الامارة الأخرى امارة قنوج• وكان فى استطاعة العرب فى تلك الأيام أن ينالوا من قنوج ، كما نالوا من السند وهم مندفعـــون فى فورة النصر والحماسـة • وقد اســتقامت لهم الأمور وأيدتهم قطاعات من الرأى العام وثبتت أقدامهم فى البر والبحر على حد سواء • وكان محمد بن القاسم قد بيت النية لمهاجمة امارة قنوج ، لولا انه حدث فى السند مثل ما حدث فى العالم العربى فى الوقت نفســه ، مثل ما حدث لقتيبة بن مسلم وموسى بن نصـير حين آلت الخـلافة الى سليمان الذى كان حريصا على أن يسىء الى الحجاج ، فقد استدعى محمد بن القاسم من السند وولى غيره وحمل مقيدا فى الأصفاد •

تثبيت الفتـوح :

واذا كان الأمويون قد كسـبوا معـركة السـند فى عهد الوليد بن عبد الملك فانهم ما لبثوا أن خاضوا معركة تأمين هذه المكاسب وتثبيتها • واضطروا الى القضاء على ثورات الأمراء الهنود بعد عزل محمد بن القاسم ومصرعه ، فقـد اسـتطاع ابن ملك السـند أن يدخـل العاصـمة وأن يستردها (٢) واضطر الأمويون الى معاودة القتال فى عهد ولاة السند أمثال يزيد بن أبى كبشة وسليمان بن عبد الملك بن حبيب وحبيب بن المهلب (٣)

وظلت هذه الفتن متلاحقة ، والأمويون لا يكفون عن القضاء عليها حتى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى أراد أن يهدىء من الفتنـة ، وأن يدعو الهنود الى الاسلام • فكتب الى الملوك يدعوهم الى الاسـلام ، فاذا

---

(١) Lane-Poole : Medieval India p. 6

(٢) البلاذرى ص ٤٤٦ •

(٣) البلاذرى ص ٤٤٦ •

ضمن اسلامهم وولاءهم احتفظوا بسلطانهم كاملا « ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » • ويشير البلاذرى الى أن قوما كثيرين استجابوا لنداء الخليفة عمر ودخلوا فى الاسلام • واستشعرت ولاية السند مزيدا من الاستقرار فتمكن عاملها عمرو بن مسلم الباهلى من أن يعاود الغزو •

ولم يكف الأمويون عن الاهتمام بولاية السند واقرار الأمور فيها وحل مشاكلها فى عهد الجنيد بن عبد الرحمن المرى ، الذى ولى السند من قبل هشام بن عبد الملك • وقد واجه الجنيد تمرد بعض ممن كانوا قد استأمنوا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، فقد تمرد ابن داهر بعد ان كان قد استقام على الطاعة • وقد حارب الجنيد وهزمه وتصدى بالحرب لكل من نقض العهد والميثاق • وبدا سلطان العرب قويا فى عهد الجنيد ، فقد أرسل العمال الى مدن مرمد والمندل ودهنج وبروص وازين وكجرات ومالوة ، وحاول خليفة تميم أن يغزو الدكن (١) ، وبهر يمد والبيلمان والجزر • وأدرك الأمويون أن كسب معركة التثبيت لن يكون الا بانشاء القواعد العربية لتكون مراكز لتجمع العنصر العربى ، وقلاعا حصينة تحمى المكاسب التى أحرزوها • ومن أجل هذا أنشئت مدينة المحفوظة والمنصورة • ولعل هذه الحصون التى شيدها العرب هى التى مكنت ولاة العصر الأموى الأخير من المحافظة على النفوذ العربى فى السند حتى قيام الدولة العباسية (٢) •

ولم يكن العصر العباسى عصر تجميد للفتوح على نحو ما يذهب بعض الدارسين • فقد اندفع العباسيون فى تيار الفتح قوة الأمويين نفسها ويكفى أن نشير الى ما أحرزوا من نصر فى بلاد ما وراء النهر ، ومن هزيمتهم للصين وقضائهم على تدخلها فى شئون ما وراء النهر • ولما استقام الأمر للدولة العباسية كانت أحرص ما تكون على أن يمتد سلطانها على ولاية

---

(١) Panikar p. 112

(٢) Ibid, p. 112

السند ، فقد اضطربت أمورها آخر أيام بنى أمية • ويبدو أن أمور السند كانت فى عهد ابى العباس السفاح قد وكلت الى ابى مسلم أمير خراسان فهو الذى ولى العمال ، وبعثهم للقضاء على منصور بن جمهور الكلبى • فبعث مغلسا العبدى لاستعادة النفوذ بالسند ، ولكنه هزم ، ثم اتبعه بموسى ابن كعب التميمى الذى هزم منصورا وثبت اقدام العباسيين فى البلاد • وشرع العباسيون يزيلون أسباب الفتنة حتى هدأت الأحوال وأعيد تحصين مدينة المنصورة وزيد فى مسجدها الجامع • ويبدو أن موسى بن كعب بعد أن اطمأن لاستتباب الأمور بدأ يتوسع من النقطة نفسها التى وقف عندها محمد بن القاسم من قبل •

وبلغ النشاط العباسى الذروة فى عهد المنصور عهد تحقيق النمط المركزى للخلافة العباسية : ففى الوقت نفسه الذى كانت فيه قواته تثبت النفوذ العباسى فى المغرب وما وراء النهر ، اذا به يفعل الشىء نفسه فى السند • وبلغ هذا النشاط الذروة فى ولاية هشام بن عمرو التغلبى الذى عاود الجهاد فى البر والبحر • واستغل نشاط البحرية العباسية فى بحر العرب والمحيط الهندى فبعث عمرو بن جميل يقود الأسطول الى نارند واستعاد الملتان من بعض القبائل العربية المتغلبة بل طردهم منها • كما وجه الأسطول الى القندهار ، وأسفر هجوم الأسطول عن تدمير معبدها البوذى • ويبدو أن الوالى العباسى من قبل المنصور لم يكتف بتهدئة الفتنة فى ولاية السند واقرار النفوذ العباسى بها ، انما بدأ يناوش امارة قنوج ليخط للغزو العربى طريقا صوب الشرق • وقد احرز بعض النجاح اذ يشير البلاذرى الى فتح قشمير بقوله « وأخصبت البلاد فى ولايته فتبركوا به ودوخ الثغر وأحكم أموره » (١) •

وكانت هذه الجهود من العمق بحيث استقامت أمور السند فى عهد عمر بن حفص بن عثمان هزارمرد وداود بن يزيد بن حاتم • واستمرت

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٩ •

معركة المسلمين مع الامارات الشرقية فى عهد الخليفة المأمون وعهد عامله موسى بن يحيى بن خالد فواصل الجهاد فى الشرق وقاتل الامارات الشرقية « فقتل باله ملك الشرق وقد بذل له خمسمائة ألف درهم على أن يستبقيه » •

وكان باله هذا القوى على غسان بن عباد وكتب اليه فى حضور عسكره فيمن حضره من الملوك فأبى ذلك (١) • وعاود الاستقرار اقليم السند مرة أخرى حتى توفى موسى سنة ٢٢١ هـ وخلفه ولده عمران بن موسى • وأقره المعتصم على ولاية السند • وقد بذل نشاطا يماثل ما بذل أبوه • فقد ثار الجات بمدينة القيقان فقاتلهم حتى هزمهم (٢) •

وتابع العباسيون فى عهد المعتصم سياسة انشاء المدن ، وبناء القواعد الحصينة ، فأمر عمران بن موسى ببناء مدينة البيضاء وأسكنها الجند • ويبدو أن مدينة المنصورة قد خرج بها بعض الثوار من العرب فدخلها عمران بن موسى كما دخل قندابيل وقضى على محمد بن الخليل الذى كان قد أعلن الثورة بها • ولا ندرى لماذا بدأ الميد والجات يثورون على العباسيين فى ذلك الوقت • أكان ذلك لتنكر الولاة العباسيين لشروط المصالحة الأولى التى وضحت فى عهد محمد بن القاسم ؟ • يشير البلاذرى الى غزو عمران بن موسى قبائل الميد وقد قتل منهم ثلاثة آلاف ثم عسكر عند مدينة الرور وجبى الجزية من الجات • ويبدو أنهم كانوا قد كفوا عن دفعها وأنهم كانوا على دينهم القديم • وقد صالح الجات مرة أخرى واستخدمهم فى حروب الميد •

وفى الحق ان دور العباسيين فى معركة تثبيت الفتح بلغ الذروة من حيث القوة والوضوح فى عهد المأمون والمعتصم •

ولم يكن دور العباسيين فى معركة تثبيت الفتح مقصورا على ذلك

---

(١) البلاذرى ص ٤٥٠ •

(٢) Panikar, p. 112

النشاط البرى ، فقد لعبوا فى ميدان البحر دورا مشابها اذ تابعوا الجهود التى بذلها الأمويون • وكانت معركة الدبيل فى العهد الأموى بداية التفوق البحرى الاسلامى فى المحيط الهندى وجنوب شرق آسيا وبحار الصين •

وعمد العباسيون الى المحافظة على السيادة البحرية فى المحيط الهندى • وكانت سياستهم تتجه الى الحصول على مزيد من القواعد البحرية على طول الساحل الغربى للهند • ويشير البلاذرى الى اشتباكاتهم المتواصلة مع شعوب الهند المطلة على المحيط الهندى ، فهو يتحدث عن أمير البحر عمرو بن جميل الذى قاد البوارج العربية الى موضع على الساحل يدعى نارند • وعاود الأسطول العربى التقدم على طول الساحل الهندى منحدرا الى الجنوب فى عهد الخليفة المأمون ، فقد سار أمير البحر محمد ابن الفضل بن ماهان فى سبعين بارجة لمحاربة القبائل الهندية المسيطرة على المناطق الساحلية •

ثم غلبت على السند الظروف نفسها التى غلبت على العالم الاسلامى كله بعد الواثق من ضعف الخلافة وسيطرة الجند الأتراك • وفقدت الخلافة ما كان لها من نفوذ وسلطان ووقعت الحروب بين النزارية واليمانية • ولم يبق على السند فى يد المسلمين غير ضعف امارة قنوج وعجزها عن الحركة استغلالا لظروف الخلافة العباسية المضطربة •

الفصل الثالث
انتشار الاسلام فى السند والملتان

نعتقد أن سنة **٣٩١** هـ من السنوات الهامة فى تاريخ الاسلام فى الهند ، ففيها بدأت فتوح محمود بن سبكتكين لتتم الجهود التى بذلها المسلمون من أيام محمد بن القاسم حتى هذا الوقت • فقد استطاع محمود فى نحو ستة وعشرين سنة أن يخضع امارة قنوج ، وأن ينشر الاسلام فى شمال الهند كله ، وهو الأمل الذى كان يتطلع الى تحقيقه الجيل الأول من الفاتحين العرب • ونعتقد كذلك أن فى ذلك الوقت كانت الحركة الاسلامية فى السند والملتان قد قاربت الاكتمال ، وغلب الاسلام على البلاد وشاركت الأقطار الاسلامية الأخرى سنة التطور فشهدت الحركات الاستقلالية وقيام الامارات وهى الظاهرة التى عرفتها الحياة الاسلامية منذ القرن الثالث الهجرى فصاعدا •

معنى هذا ان دراستنا لانتشار الاسلام فى السند تقع بين بداية ونهاية؛ البداية هى بداية التوسع العربى الذى استهله محمد بن القاسم ، والنهاية هى سنة **٣٩١** هـ بداية فتوح محمود بن سبكتكين فى بلاد السند •

وسنلتزم فى هذه الدراسة بالخطة نفسها التى التزمناها فى البلاد الأخرى أعنى دراسة العوامل والأسباب التى ساعدت على نجاح الحركة الاسلامية ، ثم مظاهر هذه الحركة وامكانية الوقوف على تفاصيلها ، ثم النتائج التى حققتها فى النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية •

وفى دراستنا لعوامل نجاح الحركة الاسلامية فى الهند سنحاول أن نبين أوجه الشبه أو الاختلاف بين عوامل انتشار الاسلام فى الأمصار

الأخرى ، خصوصا فى ايران وما وراء النهر ، محاولين أن نكشف عن الانطباعة التى تركتها بيئة الهند وتركها تراث الهنود . وأهم العوامل وأقواها ما يمكن أن نسميه بسياسة الدولة الاسلامية فى حكم الهند ومدى حرص الدولة العربية على المطابقة بين المثالية والواقع والامانة فى تطبيق هذه السياسة تطبيقا صحيحا .

وفى مقدمة هذه السياسة موقف العرب من موضوع أهل الذمة ، وقد سبق أن أشرت الى أهمية هذا الموضوع لفهم التفكير العربى فى بناء الدولة فهى دولة لا تقوم على أساس عنصر سيد وعنصر مسود ، انما تقوم على أساس تعاون وتعايش سلمى بين جماعات المؤمنين وجماعات المعاهدين الذين ارتبطوا بالدولة العربية بعهود ومواثيق ، وهذه العهود والمواثيق تنظم صورة هذا التعاون وشكله وترتب الحقوق والواجبات وتنظم موضوع التسامح الدينى واحترام حرية العقيدة وحرمة بيوت العبادة وحماية رجال الدين وتمكينهم من اقامة شعائرهم فى حرية وطمأنينة وتنظيم أمر الدفاع عن البلاد ، وفرض الجزية على المتعاونين مع العرب الداخلين فى طاعتهم . وتحديد قدر الجزية وكيفية جبايتها ومواعيد هذه الجباية وتنظيم الخراج وما يتضمنه من حيازة للأرض أو ملكيتها . وهو أمر كان يشعر الشعوب الداخلة فى طاعة العرب بأنها تشارك فى الحياة العربية الاسلامية مشاركة فعالة فى الحدود المرسومة ، وهى لا تنزلهم الى مرتبة العبيد ، انما ترفعهم الى مرتبة الأخوة وتدنيهم من جماعات المؤمنين ، فاذا اختاروا الاسلام طواعية واختيارا وانضموا الى جماعة المؤمنين ، كانت لهم الحقوق والواجبات نفسها .

والعرب بهذا الأسلوب فى تنظيم الدولة أحدثوا ثورة بعيدة المدى فى الأفكار السياسية المعاصرة ، وقضوا على الأنماط القديمة الجامدة التى كانت تقوم على أساس الامتياز العنصرى أو الامتياز الدينى .

ولسنا بحاجة الى أن نذكر أن هذه السياسة كانت لها نتائج

تحـريرية بعيـدة المـدى ، تحـرير ملايين النـاس فى الشرقين الأدنى والأوسط ، وفتح آفاق التعـاون والتقريب النفسى بين العـرب وبين هذه الشعوب فى كل ناحية ، فى الحياة الاجتماعية وفى وظائف الحكومة وفى عملية الانتاج الحضارى بمظاهرها المختلفة .

وقد شـهدنا ألوانا من تطبيق نظام المعـاهدين هذا فى ايران أو فى ما وراء النهـر . ونريد أن نبين مدى تطبيق هذا النظام فى اقليم السـند والملتان على قلة المادة وندرتها مبينين أثر ذلك فى دفع الحركة الاسلامية.

واضح مما ذكره المؤرخون أن الأمويين ابان فتح السند فى عهـد محمد بن القاسم قد ارتفعوا بالبوذية الى مصاف أهل الكتاب ، كما ارتفعوا بالزرادشتية فى ايران الى المسـتوى نفسـه ، فقضى بأن ينضم جمـاعات البوذيين الى الدولة العربية ، وأن يتخذوا وضعية المعاهدين وأن يظفروا بالحقوق نفسها ويؤدوا الواجبات نفسها (١) .

نلمح هذه المعاملة الجديدة فى أعمال محمد بن القاسم وتصرفاته فى بلاد السند وفى الاشـارات الغامضـة التى ترد فى البلاذرى عن مصالحة المدن .

والمصالحة هذه معناها أن المدن المذكورة فتحت صلحا بمقتضى مانعرفه من قواعد وتشير الى رءوس الموضوعات التى تشـير اليها عقـود الصلح فى أى بلد آخر .

ويشير البلاذرى الى أهل مدينة بيرون (٢) والى مصالحة محمد بن القاسم اياهم واعطائهم العرب العلوفة ، والى ادخالهم المدينـة ، والى وفاء أهل المدينة بعقود الصلح ، والى ما يترتب على هذا كله من فرض الجزية أو الخراج .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٤ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٣ .

ويسترسل البلاذرى (١) فى حصر أسماء المواضع الصالحة فيشير الى سدوسان (٢) والى طلب أهلها الأمان والصلح ، والى فرض الخراج ، والى أهل ساوندرى (٣) الذين سألوا الامان فأجيبوا طبقا للتقاليد والى مدائن الرور فى السند التى فتحت صلحا ونالت حرية العقيدة .

وهكذا يمضى البلاذرى معددا هذه المدن التى دخلت فى الطاعة (٤)، ومعنى هذا أن السياسة نفسها التى طبقها العرب فى ايران طبقت فى بلاد السند والملتان مع المظاهر والنتائج نفسها ، فظفرت معابد البوذيين بالحرية الدينية كاملة ، وكان هذا موضع دهشة البراهمة (٥) . وفرضت الجزية بحدودها الشرعية على طبقات المعاهدين مع الاعفاءات التى عرفتها النظم العربية . وشمل هذا التسامح الدينى الناس على اختلاف طبقاتهم ، لم يشمل البراهمة فحسب انما شمل المنبوذين كذلك الذين استردوا حرياتهم الدينية الى أبعد الحدود .

وتقضى هذه العهود باقرار المبدأ الاسلامى وهو مبدأ الحيازة لفلاحى الأرض الأصليين بعد القضاء على الاقطاعية والأسرات الحاكمة مقابل فرض الخراج ، وطبق هذا المبدأ على الهنود كلهم مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية، وشعر المنبوذون للمرة الأولى بنعمة حقوق الانسان .

فكأن هذه السياسة العربية فى الحقيقة قد أعطت حق الحياة لطبقات من الشعب ، كانت قد فقدت حق الحياة ، وبدأت تهاجر من السند الى ايران لتقيم فيها بعيدا عن العبودية والأسر . وهذا قد يتبين مما يذكره المؤرخون من انضمام جماهير المنبوذين فى السند الى الحكومة العربية وتأييدهم لمحمد بن القاسم ، وخصوصا جماعات الجات الذين أيدوا الحكم

---

(١) صالحه سمينة سر يبدس ـ كذلك سهبان . البلاذرى ص ٤٤٣ .

(٢) البلاذرى ص ٤٤٣ .

(٣) البلاذرى ص ٤٤٤ .

(٤) الرور وبغرور وبسمد البلاذرى ٤٤٥ .

(٥) مادة سنة : دائرة المعارف الاسلامية .

العربى تأييدا كاملا ، ودفعت هذه المعاملة فئات من الأرستقراطية الى تأييد الحكم العربى (١) • واذا كانت التقاليد الاسلامية تمنح هذه الحقوق لجماعات المعاهدين فما بالها لو انتقلت الى جماعات المؤمنين •

قد لا تكون هذه السياسة حافزا مباشرا على الدخول فى الاسلام ويكفى انها أسقطت الحواجز بين هذه الشعوب وبين الحكم العربى وأتاحت لها أن تدخل فى الاسلام دخولا شاملا •

واصبح أهل السند بعد ظفرهم بهذه الحقوق أشد حرصا على عدم التفريط فيها • ولعل هذا يفسر بعض الثورات التى انتشرت فى الهند بعد وفاة سليمان بن عبدالملك (٢) فقد كان غرضها الحفاظ على العهود والمواثيق، وهى أشبه بالثورات التى انتشرت فى ايران فى عهد الحجاج بن يوسف• والحق أن الدولة العربية لم تتنكر لهذه السياسة أبدا طوال العصر الأموى والعباسى حتى أدت رسالتها ونقلت غالبية أهل السند والملتان الى الاسلام•

ومن هذه السياسة العربية ذات الأثر النفسى البعيد الأثر ما أشرنا اليه من المحافظة على النظم الادارية القديمة ، واستخدام جماعات المعاهدين فى وظائف الدولة ، واعتقد ان الحكم العربى فى السند لم يخرج عن هذا التقليد وان كانت المصادر العربية لا تشير الى هذا من قريب أو بعيد (٣)• هل كانت دواوين الدولة تكتب بلغة الهند القديمة ؟ ، هل شمل التعريب دواوين الهند فى مرحلة معينة كما تم فى جميع البلاد الاسلامية ؟••• أغلب الظن أن هذا قد حدث وان كانت الوثائق تعوزنا •

وأغلب الظن أيضا أن الحكام العرب أبقوا على طبقات الموظفين كما هى دون تغيير ، وقد تضمنت عقود الصلح التى أشار اليها البلاذرى تأمين بعض الحكام على ما بيدهم من سلطات اقليمية ، واعتقد أن الطبقات

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٢ ــ ٤٤٣ ــ ارنولد : الدعوة الاسلامية ص ٣٠٦ •
(٢) البلاذرى ص ٤١٦ •
(٣) البلاذرى ص ٤٤٧ •

البيروقراطية فى الهند قد استجابت للاسلام على نحو ما استجابت فى ايران وما وراء النهر ، وقد أسلم بعضهم واتخذ ألقابا عربية كما فعل الايرانيون تماما (١) •

ونضيف الى هذه السياسة العربية عمل الحكومة على تطبيق التشريع الاسلامى فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية من قضاء على الطبقية التى تأصلت فى حياة الهند كما تأصلت فى حياة ايران ، وان كنا نعتقد أن هذه الناحية أبلغ أثرا فى حياة أهل السند منها فى حياة أهل ايران ، لأن جماعات العمال المدنيين فى ايران لم تكن فى مثل هذا المستوى الاجتماعى والاقتصادى المنخفض الذى عانت منه جماعات المنبوذين •

وقد كان لهذه الناحية من تقاليد العرب أثرها الكبير فى انحياز الكتل البشرية المضيعة فى حياة الهند الى الحكم العربى انحيازا واضحا ، فقد تحرر المنبوذون اقتصاديا واجتماعيا ودينيا ، وازداد تحررهم بالدخول فى الاسلام وتحولهم الى جماعات المؤمنين وفتحت أمامهم الحياة الاسلامية واسعة الأبواب •

وبالاضافة الى هذه السياسة العربية فقد لعبت هجرات العرب الى الهند فى أعقاب الفتح مباشرة الدور الذى لعبته فى الأمصار كلها من حيث أثرهم فى نشر العروبة والاسلام ، اذ تدفقت الهجرات العربية الى السند فى اعقاب الفتح مباشرة ، هاجرت الجماعات نفسها التى عرفتها الهجرات العربية فى كل قطر ، فقد هاجر القحطانية والعدنانية على حد سواء وان كانت القحطانية أكثر عددا وأوسع انتشارا •

انتشر العرب فوق رقعة السند انتشارا فسيح الرقعة وصلت البطون المهاجرة شرقا الى الملتان والقندهار ، وأطلت امارة قنوج فى أقصى شرق الهند ، ومضت جنوبا حتى حدود السند الجنوبية ولم تبق ناحية فى السند والملتان الا دخلتها الهجرات •

---

(١) البلاذرى : الفتوح ص ٤٤٧ •

وقد نهجت الحكومة العربية النهج نفسه الذى سارت عليه فى كل الأمصار الاسلامية من بناء الحواضر واختطاط الخطط لتكون أساسا أماكن لتجمع العنصر العربى المحارب والمستقر معا • بل كانت هذه السياسة أشد وضوحا فى السند منها فى ايران نفسها ، فخطط العرب فى ايران لم تتجاوز اقليم العراق ولم نسمع بخطة عربية فى بلاد ما وراء النهر على حين أكثر العرب من هذه الخطط فى السند فى العصرين الأموى والعباسى على حد سواء • فمحمد بن القاسم ما كاد يستولى على الدبيل حتى انزل بها أربعة آلاف من العرب فأصبحت ثغرا عربيا وتكاثر سكانها بمضى الوقت •

وكذلك نشأت مدينة المحفوظة التى بنيت فى عهد هشام بن عبدالملك لتكون مأوى للعرب وقاعدة عسكرية فى اقليم السند (١) •

ثم بنيت المنصورة فى موضع بقرب من حيدر آباد الحالية لتؤدى الدور نفسه واستمرت سياسة الاسكان حتى عصر المعتصم العباسى ببناء مدينة البيضاء ، ولم يقتصر نزول العنصر العربى على هذه الخطط الجديدة انما انتشروا فى المدن القديمة التى صالحت العرب •

والعرب اما فى مدنهم الجديدة أو مدنهم القديمة التى سكنوها كان لهم دورهم الواضح فى الحياة الاسلامية فى السند ؛ ومن عجيب الأمر أن نرى دورهم أشد وضوحا فى السند منه فى ايران ، فقد استمر العنصر العربى يباشر نشاطه فى السند زمنا أطول منه فى أى بلد آخر •

لم تقتصر ثورات العرب ونزواتهم فى السند على العصر الأموى الذى شهد آثارا دامية للنزاع بين القحطانية والعدنانية ، بل استمرت حركات العرب فى السند أيام المهدى ، وهى تتمشى مع ثورات العرب فى كل مكان فى العالم الاسلامى لفقدانهم نفوذهم فى الحكومة العربية ، وبلغت هذه الثورات أشدها فى عهد داود بن يزيد بن حكم المهلبى سنة

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٩ •

١٨٤ هـ (١) • واذا بالقبائل العربية تطلب تقسيم البلاد الى ولايات ثلاث قسم لقريش ، وثان لربيعة ، وثالث لقيس • ولم يتمكن الوالى العربى من كبح جماح هذه القبائل الا بعد ان استعان بعساكر الخليفة الذين قدموا من بغداد وحاصروا المنصورة عاصمة السند عشرين يوما (٢) •

وظهر التيار العربى قويا أيضا فى ولاية موسى بن يحيى البرمكى واضطر الى مصالحة زعماء العرب هناك ليضمن ولاءهم (٣) ، وعاود العرب الظهور فى عهد خلافة المتوكل سنة ٢٤٠ هـ حينما حاولت بطون من العرب أن تستقل ببعض جهات من السند (٤) •

على كل حال فقد خضع العرب فى السند للظواهر الاجتماعية التى خضعوا لها فى جميع البلاد من أثر التوليد فيهم والاختلاط بالعناصر الوطنية ومن تأثرهم بالتقاليد السندية الصميمة • وقد اختفى العرب من الحياة السياسية فى السند بالوسيلة نفسها التى اختفوا بها من الحياة الاسلامية كلها ، وان كانت مقاومتهم فى السند قد طالت أكثر من مقاومتهم فى البلاد الأخرى ، فقد ظل العرب يفرضون وجودهم حتى مستهل القرن الرابع الهجرى (٥) ثم فنيت دماؤهم فى دماء أهل السند وأدوا دورهم المرسوم فى انتشار الاسلام •

وفى امكاننا أن نضع فى الاعتبار عاملا آخر من العوامل المؤثرة فى الحركة الاسلامية فى السند ونعنى به الهجرات الثقافية والفكرية • ذلك أن التوسع الاسلامى بمظاهره العسكرية والبشرية اقترن بتوسع ثقافى وبحركة تعليمية كبرى نابعة من الحرص على نشر الاسلام ، وهدفها التبصير بالعقيدة وفهم أسرار اللغة والفقه والحديث •

---

(١) البلاذرى ص ٤٥٠ •
(٢) الساداتى ج ١ ص ٧٣ •
(٣) البلاذرى ص ٤٥٠ •
(٤) الساداتى ج ١ ص ٧٤
(٥) المسعودى : المروج ج ١ ص ٣٧٦ – ٣٧٩ •

والمستقرات العربية التى أشرنا اليهـا ليست ذات وجه اجتمـاعى فحسب فلم تكن مجرد أماكن للاسكان فقط ، انما كانت جذورا لمدارس عربية تؤدى دورها المرسوم • لهذا يجب أن نقدر الدور الذى أدته هذه المدارس العربية فى السند بدراسـة النتائج التى تركتها وذلك بدراسـة كتب الطبقات المعروفة للمشتغلين بالعلم من الهنود •

وليس من شك فى أن انتشار الاسلام على نطاق واسع كان نتيجة لحركة علمية تبشيرية بعيدة الأثر تغلغلت فى حياة الناس • وكان من أثر ذلك ليس مجرد تعلم أهل السند اللغة العربية أو دخولهم فى الاسـلام انما اشتغالهم بالثقافة العربية على مستواها الرفيع ، أو بمعنى آخر توطن الثقافة العربية فى السند •

ونلمح فى كتب الطبقات (١) بوادر نبوغ بين المثقفين الهنود فى آفاق الثقافة العربية ، فقد ظهر علماء فى الحديث واللغة والأدب مثل أبى معشر نجيح السندى المحدث صاحب المغازى وابن الاعرابى اللغوى استاذ ثعلب وابن السكيت وابى العطاء السندى المخضرم الشاعر ، ثم أبو على السندى وأبو اليزيد طيفور بن عيسى البسطامى المتصوف •

أدت الثقافة العربية دورها المرسوم فى تاريخ السـند ، فقد أعادت الاتصال الثقافى بين شبه القـارة الهندية وبين الشرق الأدنى ، بل أظلت وحدة فكرية عجيبة طوائف الناس من حـدود الهند شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا •

وانتقلت الى بلاد السند ـ باعتبارها مصرا اسلاميا ـ الهجرات الفكرية واقصد نشاط الفرق الاسلامية والمذاهب الاسلامية ، فقد دخلت الى السند فى أعقاب الفتح الأموى دعوة الخوارج ، ولعب الثائر منصور بن جمهور

---

(١) ابن النديم : الفهرست •

دورا كبير فى آخر العصر الأموى (١) وظل على هذا النشاط حتى قضى العباسيون عليه ووضع الخوارج فى السند الجذور الراسخة •

ودخلت الدعوة العلوية بلاد السند فى حكم الخليفة المنصور على يد عبد الله بن محمد الأشتر العلوى (٢) • وقد لقيت دعوة العلويين قبولا من أهل السند ، دخلوا فيها جماعات ، وصبغت وجه الحركة الاسلامية فيها بصبغة واضحة ، كان من نتائجها قيام امارة اسماعيلية ظلت تحكم البلاد حتى قدوم محمود بن سبكتكين (٣) •

كان انفعال الهند بالحياة الاسلامية بوجهها الثقافى والفكرى انفعالا اسلاميا خالصا ، لا يجعلها تختلف كثيرا عن غيرها من الامصار الاسلامية الأخرى •

وفى ختام هذه العوامل يجب ألا نغفل دور الدولة العربية فى الدعوة الى الاسلام بالحسنى ونشر العقيدة ، فهذا من أخص واجبات الدولة فى الاسلام • ويبدو أن الدولة الاسلامية أدت دورها فى السند كما أدته فى البلدان الأخرى • وعهد عمر بن عبدالعزيز عنوان لهذه الحركة التبشيرية ، فقد ارسل هذا الخليفة عمرو بن مسلم الباهلى أخا قتيبة الى السند وأوصاه بالرفق بأهلها والعمل على ترغيبهم فى الاسلام • وقد صادفه النجاح فيما ندب له • ودخل كثيرون من أمراء السند فى الاسلام بعد دعوة عمر بن عبد العزيز المسالمة • ثم لف الغموض هذا الدور الحيوى من تاريخ الدولة العربية حتى عهد الخليفة المهدى العباسى واذا به يتابع سياسة عمر بن عبدالعزيز نفسها ويعنى بنشر الاسلام بالسند عناية كبيرة • وظلت الدولة تؤدى دورها حتى اصطبغ اقليم السند والملتان بالصبغة الاسلامية الواضحة فى مستهل القرن الرابع الهجرى •

---

(١) البلاذرى : الفتوح ص ٤٤٩ •

(٢) الساداتى : ج ١ ص ٧٠ •

(٣) الساداتى : ج ١ ص ٧٦ •

بل يستفاد من رواية المسعودى ان الاسلام تسرب الى قنوج وعندما تحدث عن الهند فى مستهل القرن الرابع الهجرى أشار الى انتشار الاسلام بين أهل قنوج وقال : « وليس من ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه مثل البلهرى (أمير قنوج) فالاسلام فى ملكه عزيز مصون وله مساجد مبنية وجوامع معمورة للصلوات الخمس ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين فصاعدا وأهل مملكته يزعمون انه انما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل واكرام المسلمين » (١) ٠

مظاهر الحركة الاسلامية :

هذا عن العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الى الاسلام فى السند والملتان ٠ أما مظاهر هذه الحركة الاسلامية وتطوراتها فانها غامضة فى جميع الامصار الاسلامية للافتقار الى احصاءات تسجل عمليات الدخول أو الحاجة الى قوائم الجزية والخراج وكيف كان الاعفاء منها مرتبطا بالحركة الاسلامية ٠ واذا كانت هذه الأمور فى تاريخ ايران غامضة فما بالنا بها فى السند ؟

ثم نلمح اشتداد الحركة الاسلامية فى ثورات السكان ومطالبتهم بحقوقهم التى نصت عليها العهود والمواثيق التى عقدت مع الفاتحين العرب ذلك ان سكان البلاد أخذوا بدورهم يثورون فى وجه ولاتهم الذين حاولوا فى الغالب أن يحيدوا عما استنه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية واشاعة العدل والتسامح بينهم (٢) ٠ فهى أشبه بالثورات التى انتشرت فى ايران ابان الحكم الأموى ٠ وكانت هذه الثورات تنتهى بالاستجابة من جانب الحكومة للتيار الاسلامى العظيم ٠ وقد استجابت الدولة لهذه الثورات فى عهد عمرو بن محمد بن القاسم الذى نهج نهج ابيه فى العدل وأحيا سنته فى التسامح الدينى ٠ وازدادت الحركة الاسلامية وضوحا فى عهد الخليفة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٨٢ ٠ ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٠٧٠

(٢) البلاذرى ص ٤٤٩ ٠

عمر بن عبد العزيز ومظهر ذلك دخول سلائل الملوك فى الاسلام (١) •
ثم تزداد الصورة وضوحا فى انتشار حركات التشيع • وكان عمر بن حفص عامل المنصور نفسه علويا • وفى عهده رحل الى السند عبد الله ابن محمد بن الأشتر العلوى مستخفيا فى زى التجار • كانت الحركة الشيعية راسخة القدم هناك بدليل حرص المنصور على القضاء على حركاتهم، وكان هذا التشيع سبيلا الى ظهور الامارة الاسماعيلية فى السند فى مستهل القرن الرابع الهجرى • هذا التأييد الشامل للشيعة يدل على أن هنالك جماهير اسلامية كبيرة ذات وزن وأثر •

وقد نظرنا الى الحركات الاستقلالية التى ظهرت فى ايران وتركستان ليس على أنها احداث سياسية أو انتهاز لجماعات من المغامرين المسلمين فرصة ضعف الخلافة العباسية ليمكنوا لأنفسهم من الحكم والسلطان ، وانما نظرنا اليها على انها تعبير عن شعور اسلامى محلى عميق ، وانها تدل على أن المجتمع الاسلامى بلغ حدا من النضوج دفعه الى أن يعبر عن نفسه هذا التعبير السياسى خلف زعامة من أهل البلاد المسلمين سواء أكانوا عربا وافدين ثم استوطنوا الاقليم ، أم مسلمين من أهل البلاد •

وقد بدأت الحركة الاستقلالية فى السند آخر القرن الثالث ومستهل الرابع الهجرى متجاوبة مع الحركات الاسلامية التى انتشرت فى العالم الاسلامى كله اذ ذاك • ومن حسن الحظ أن المسعودى (٢) رحل الى الهند فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخها وألقى بعض الأضواء على الحركات الاستقلالية التى ظهرت بها • ومن غريب الأمر ألا تكون هذه الحركات بزعامات محلية من أهل البلاد الذين اسلموا ، انما كانت خلف قيادات عربية ، وهذا يدل أن العصبية العربية عاشت فى الهند أطول مما عاشته فى الأمصار الأخرى (٣) •

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٦ – ٤٤٧ •
(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٣٧٩ •
(٣) Lane-Poole : Mediaeval India, p. 8

وقد تحدث المسعودى عن امارة الملتان الاسلامية وكيف أن أمراءها عرب خلص فهم من ولد أسامة بن لؤى بن غالب وكان يتولى الامارة فى فترة زيارة المسعودى ابو اللهاب المنبه بن أسد القرشى الاسامى ، كما تحدث عن اتساع الامارة فذكر أنها ضمت مائة وعشرين ألف قرية (١) ، كما أشار الى لمحات من نظم الحكم فيها . وقد كانت متأثرة بالأسلوب الهندى الى أبعد الحدود . وكان هؤلاء الأمراء يفرضون الرسوم المرتفعة على الحجاج البوذيين الذين كانوا يحجون الى بعض الأماكن المقدسة فى بلادهم (٢) .

ويلقى المسعودى (٣) أضواء على امارة أخرى نشأت فى هذا العصر المضطرب وهى امارة المنصورة ، ولها أمير عربى خالص ينتسب الى هبار ابن الأسود ويعرف أهله ببنى عمر بن عبد العزيز القرشى . وكان أميرها وقت مجىء المسعودى ابو المنذر عمر بن عبد الله . وكان له وزير يدعى رباح . وكانت له حكومة منظمة واتخذ الجيوش على النسق الهندى « وللملك المنصورة فيلة حربية وهى ثمانون فيلا ورأيت لهم فيلين عظيمين كانا موضوعين عند ملوك السند والهند لما كان عليها من البأس والنجدة والاقدام على فل الجيوش » (٤) .

وما لبثت الحركة الاستقلالية أن تغيرت قيادتها فى وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين . وكل ما نعرفه أن بلاد السند بدأت بحكم موقعها النائى تجتذب طائفة من دعاة الاسماعيلية منذ النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى . وكان أئمة الاسماعيلية يلجئون الى نشر دعوتهم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧٥ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص ٣٧٦ ــ مادة سند : دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧٩ ــ مادة سند : دائرة المعارف الاسلامية .

فى الخفاء وفى البلاد البعيدة عن مراكز النفوذ العباسى • ويروى أن محمد بن اسماعيل نفسه فر الى الرى ومنها الى دماوند واستقر بقرية سميت محمد آباد (١) نسبة اليه وسار أبناؤه على منواله فاختفوا فى خراسان ، وفى اقليم قندهار والسند • وفى سنة ٢٧٠ هـ أرسل رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى الى بلاد اليمن وبعث الدعاة الى اليمامة والبحرين والسند • فكأن الاسماعيلية كانت تفد الى السند عن طريقين : الطريق البحرى من اليمن والبحرين ، والطريق البرى من خراسان وما وراء النهر وفرغانة •

ويبدو أن الشيعة بوجه عام والاسماعيلية بوجه خاص ، كانوا قد كسبوا جانبا كبيرا من تأييد جماعة المسلمين فى الوقت الذى زار فيه المسعودى بلاد الهند ، فهو يذكر أنه رأى بالسند خلقا من ولد على بن أبى طالب ، ثم من ولد عمر بن على وولده محمد بن على (٢) • وقدم الى السند أيضا دعاة بعثهم عبيد الله المهدى بعد أن استقامت له الأمور فى بلاد المغرب وممن بعثه داعية يسمى الهيثم •

ثم توالى دعاة الاسماعيلية على البلاد حتى جاءها قائد قدير من قوادهم وداعية يدعى جلم بن شيبان فلما قدم الملتان أيده الشيعة والقرامطة الذين كانوا قد تسربوا اليها من البحرين وايران • وما لبث أن استغل ما كان فى البلاد من فتن ، وتمكن من تولى الحكم ، فنشأت أول امارة شيعية اسماعيلية عرفتها الهند •

وتوارث الاسماعيلية الحكم بعد جلم ، فخلفه الشيخ حميد وكان معاصرا لمحمود الغزنوى • وتدخل محمود لاقصاء حميد ولكن خلفه أبو الفتح داود وقضى عليه محمود الغزنوى أيضا رغم تظاهره بالولاء للخليفة العباسى (٣) •

---

(١) حسن ابراهيم : الفاطميون ص ٣٩ •

(٢) المسعودى جـ ١ ص ٢٧٧ •

(٣) الساداتى جـ ١ ص ٧٥ ــ ٧٦ •
Elliot : The history of India as told by its own Historian Subugtigin, p. 2-6.

الفصل الرابع
انتشار الاسلام فى شمال الهند كله

الغزنويون :

كان الاسلام فى الهند فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى فى مفترق الطرق • وكانت مكاسب الاسلام التى تحققت منذ فتوح محمد ابن القاسم مهددة بالضياع • فلم يكن الطريق الذى سلكه المد الاسلامى الأول لغزو الهند هو الطريق الصحيح (١) • كما أن ولاية السند كانت أقل ولايات الهند غنى ، وأضألها استقرارا • ولم يكن من المعقول أن ينطلق المد الاسلامى من داخل امارة السند وحدها اعتمادا على قدرتها وجهودها ، فلن تستطيع أن تواجه الامارات الهندية القوية التى تحيط بها من كل جانب ، أو تواجه الأمراء الراجبوت المحاربين الأشداء •

وكانت امارة السند وحدها من الضعف بحيث فقدت القدرة على الحركة • ولم يؤخر من مصيرها المحتوم الا تفرق الهند وبعثرتها ، فقد تولاها أمراء منهم أبو الفتوح داود ، دانوا بالمذهب الاسماعيلى وفقدوا الصلة بالعالم الاسلامى المجاور • وانقطعت صلتهم بالعالم السنى ، ولم يكن الفاطميون فى مصر بالذين يستطيعون أن يمدوا لهم يد المعونة فى الساعات الحاسمة • بل كان هؤلاء الاسماعيليون كلما أحسوا بتهديد ينتقص من نفوذهم لا يأنفون من محالفة الأمراء الهنادكة المجاورين ، كما فعلوا أثناء فتوح محمود الغزنوى • والخلافة العباسية لم تكن بقادرة على أن تنجد امارة السند حتى لو طلبت هذه الامارة النجدة من بغداد • اذ كانت

(١) Lane-Poole, p. 9

الخلافة آخر القرن الرابع قد عراها الضعف ، وكان الخلفاء فى بغداد تحت وصاية بنى بويه • وكانت القرى الايرانية تصطرع من أجل الرياسة والنفوذ •

لكن الذى كتب للاسلام فى السند البقاء فى تلك الأيام أمر واحد ، هو ظروف الهند الداخلية نفسها : فقد انقسمت الهند فى النصف الأخير من القرن الرابع انقساما لم تشهده فى تاريخها ، كان الشمال الغربى منقسما بين أمراء كثيرين من الراجبوت معترفين لراجا دلهى بالغلبة والتفوق • وكان راجا قنوج يملك امارة أودهه وامارة وادى الكنج • وكان آل بال يملكون البنغال وبهار • وكان سلائل من آل كبتا يملكون مالوه • وكان جنوب الهند تسيطر عليه امارات هندوسية ثلاث : جيرا — رجولا — بيندرا (١) • ولم تجتمع هذه الامارات فى تكتل واحد يكفل القضاء على الاسلام فى السند • وانما كان يحارب بعضها بعضا وهى فى صراع دائب من أجل السلطة والنفوذ ، ولم تتنبه الى الوقوف صفا واحدا الا والقوات الاسلامية تنحدر اليها من الشمال فى تيار جارف •

ويزيد المؤرخ بانيكار (٢) الصورة وضوحا فى تفسير سر استسلام شمال الهند فى وقت غارات الغزنويين ، فيقول : ان الأمراء الهنود نسوا امر التهديد الاسلامى منذ توقف زحف المسلمين بعد وفاة المعتصم• وانهم عاشوا دهرا طويلا فى مأمن من الغزو • ولم يكن يخطر ببالهم أن يجىء التهديد من أية قوة اسلامية كانت • عاشوا فى طمأنينة كاذبة أفقدتهم الشعور بالخطر الذى يتجمع فى شمال ايران • بل عاشوا عزلة كاملة جعلتهم على غير علم بما كان يجرى على مقربة من حدود بلادهم من تطورات • وكانت الغزوات الاسلامية آخر القرن الرابع الدافقة من الشمال مفاجأة كاملة لهم (٣) •

---

(١) لويون : حضارة الهند ص ٢١٧ — ٢١٨ • Lane-Poole, p. 14

(٢) A Survey of Indian Hist., p. 112

(٣) Price, p. 1?3

واذا كان ثمة قوة جديدة تحيل جمود الاسلام فى الهند الى حركة، وتدفع الحركة التاريخية الاسلامية دفعا قويا ، فلا بد من أن تنبعث من افغانستان وليس من غيرها من البلاد • ويحدد السردار بانيكار (١) دور افغانستان فى مصائر الهند فيذكر انه كلما كانت افغانستان ضعيفة مفككة الأوصال لم يكن هنالك خطر على الهند • واذا شهدت بعثا قويا يوحد بين قبائلها ويعيد الحياة الى تاريخها فانها تهدد الحياة الهندية تهديدا خطيرا • تهدد البنجاب أولا ثم تؤثر فى مصائر الهند بعد ذلك • وقد حفل التاريخ الهندى بمثل هذا التهديد ، فالايرانيون فى عنفوان قوتهم استولوا على وادى كابل ، ولما استعاد الكوشانيون سلطانهم استعادوا السيطرة على وادى كابل واقليم البنجاب •

لهذا كان لا بد للبعث الاسلامى الجديد ليترك الأثر القوى فى حياة الهند ويفيد من انقساماتها السياسية والبشرية والمذهبية ، أن ينطلق من افغانستان فتكون نواته فى غزنة فتتحول من ولاية اسلامية نائية الى امارة ذات شأن ثم الى دولة ذات قوة وسلطان •

وقد بدأت حياة جديدة تدب فى غزنة فى منتصف القرن الرابع الهجرى لتحدد لها دورا هاما فى تاريخ الاسلام • فكانت غزنة مجرد ولاية نائية ليست بذات قيمة كبيرة تخضع للسامانيين فى خراسان وما وراء النهر • وتولى أمرها من قبل السامانيين مولى من مواليهم الأتراك الذين غلبوا على الجيش وتزايد نفوذهم فى العصر الساماني الأخير • كان هذا المولى التركى يلى غزنة من قبل عبد الملك بن نوح السامانى • وقد برز من أبناء هذا المولى التركى السبكتكين الذى لمع نجمه فى حياة السامانيين الأواخر • وأصبحت له منزلة عظيمة فى نفوسهم ومنزلة رفيعة فى بلاطهم فأسندوا اليه مناصب ذات شأن فى دولتهم ، فعينه عبد الملك بن نوح حاجبا فى بلاطه ثم ولاه على هراة سنة ٣٤٤ هـ • فلما مات عبد الملك فقد السبكتكين

---

(١) A Survey of Indian Hist., p. 112-113

ما كان قد وصل اليه من نفوذ • ثم رحل الى غزنة وتولى أمورها بعد وفاة أبيه سنة **٣٥٢** هـ **(١)** • واستقل عن السامانيين اذ خرج على منصور الأول ابن نوح •

ولم يعش طويلا لينعم بثمـرة هذا الاسـتقلال ، فقد مات بعد ذلك بسنة وخلفه ولده اسحق ثم مات اسحق بعد أبيه بسنوات قلائل وأصبحت السلطة في يد مواليهم الأتراك الذين كانوا قد أكثروا منهم • ويبدو أن السلطة بعد اسحق قد آلت الى بلكاتكين فضرب النقـود باسـمه في غزنة سنة **٣٥٩** هـ ، ثم خلفه مولى آخر اسمه بيرى ، ثم اختير سبكتكين أميرا على غزنة **(٢) ٣٦٠** هـ (**٩٧٦** م) •

وقدر لسـبكتكين هذا ولأولاده من بعده أن يكونوا الأمراء الذين يقترن تاريخهم ببعث قوة غزنة والتحول بها من مجـرد امارة صغيرة الى دولة واسعة السلطان •

كان سبكتكين من الضـباط الأتراك الذين فتح أمامهم باب الظهـور العسكرى والسياسى فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ الاسـلام • فقد كان تاريخ الشرق فى هـذه الفترة مضطربا حافلا بتصـارع عنيف على السلطة والنفوذ ، فالبويهيون كانوا يوطدون نفوذهم بالعـراق ويناوشون السامانيين فيما وراء النهر ، ويفرضون سلطانهم على الخلافة ، والسامانيون كانوا يتعرضون لضغط القراخانيين الذين أسلموا وبدءوا يندفعـون الى الغرب طلبا للظهور السياسى • وكانت دولة السلاجقة في طور التأسيس •

وكان على سبكتكين فى هذه الفترة العاصـفة اما أن يقـوى فيغالب الأحداث ، واما أن يضعف وينتهى أمره فى متاهة النسيان **(٣)** • ولم يكن سـبكتكين بالذى يرضى مسـلكا بل أفاد من أخطـاء العصر وتيـاراته

(١) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٨٥ •
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٧ •
(٣) Price, pp. 101-102

وانقساماته • فقد وحد القبائل الافغانية وهى قبائل جبلية محاربة تعطى من تتحد خلفه قوة ووزنا (١) • فأكثر من الجند على عادة الأمراء المعاصرين له وأكثر من الغلمـان الأتراك أو الأفغـانيين ودربهم وأحسـن تدريبهم وجعلهم قوة ضاربة تعمل بادارته فى حمية وعنف •

ولم يكن بالذى تقنع آماله بمنطقة غـزنة الوعـرة الفقيرة ، فبـدأ بتوطيد نفوذه حـول غزنة ذاتها بالاسـتيلاء على لغمـان فى وادى كابل وأصبح على اتصال مباشر بالهند ، كما ذكر ابن الأثير (٢) أنه استولى على قصدار القريبة من غزنة وبست الواقعـة بين سجستان وهراة كما استولى على منطقة سجستان • ولما ظهر على هذه الصورة استنجد به نوح بن منصور السامانى ليدفع خطر القراخانيين فبعث ولده محمودا للسيطرة على خراسان وولاه اياها نوح بن منصور سنة ٣٨٤هـ مكافأة له على قمع القراخانيين (٣)

ومات سبكتكين سنة ٣٨٧هـ بعد أن أصبح من أبرز الزعماء الأتراك المعاصرين وأوفرهم قوة وأعظمهم نفوذا ، ووضع بعد حكم دام عشرين سنة أساس ملك الغزنويين بفضل ما أحرزه من نصر فى فتوحه فى الشرق والغرب ، وما اشـتهر به من الصـلابة وقوة الارادة كان سبكتكين عادلا خيرا كثير الجهاد ، حسن الاعتقاد ذا مروءة ثابتة وحسن عهده ووفاء » (٤) وأنشأ دولة ذات طاقة محاربة عظيمة ضمت خراسان وأجزاء من آسـيا الوسطى وكونت مركز ثقل عظيم فى هذه المنطقة الحيوية المجاورة للهند•

وفى عهد سبكتكين وولده محمود الذى شـاركه الكثير من أمجاده وضح ما يسمى بالطابع الغزنوى أو التقـاليد الغـزنوية التى ستترك أثرا كبيرا فى تاريخ ايران وربما أثرا كبيرا فى تاريخ الهند • وهذه التقاليد تتمثل فى طابع العناصر التركية الفتية التى اعتنقت الاسلام فى القرن الرابع

---

(١) Lane-Poole, p. 10

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٧ •

(٣) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٨٥ •

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨ •

الهجرى ، وما عرفت به من التعصب الشديد للسنة والنظرة الضيقة جدا الى الدين والولاء العميق لخليفة المسلمين • كما أن هذه الشعوب المحاربة لم تعرف سبيلا لنشر الاسلام الا بالجهاد والفناء فيه مهما كانت التضحيات• ومن الغريب أن نجد مثل هذه الروح عند الشعوب البدوية الطارئة على الاسلام • فقد كان يوسف بن تاشفين يقود جموع المرابطين من صحارى المغرب الأقصى ليندفع بهم الى المغرب ويخوض بهم معارك الجهاد فى الأندلس • كانت للمرابطين النظرة نفسها الى الاسلام والاندفاع نفسه فى الجهاد • وتمثلت هذه التقاليد أيضا فى محاربة أية نحلة تعارض السنة، أو تقف فى سبيلها • فكان الغزنويون حربا على الباطنية ، صلبوا عددا كبيرا منهم ، ونفى المعتزلة الى خراسان ، واحرقت كتب الفلاسفة والمعتزلة والنجوم (١) • وكانوا حربا على الاسماعيلية والشيعة • ولما وجد الفاطميون ان الغزنويين ينكلون بانصارهم من الاسماعيلية عملوا على استمالة محمود الغزنوى دون جدوى ، ونشر الغزنويون هذه الروح المتزمتة فى شرق ايران • ولعل هذا سر كرههم الشديد للبويهيين • واندفع السلاجقة بالنظرة والروح نفسيهما الى آسيا الصغرى وبلاد الشام • ومن غريب الأمر أن نجد المرابطين فى المغرب الاقصى حربا على المعتزلة ، ونسب اليهم احراق كتب **الغزالى** •

ثم كان اتجاه سبكتكين وأولاده من بعده الى ميدان الهند • وهنا يحق لنا ان نسأل عن الأسباب التى انطلقت بسبكتكين وأولاده الى هذا الميدان الجديد ؟ يذكر بعض المؤرخين أن هذا الاتجاه كان سببه رغبة سبكتكين فى توطيد نفوذه على وادى قابل وان ذلك قاده الى الاحتكاك بجيبال ومملكة البنجاب ، فلما خضعت البنجاب فتحت أبواب شمال الهند على مصاريعها (٢) •

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٩ •

(٢) Lane-Poole. p. 14 — Panikar, p. 113
Price, p. 101

وأعتقد أن هناك أسبابا أعمق من هذه بكثير تفسر هذا الاتجاه المتدافع الى الهند • فلا شك أن سبكتكين قد تجمعت له طاقة محاربة من الطراز الأول • وكان لها أن تنصرف الى أى اتجاه فلا تبقى حبيسة منطقة غزنة • ولم تستطع هذه الطاقة أن تمعن فى انصرافها نحو الغرب حيث البويهيون والسلاجقة ، بل كان لا بد لها ان تجد متنفسا لها يتفق مع طابع الدولة وطبيعة تركيبها • ولم يكن هذا المتنفس الا عبر وادى كابل ثم الى بلاد البنجاب والهند •

ولا ننسى أن الرغبة المضطرمة فى الجهاد كان لا بد لها أن تظهر فى مكان ما !! الأتراك الشرقيون أسلموا وغلب الأسلام على آسيا الوسطى وأسلم السمغور والخوارزمية وحورب الباطنية والاسماعيلية فى كل مكان ، فلم يبق الا أن تنصرف هذه الرغبة الى الممالك الوثنية فى الهند ارضاء لهذه الروح العنيفة • وابن خلكان (١) يلقى ضوءا على الحوافز الدينية العميقة التى كانت تدفع محمود بن سبكتكين الى الهند فيذكر انه كان يرمى من وراء هذه الحملات أن تكون كفارة لما كان من قتال المسلمين • ولذلك فرض على نفسه كل عام غزو الهند • هذا التصور نفسه هو الذى كان يحرك المنصور بن أبى عامر فى الأندلس بغزو الممالك المسيحية كل عام •

على كل حال بدأ الاندفاع الغزنوى الى الهند فى عهد سبكتكين ذلك ان استيلاءه على لغمان جعله على اتصال مباشر بالهند ، وبدأ يحتك بجيبال راجا بهاتندا الذى كان يحكم البنجاب • وكان ملكه الواسع يمتد من سرهند الى لمغان أو من وادى الكنج الى حدود افغانستان وتطور هذا الاحتكاك الى حرب بينهما ، والتقت قوات سبكتكين بجيش جيبال الهندى، فلما رأى بأس هذا الجيش فى القتال عرض الصلح على ان يدفع جزية كبيرة (٢) ، ويعترف بسلطان الغزنويين • وقبل صاحب غزنة الجزية •

---

(١) ابن خلكان : الوفيات جـ ٢ ص ٨٥ •

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٩ •

وكان ولده محمود متبرما بهذا الصـلح ، ويحض أباه على أن يمضى الى محـاربة هؤلاء الوثنيين وألا يهادنهم • ويبـدو أن الأمير الهندوكى نكث العهد وسجن فريقا من أهل غزنة الذين كانوا بصحبته لتنفيذ ما صولح عليه • وفى الوقت نفسـه جمع جيبـال حلفا من الأمراء الأقوياء أصحاب آجمير ودهلى وكلنجر وقنوج ليقف فى وجه هذا الاندفاع الغزنوى فكانت هزيمة جيبال وحلفه والاستيلاء على بشاور واخضاع البنجاب وتدفق هذا التيار الاسلامى الجديد الى سهول الهند (١) •

ثم استطاع محمود الغزنوى أن يحتل مكان أبيه فى امارة غزنة • وقد تجلت فى محمود التقـاليد الغـزنوية كأوضح ما تكون ؛ فقد ورث قدرات أبيه العسكرية وقدراته الفائقة وأحلامه البعيدة نفسها • فقد وطد سلطان الغزنويين فى شرق ايران • وكان من أهم ما رمى اليه أن يرث ملك السامانيين فى خراسان • وكان قد سـاءه انتزاع منصـور بن نوح مدينة نيسابور واقصاؤه من امرة الجيوش فى خراسان وتوليتها بكنوزون • وقد اتخذ محمود بن سبكتكين من انحلال الدولة السامانية وتآمر بكنوزون الخاصة على منصور بن نوح وخلعه وتولية أخيـه الصـغير فرصة لتحقيق سياسته • وهزم الجيش السامانى بمرو سنة ٣٨٦ هـ • وارتد عبد الملك ابن نوح الى بلاد ما وراء النهر ، وخضعت له خراسان ، وأقام أخاه نصرا نائبا عنه بخراسان فأقام فى نيسابور واتخذها مقرا له ونجح محمـود فى تحقيق ما أخفق البويهيون فى تحقيقه من قبل (٢) •

ولم يقنع بخراسان ، فتصـدى للبويهيين وانتزع منهم الرى وبلاد الجبل واستولى على قزوين (٣) ، كما تصدى للأتراك الشرقيين أصحاب أرسلان بن سلجوق ، وكانوا يقطنون صحارى اقليم بخارى ، كما قبض على زعيمهم ارسلان ببلاد ما وراء النهر •

---

(١) Panikar, p. 113

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ •

(٣) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٨٩ •

وكان من الطبيعي بعد هذا أن يكتمل استقلاله فكان أول الغزنويين تلقبا بلقب سلطان ونمت قواته المحاربة نمـوا عظيما بعد أن تدربت على الحرب في جبال افغانستان وصحارى خراسان (١) •

ولم يكن محمود أقل من أبيه انفعالا بالسنة وتعصبا لهـا • فتعقب الباطنية والاسماعيلية على النحو الذى بيناه (٢)، كما حرص على أن يكسب ولاء الخليفة ، وقد لقبه الخليفة القادر بالله بلقب يمين الدولة وأمين الملة ، وذاعت شهرته فى المشرق الاسـلامى كله ، وهرع اليـه المطوعة من كل ناحية ليعملوا تحت لوائه اسهاما منهم فى حركة الجهـاد • وقد انضم اليه من اقليم ما وراء النهر وحده نحو عشرين الفا من المحاربين الأشداء •

لكن الانفعال الصادق بالجهاد والتطبيق الصحيح للتقاليد الغزنوية ، والحمية الفائقة للدين تجلت فى أعظم ما حققه أمير معاصر ، وأعنى حملاته فى بلاد الهند ، تجلت فيها القدرات العسـكرية الفائقة والاصرار العنيف على تحدى العقبات الطبيعية التى كادت ان تجعل من حياته شبه أسطورة تروى • فقد قاد جيوشه فى بلاد الهند أكثر من سبع عشرة مرة • وظل يحارب فى الهند دون فتور نحو سبع وعشرين سنة (٣) •

وحملته الأولى أريد بهـا أن يؤكد السـيادة الغـزنوية فى منطقة البنجاب وأن يتصدى لجيبال الذى عاود الخروج مرة أخرى • وحشـد محمود نحو اثنى عشر ألفا من الفرسان وثلاثين ألفا من المشـاه وثلاثماية من الرجالة • وقد ضاعت آمال جيبال وتوطد سلطان الغزنويين فى البنجاب• وخرجت حملته الثـانية عـام ٣٩٥ هـ (٤) (١٠٠٤ – ١٠٠٥) واتجـه الى بهيرة على جهلم أحد روافد السند فضمها الى ملكه • واتجه الى الملتان

---

(١) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٨٨ •

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩ •

(٣) Lane-Poole, p. 12, Panikar pp. 113-116
Rawlimson : India, A short Cultural hist., pp. 210-212

(٤) Price, p. 103

ليخضع أميرها الاسماعيلى أبا الفتح داود ، واضطره الى طلب الصلح ودفع الجزية .

ولم يستسلم الهنود لضياع امارة البنجاب الغنية فهب آننجبالا ليأخذ بثأر أبيه وتحالف مع أمير الملتان الاسماعيلى ، وكون جبهة قوية لمقاومة الغزو ، تتألف من حكام دهلى وآجمير وقنوج وكالينجار . واستنهض لشد أزره همم الراجبوتيين (١) ، فخرج محمود الى الهند لمواجهة هذا التحدى سنة ١٠٠٨ (٣٩٩ هـ) وهزم الحلف الجديد ، وانطلق السلطان الى نكركت الحصن الذى جمعت فيه كنوز الهندوس ، وكان يقع على تل فى منطقة السهول الغنية بسفوح الهملايا . وقد فتح هذا الحصن وغنم محمود الغزنوى ما به من ذخائر ، كما قضى فى الوقت نفسه على أبى الفتح داود الاسماعيلى وخرب المنصورة عاصمته .

ثم عاد الى الهند مرة أخرى سنة ١٠١٠ م (٤٠١ هـ) (٢) وانطلق الى تارين حيث جمع جيبال الثانى حفيد جيبال الأول حلفا آخر لمقاومته ، فهزم جيبال الثانى وانفض حلفه . وفى السنة التالية أراد محمود أن يوجه الى الهندوكية ضربة قاصمة ، وذلك بأن يهدم المعبد الكبير فى ثنيسر . وقد دخل هذه المدينة دون مقاومة . وفى الحملة التالية انطلق الى قشمير بعد أن اجتمع له نحو مائة ألف من الفرسان وتوغل بهم فى بلاد الهند الى أعمق مما توغل من قبل ، فهاجم دهلى وعبر نهر جمنا وحاصر مدينة باران ، ولم يستطع هاروانا حاكمها ان يقاوم فاستسلم للفتح . ثم زحف محمود الى متيرا المليئة بالمعابد ، واستولى عليها ومنها انطلق الى براندابان.

وفى سنة ١٠١٩ (٤١٠ هـ) أراد محمود أن يضرب قلب الهند بالاستيلاء على مدينة قنوج الشهيرة والتى يقال انها كانت تضم نحو عشرة

---

(١) السداداتى جـ ١ ص ٨٦ .

(٢) Price, p. 104

آلاف من المعابد • ولم يستطع أميرها أن يقاوم واقتحمت مدينته وتم الاستيلاء عليها • وفى سنة ١٠٢١ ـ ١٠٢٢ (٤١٢ ـ ٤١٣ هـ) قاد محمود الغزنوى حملة أخرى لاخضاع راجا جندله وفتح كالينجار •

ولكن الغزاة التى اعتبرت من أعظم امجاده الحربية هى غزاة سمنات (٤١٦ ـ ٤١٧ هـ) ١٠٢٥ ـ ١٠٢٦ م ، وقد تقدم عن طريق الملتان وآجمير فاستولى عليها ثم انطلق الى المدينة المقدسة فاستولى عليها (١) •

ولكننا نريد أن نتبين الآثار التى تركتها حملات محمود الغزنوى فى تاريخ الاسلام فى الهند • لا ننكر انها كانت انتصارات عسكرية حاسمة أروع مما أحرزه محمد بن القاسم وخلفاؤه • وكانت ضربات محمود الغزنوى أقوى من ضربات الجيل الأول من الفاتحين العرب • والذى يلاحظ أن هذه الفتوح أملتها حمية دينية طاغية خرجت بهذا الفتح التركى عن الطابع السمح الذى توفر لجيل الفاتحين العرب الأولين • فقد كانت حربا لا رحمة فيها على الهندوكية وتراثها ومؤسساتها الدينية حتى لقب محمود بلقب « محطم الأوثان » ولم تتعرض الهندوكية لمثل ما تعرضت له على يد محمود الغزنوى وحروبه المتتابعة• وكانت صدمة لم تفق الهندوكية منها طويلا • فقد فتحت الطريق الى أجيال أخرى من المجاهدين تفيد مما تحقق فى عهد محمود بن سبكتكين • وبعض ممن أرخ للهند الاسلامية عزا هذه الفتوح المتتالية الى رغبة جامحة فى النهب والسلب والاستيلاء على كنوز الهند التى حفلت بها معابدهم الشهيرة • وفى الحق ان ما أحدثه محمود الغزنوى خلال هذه الغزوات يمكن فهمه فى ضوء ما ذكرت عن « التقاليد الغزنوية » تقاليد الترك المتحمسين للدين تحمسا يرقى لدرجة التعصب • ولم يكن من المعقول ان يكون جيل القرن الرابع الهجرى من الترك فى سماحة الجيل الأول من العرب • ولا يشك فى أن حملات

محمود كانت مسبوقة بطلب الدخول فى الاسلام • يقول السير توماس أرنولد (١) « وفى الحق ان الاسلام قد عرض فى الغالب على الكفار من الهندوس قبل أن يفاجئهم المسلمون » •• وكان محمود الغزنوى يعتبر المدن التى تصدت له بالمقاومة فى حكم المدن التى تفتح عنوة فاعتبر كنوزها وثرواتها فيئا وغنيمة للجند المسلمين المنتصرين (٢) •

ولا يخفى انه فى غزوات محمود بن سبكتكين تمثلت سطوة الاسلام كأقوى ما تكون ، وأصبح للاسلام الكلمة العليا فى شمال الهند كلها • وأوغل محمود فى الهند بصورة لم تتوفر لفاتح مسلم من قبل • وقد نظر المؤرخون المسلمون الى أعماله من هذه الزاوية ، ورأوا فيها اعزازا لكلمة الاسلام ، فقد بلغ فى فتوحه •• « الى حيث لم تبلغه فى الاسلام راية ولم تتل به قط سورة ولا آية فدحض عنها أجناس الشرك ••• وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الاسلام ، وعن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والايمان ، فصارت الأطفال تهدد فى بطالتها باقدامه وتفزع باقبال ألويته واعلامه » (٣) •

ويكفى أن محمود الغزنوى قد جعل البنجاب امارة اسلامية تركزت فيها تقاليد الاسلام وحضارته وأصبحت قاعدة اسلامية للاغارة على بقية الامارات الهندية (٤) •

على كل حال كان اقتحام محمود للهند اقتحاما بطوليا فريدا يذكر باقتحام الهضبة الايبرية على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير ، كما كانت حملته على سومنات شبيهة بحملة المنصور بن ابى عامر على قلعة

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٢٨٨ •

(٢) Rawlinson, p. 223

(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٨٥ •

(٤) Panikar, p. 114

شانت ياقب بغرب ايبريا • ورغم ما أصاب الهندوكية فى عهده فان مؤرخ الهند السردار بانيكار يعتبره (١) «من أعظم شخصيات التاريخ الاسلامى» وانه كان حكيما عادلا محبا للعلوم والفنون ذاع صيته فى العالم الاسلامى كله كمدافع عن الدين •

وقد مرت الهند بعد محمود الغزنوى بالظروف نفسها التى مرت بها تركستان فى ظل السامانيين • وكما كان الحكم السامانى مضيا بالحركة الاسلامية الى آفاق بعيدة فانا نعتقد أن الغزنويين أدوا هذا الدور نفسه • وكانت الدولة الغزنوية دولة هندية اسلامية الى حد كبير • وكان شطرها الهندى أغنى ولاياتها وأوفرها قوة وأكثرها استقرارا •

ويمكننا أن نوضح الدور الذى قام به خلفاء محمود الغزنوى فى تاريخ الاسلام بالهند • وأول ما يمكن ان نتنبه انه بعد وفاة السلطان محمود تزايد اهتمام خلفائه بالشطر الهندى من دولتهم وذلك بسبب ضغط السلاجقة وقد سيطروا على ايران وخراسان ، بل بدأ شطر كبير من املاك الغزنويين فى ايران ينتقل الى السيادة السلجوقية • وبدأت املاك الغزنويين شمال الهملايا يلتهمها السلاجقة باستمرار • واضطر الغزنويين الأواخر الى محالفة السلاجقة وارتبطوا بهم بروابط المصاهرة • بل غدت غزنة نفسها ولاية سلجوقية خاضعة لملكشاه • ودخل السلاجقة غزنة انصرة بهرام ضد أخيه أرسلان شاه • فكان من الطبيعى أن تكون الهند الموئل الأخير للغزنويين • وكان من الطبيعى أن يشتد اهتمامهم بأمورها ، هذا بالاضافة الى غنى البنجاب والمدن الهندية المجاورة لها حتى أصبح القسم الهندى من أغنى املاك الغزنويين على الاطلاق •

وكان لهذا الاهتمام آثاره فى تاريخ الاسلام فى الهند فقد اضطر الغزنويون بعد انتهاء موجة الفتوح الأولى الى مزيد من الاهتمام بها

---

(١) Panikar, p. 113

والتدخل فى شئونها ، وتنظيم أمورها ليدوم سلطانهم فيها (١) ، فأنشئوا منصب نائب السلطان فى الهند وكان يقيم عادة فى لاهور (٢) • وكان أحيانا يختار من الأمراء الغزنويين أنفسهم ، فقد تولاه مجدود حينا ثم مورود بن مسعود حينا آخر سنة ٤٢٦ هـ (٣) • وكان هذا المنصب يعهد به أيضا الى بعض القواد المقربين الذين شاركوا محمودا الغزنوى فتوحاته وعرفوا أسراره • فقد تولاه اریاروق حينا ثم عهد به الى احمد بن ينالتكين وكان عامل الخراج زمن محمود الغزنوى وصحبه فى جميع غزواته• ثم تولى نيابة السلطة بعض الهنود المسلمين • تولاها تلك بن جاوسن (٤) • ونائب السلطان هذا كانت له القيادة العسكرية فحسب ، أما الأمور الدينية والسياسية فقد كانت بيد قاضى شيراز • وأقاموا عاملا للبريد ينقل اليهم أخبار الهند باستمرار ، ليكونوا على معرفة بما يستجد من تطورات • وأغلب الظن أنهم فتحوا الباب أمام المسلمين الهنود للمشاركة فى الحكومة المحلية فى البلاد فأبقوا على الأمراء الذين أعلنوا اسلامهم ودخلوا فى طاعتهم • وأتاحوا بذلك الفرصة للاندماج بين الترك والهنود •

وقد اتخذ الغزنويون فى الهند سياسة كانت بعيدة الأثر فى انتشار الاسلام وساعدت على الاندماج بين الترك والهنود ، من ذلك اباحتهم للمسلمين من الهنود أن يتولوا المناصب الكبرى ، فتلك الهندى كان مقربا من السلطان مسعود وكان يترجم بين الوزير الميمندى وبين الهنود • كما كان يحسن الكتابة بالفارسية والهندية (٥)• وقد تولى منصب نائب السلطنة وقيادة الجيش • كما استخدم الغزنويون الهنود فى الجيش ، وفرضوا لهم العطاء ووثقوا بهم وعاملوهم المعاملة نفسها التى ظفر بها الجند الترك •

---

(١) Lane-Poole, p. 28

(٢) Legacy of Persia, p. 93

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧٠ – ١٧٢ ، ١٨١ •

(٤) Elliot, p. 112-113; Price, p. 107

(٥) Elliot, p. 119

وغدت القوات الهندية تؤلف نحـو نصف جيش مسـعود • وكانت تلك خطوة هامة فى طريق الالتحام بين الهنود وبين الاسـلام (١) • بل يبدو أن القواد الهنود استخدموا فى غير أرض الهند ، فكان القـائد الهنـدى سيواندراى على رأس قوة كبيرة من الفرسان الهنود الذين أرسلوا لمحاربة بعض الأمراء الخارجين • ولما كان مسـعود يتصـدى للخطر السلجوقى وتعرضت جيوشه للهزائم فى مرو فكر فى أن ينقل مقر السلطنة الى الهند ويتخذ الهند ملجأ لينطلق منها لمحاربة السلاجقة •

ولم تكف ولاية البنجاب فى العهد الغـزنوى عن مواصلة التوسع حينا أو المحافظة على ما بيدها حينا آخر • وكانت تلك من أهم واجبات نائب السلطان فى الهند فاحمد بن ينالتكين هاجم بنارس • ولم يكن قد بلغها جيش اسـلامى من قبل وقام بنهبها ثم انسحب منها • كمـا رحل مسعود الى الهند عن طريق كابل واستطاع أن يستولى على قلعة هانسى (٢)• وحاول محمـود الغـزنوى أن يقتحمها من قبـل فلم يوفق • وفى عهـد مودود (٣) ثار ثلاثة من ملوك الهند وتحالفوا مع بعض راجاتها وحصروا لاهور ، فأرسـل مودو جيشـا كبيرا حاربهم واضطرهم الى الانسحاب • كما أن ابراهيم بن مسـعود عقد الصلح مع السـلاجقة ، وفتح فى الهنـد الكثير من القلاع التى كانت قد امتنعت على مسعود من قبل (٤) •

---

(١) Idem

(٢) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٩٧ •

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٤٣ ـ ١٩٤ •

(٤) حسن ابراهيم جـ ٣ص ١٠١ •

الفصل الخامس
الهنود والحضارة الاسلامية

والناحية التى تستحق مزيدا من الاهتمام ، هى موقف الهنود الذين اعتنقوا الاسلام من الحضارة الاسلامية . ماذا أضافوا اليها ؟ والى أى مدى أسهموا فى تكوينها كما أسهمت الشعوب الأخرى التى اعتنقت الاسلام . وكيف تأثروا بالفكر الاسلامى وأثروا فيه . وما موقف حضارة الهند الشامخة العريقة من الحضارة الاسلامية الوافدة ؟.

واعتقد ان موقف الهنود المسلمين من هذه النواحى جميعها مر بدورين متمايزين : الدور العربى ، وفيه اتصلوا بالثقافة العربية الخالصة وتأثروا بها وأثروا فيها . وقد استمر هذا الدور منذ اتمام فتح السند فى عهد محمد بن القاسم الثقفى حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى حين ضعفت الخلافة العباسية وخضعت لوصاية اتراك الجيل الأول ثم البويهيين ولفت اخبار السند الغموض وقامت بها الامارة الاسماعيلية التى استمرت حتى آخر القرن الرابع .

والدور الثانى ويسمى بالدور الطورانى أو الأفغانى التركى. وفيه حمل الأتراك والافغانيون المؤثرات الاسلامية الى شمال الهند كلها ، وتدفق العنصر التركى الى البلاد منطلقا من امارة البنجاب ، واتصلت الهند بآسيا الوسطى اتصالا وثيقا ، وتأثر الهنود بمثل الترك وتعصبهم للسنة وتبنيهم للثقافة الفارسية الجديدة فى عصر الأحياء . وما عرفوا به من تنظيمات سياسية وعسكرية وتشجيع للحركات الصوفية . وطالت اقامتهم فى الهند. وبدءوا يحتكون احتكاكا واسع المدى بصميم الحياة الهندية والفكر

الهندى • وقد بدأ هذا الدور بفتوح محمود بن سبكتكين واستمر حتى توطد الحكم المغولى فى البلاد فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى •

وسنحاول ان نحدد معالم التجاوب الهندى بالحضارة الاسلامية فى كل من هذين الدورين •

الدور العربى : فى الدور الأول الذى أطلقنا عليه اسم الدور العربى كان احتكاك الهنود بالحضارة الاسلامية وتأثرهم بها وأثرهم فيها يقع فى ميدانين : فى بيئة السند الخالصة ثم فى البيئة الاسلامية العامة بحكم انتماء ولاية السند الى عالم أوسع عالم الخلافة الاسلامية •

وأهم التطورات التى حدثت فى البيئة السندية ذاتها ما كان من هجرات القبائل العربية • وقد دخل المهاجرة العرب اقليم السند ، اما من جنوب ايران عبر اقليم مكان ، وامار كوبا للبحر عبر الخليج العربى• ولهذا غلب العمانيون والحضارمة بوجه خاص والعرب الجنوبيون بوجه عام على الهجرات التى اندفعت الى بلاد السند •

وأقام العرب أول الأمر فى مدن السند الكبرى مثل المحفوظة والمنصورة والبيضاء أو الدبيل • وبدءوا يحتكون بأهل البلاد عن طريق التزاوج • ويبدو أن التزاوج بين العرب وأهل السند كان مقصورا على الطبقات التى يعتبرها البراهمة طبقات منبوذة ، لأن الطبقات الممتازة عاشت حياة اجتماعية مغلقة وأباح لها الاسلام حرياتها الدينية ، فاستمسكت بها الى أبعد الحدود • وعاشت منطوية على نفسها • وكان الاختلاط أغلبه بعناصر الجات • وقد أعجب العرب بحسن نساء الجات وجمالهن فأقبلوا على الزواج منهن • نسب الى بعض الشعراء رجزا مشهورا مطلعه (١) :

علقت خودا من بنات الزط

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٤١ •

وهذا الاندماج بين العنصر العربى الوافد والعناصر الهندية صاحبة البلاد لم يكن سريعا كما حدث فى البيئات الاسلامية الأخرى ، كمصر أو المغرب أو الاندلس • والدليل على هذا أن العصبية العربية كانت لا تزال على قوتها فى السند حتى مستهل القرن الرابع ، فى حين كانت قد ذهبت ريحها فى أغلب البلاد الاسلامية • لهذا لم يلعب المولدون الهنود دورا بارزا فى الحياة الاسلامية هناك ، على حين كان المولدون فى جميع الأمصار قد أصبح التاريخ الاسلامى تاريخهم منذ القرن الثالث الهجرى • واندفعوا وراء الحركات الاستقلالية يشجعونها • ولو كانت السند قد اكتسبت صبغة عربية واضحة وأسرع التوليد فيها كما أسرع فى البلاد الأخرى لكان لها شأن فى تاريخ الحضارة الاسلامية فى الهند •

والتطور الثانى الذى شهدته بيئة السند نفسها فى هذا الدور هو نشأة مدرسة السند الاسلامية ، شأنها شأن مدارس الأمصار التى نشأت فى أعقاب الفتوح العربية • وقد شهدت البلاد هجرة العلماء والفقهاء والمحدثين واقامتهم بها كنواة أولى للمدرسة العربية• وكان بعض الفاتحين من العلماء كالربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تدوينا للحديث • وكان فى الجيش الذى سيره المهدى سنة ١٥٩ هـ الى السند (١) • وقد ترجم الذهبى لبعض المحدثين فى السند فى كتابه (تذكرة الحفاظ) وربما اشتدت هجرات العلماء العرب الى السند فى عهد الرشيد وحكم البرامكة الذين اهتموا بالسند اهتماما خاصا •

كما اشتد رحيل العلماء فى عهد الترجمة من العلوم القديمة والبحث عن الكنوز العلمية الدفينة • وكانت الرحلة لبث العلوم العربية والتماس علوم الهند • ويبدو أن مدرسة السند العربية لم يقدر لها الازدهار ويرجع ذلك الى بطء تقبل الهنود للحياة الاسلامية وما عرفوا به من محافظة على الموروث وتمسك به الى أبعد الحدود • وكان بطء اختلاط العرب بأهل البلاد سببا فى تأخر انتشار اللغة العربية ، وقلل براعة الهنود فيها

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٤٢ •

فلم يسهموا فى الانتاج العربى بفيض غزير كما فعلت مدرسة الفسطاط أو القيروان أو قرطبة • ويضاف الى ذلك أن السند لم تكن من الخصوبة والرخاء والاستقرار بما يمكنها من جذب المهاجرة من العلمـاء • فكانت من أفقر الولايات الاسلامية وأكثرها جدبا •

على كل حال كان دور الهند فى الثقافة العربية غير واضح وضوحا كافيا ، بل يكاد ان يكون غامضا الى أبعد الحدود • والسبب فى هذا انقطاع صلة السند بالخلافة العباسية بعد عهد الواثق وضعف صلاتها بالخلافة العباسية ثم انقطاع هذه الصلات تقريبا فى ظل التناحر العنصرى من ناحية والحكم الاسماعيلى من ناحية أخرى • وقد رحل المؤرخ المسعودى الى السند فى مستهل القرن الرابع الهجرى • ولم يرد فى وصفه البلاد أية اشارة الى حركة علمية مزدهرة أو الى علماء ذوى فضل ونباهة ذكر (١) •

وامتد أثر الهنود خارج حدود بلادهم وأسهموا فى الحياة الاسلامية العامة • وقد اتخذ هذا الاسهام مظاهر متعددة • فالسبى الكثير من الهنـد وقع فى أيدى العـرب الذين لم يكفوا عن الغـزو والتوسع حتى عهـد المعتصم • لهذا انتشر السبايا فى البلاد الاسلامية كلها وأصبح الدم الهندى من الدماء الكثيرة التى أسهمت فى تكوين المجتمع الاسلامى وتكوين جيل من العرب المولدين أمهاتهم من السند • ولعل البارزين منهم كان يدفعهم هذا النسب الهندى الى مزيد من الاهتمام بأمور تلك البلاد والوافدين منها •

أما الأسرى الكثيرون الذين جلبـوا من السـند بعد ان غنموا فى الحـرب ووزعوا على الجند فقد اعتنقوا الاسلام ونالوا العتق وارتبطوا برابطة الولاء بالأسرات العربية والهندية • وقد نبغ من هؤلاء الموالى السنديين الشاعر ابو عطاء السندى الذى شهد الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية • وكان أبوه سنديا لا يعرف العربية ، أما ابو عطاء فضرب فى فن الشـعر بسهم وافر رغم احتفاظه باللكنة الهندية فى النطق والحديث (٢) •

---

(١) المسعودى • مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧٦ — ٣٧٩ •

(٢) نظر ترجمته فى الأغانى جـ ١٦ ص ١٨ وطبقات الشعراء لابن قتيبة •

وقد مدح المنصور ولم يظفر بتشجيع العباسيين لأنه قال شعرا كثيرا في مدح بني أمية .

وبرع من هؤلاء الموالى المجلوبين من السند أيضا فى علوم اللغة ابن الاعرابى ، وكان أبوه زياد عبدا سنديا . وكان ابن الأعرابى من أعلام اللغة ومن أغزر اللغويين انتاجا حتى لقد قيل ان مؤلفاته كانت تحمل على ابل لكثرتها . ولم يبق من كتبه الا كتاب فى أسماء البئر وصفاتها وكتاب فى أسماء الخيل وأنسابها . كما ألف كتابا سماه كتاب الأنواء (١) . واشتهر فى علوم الحديث منهم أبو معشر نجيح السندى صاحب المغازى وقد سمع نافعا ونفرا من التابعين .

وثمة فريق آخر من الهنود لم يذكر شيء عن أصلهم الأول وأغلب الظن انهم من أهل السند المسلمين الذين شدوا الرحال الى عاصمة الدولة للاستزادة من العلم أو للافادة من الحركة الاسلامية الدافقة التى ظهرت فى العصر العباسى الأول .

وقد تخصص مترجمون منهم برعوا فى اللسانين العربى والسنسكريتى واشتغلوا بالترجمة من السنسكريتية الى العربية . ومن أشهرهم الفزارى الذى ترجم كتابا فى الفلك (٢) . وقد ترجمت معارف كثيرة عن الهندية على يد هؤلاء الهنود المتخصصين ولا بد أن أعدادهم قد تزايدت وحركتهم قد اشتدت فى عهد المأمون . ممن اشتهر بالطب من أهل السند ولم يرد ما يدل على أنه كان من الموالى ، صالح بن بهلة الهندى . وقد ورد أبوه بهلة على العراق وأقام بها ثم اعتنق الاسلام وأنشأ ابنه صالح عارفا بالطب خبيرا بلسان العرب (٣) .

وبدأ كثيرون من الهنود غير المسلمين يرحلون الى بغداد عاصمة

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٤٤ .
(٢) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٥٥ .
(٣) القفطى : أخبار الحكماء ص ٢١٥ .

الخلافة اما حبا فى الرحلة واما عرضا لما عندهم من علم أو بناء عن استدعاء من الخلفاء • وقد جاء وفد من الهند فى عهد المنصور سنة ١٥٤ هـ • وبينهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء الهند واسمه برهيكيت وكلفه المنصور املاء مختصر لكتابه وأمر بترجمته الى اللغة العربية وعمل منه زيج استخدمه العرب حتى عهد المأمون (١) •

كما وفد كثيرون من الأطباء اشتهر منهم فى عهد الرشيد صالح بن بهلة الهندى الذى اشرنا اليه • ويروى الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكى جلب أطباء من الهند مثل (منكه) وبازكير وقلبرقل وسندباد (٢)• وكان هؤلاء الأطباء يحملون معهم كتبا وصحفا فى مواضيع شتى • وكان العلماء يخالطونهم ويسألونهم فى مختلف المسائل (٣) •

ومن حسن الحظ أن الثقافة السندية التى عاصرت العباسيين وأفادوا منها بالصورة التى سنبينها كانت لا تزال تجتر الكثير من مظاهر النهضة التى وضحت منذ العصر الكبتى الثانى ومنذ حكم الملك هرشا • هذه النهضة التى جددت البرهمية القديمة ونشأت برهمية جديدة تتصدى للبوذية وتنافسها • وصحب ذلك حركة علمية عميقة الجذور لم تغب عن انظار الرحالة من أهل الصين الذين زاروا الهند ، أما فى عهد آل كبتا كما فعل ناهيان واما فى عهد هرشا كما فعل هيوان تسنغ • والرحالة فاهيان استرعى نظره ما رآه بالهند من مدارس وجامعات (٤) خصوصا جامعة تكسيلا فى مدرستها الطبية المشهورة • والحق ان الهند حفلت بالجامعات القديمة التى ذاع صيتها فى العالم كله مثل جامعة يوجين الفلكية

---

(١) أحمد امين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٠ •

(٢) أحمد امين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٥٩ •

(٣) Price, p. 75-76

(٤) الساداتى جـ ١ ص ٤٤ •

وأجانتا الطبية وبنارس البرهمية ونالانده البوذية (١) • كما أشار الرحالة هيوان الى النهضة التعليمية العظيمة (٢) والى الجامعة البوذية الكبيرة التى أشرنا اليها حيث كان يتلقى العلم بها نحـو عشرة آلاف طالب • وكانت مفتوحة الأبواب أمام جميع الاجناس والديانات • وكانت هنـاك جامعـة أخرى فلا بنهى • وقد برع بعض الملوك فى الأدب فكان هرشا نفسه أديبا مرموقا كتب فى الاجرومية السنسكريتية ونظم الشعر وألف القصص • وقد بقيت ثلاثة من مسرحياته • وقد انتعشت الثقافة الهندية انتعاشا عظيما فى عهد هرشـا ، فقد كان عهـده عهـد سـلام وطمـأنينة • وأصبحت السنسكريتية لغة الأدب • وفى العصر الكوبتى عاش شـاعر الهند العظيم كاليداسا (٣) • ويقال ان قصيدته الشهيرة « ميغادوتا » قد ألفت فى عصر شندرا كوبتا الثانى • كما نسبت اليه أعظم قصة فى الأدب الهندى القديم • وحفل الأدب الهندى بالكثيرين من أمثاله •

وتطورت علوم الديانة والفلك وظهر أعظم الرياضيين فى اهاماهيرا • وكان الفلكيون الهنود قد سبقوا الى اثبات دوران الأرض حول محورها ، وأعلنوا عن كرويتها وعللوا أسـباب الكسـوف والخسـوف والانقلابين والاعتدالين فى الفصول الأربعة • كما قسم الفلكيون الهنـود السـنة الى اثنى عشر شهرا (٤) ، وكل شهر الى ثلاثين يوما • وحسبوا بدقة بالغة مواقع النجـوم وقوانين الجاذبيـة ، كما ابتكروا فكرة السـلبية فى الجبر وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق • وأحاط الأطباء منهم بتشريح الجسم ووظائف الأعضاء والأنسجة ، كما استخدموا ضروبا من المخـدر استعانوا بها على الجراحة (٥) • كما ظهر أعلام الفلسفة الهندية ونذكر

---

(١) Price. p. 82

(٢) Price, p. 76

(٣) Price, p. 76

(٤) المسعودى : المروج جـ ١ ص ١٤٩ •

(٥) الساداتى جـ ١ ص ٤٥ •

منهم سانكارا ورامانوجا (١)• وظهر العلماء الموسوعيون الذين برعوا فى الشعر والبلاغة والفلسفة والفلك والعمارة والطب والكيمياء والموسيقا والفنون •

وقد شرع العلماء المسلمون بعد أن ترجمت المعرفة الهندية وأسهمت في تكوين الفكر الاسلامى فى وصف هذه الثقافة والحديث عن أصالتها والاشادة بفضلها على الفكر العربى فقال الجاحظ « اشتهر الهند بالحساب وعلوم النجوم وأسرار الطب والخراط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبه » (٢) • وذكر المسعودى أن الهند كانت فى قديم الزمان الغرة التى فيها الصلاح والحكمة « وأدرك مكانتهم فى الالهيات والرياضة » فقال : « والهند فى عقولهم وسياستهم وحكمهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم ومضاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان » (٣) • وقال الأصفهانى فى محاضرات الأدباء : « ان الهند لهم معرفة بالحساب والخط الهندى وأسرار الطب وعلاج فاحش الأدواء » وقال القفطى (٣) « والهند هم الأمة الأولى كثيرة العدد ضخمة الممالك قد اعترف لها بالحكمة واقر بالتبريز — فى فنون المعرفة — كل الملل السابقة » • وقد وصف البيرونى ديانة الهند وصفا دقيقا وكان عالما بالسنسكريتية ، عاش فى الهند زمنا طويلا وخبر أحوال أهله وألف فى ذلك كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » •

فما هو الأثر الذى تركته هذه الثقافة الهندية فى الثقافه العربيه الاسلامية ؟ كان تأثير الهند فى نواح أهمها : الرياضيات والحساب والنجوم والالهيات والأدب والطب : ففى العلوم الرياضية والفلك والحساب أخذ المسلمون عن الهند قبل اتصالهم الوثيق بالفكر الاغريقى • ففى سنة

---

(١) Advanced Hist. of India, p. 210

(٢) رسائل الجاحظ ص ٧٣ •

(٣) انظر الباب السابع من كتاب مروج الذهب جـ ١ ص ١٤٨ — ١٧٨ •

(٤) ص ٢٢٦ •

١٥٤ هـ قدم بغداد رجل هندى متضلع فى العلوم الرياضية ومعه رسالة فى الفلك تدعى « سدذانتا » واسمها • « السند هند » فترجمها محمد بن ابراهيم الفزارى بأمر المنصور واتخذها العلماء مثالا يحتذونه (١) •

واطلاع العرب على السند هند كان بداية لتطور هام فى تاريخهم • وقد تعلم العرب الأرقام الهندية من ترجمتهم كتاب السند هند ، اذ يحتوى البابان الثالث عشر والعشرون منه على بسط وبيان تلك الأرقام • وهى الأرقام المعروفة عند العرب « بالأرقام الهندية » وعند الافرنج « بالأرقام العربية » لأنهم أخذوها من عرب الأندلس •

على كل حال استطاعت الهند أن تمد العرب بأفكار جديدة ، كما أمدها العرب بأفكار لم تكن موجودة عندهم • فقد اغتنم البيرونى فرصة اقامته الطويلة بين الهندوس فتبادل معهم معارف مدرسة بغداد ، وتقاليد الهند القديمة والحديثة •

وقد ترجم العرب كتابين آخرين فى علم الهيئة هما « الأرجبهر » و « الأركند » ، نقل الأول أبو الحسن الأهوازى والثانى يعقوب بن طارق فى سنة ١٦٢ هـ (٢) •

وقد أخذ العرب الاصطلاحات الرياضية من الهنود كلفظة «الجيب» فى حساب المثلثات ، كما اقتبسوا كثيرا من نظريات الهند فى الحساب والهندسة • وقد شرح أحمد النسوى فى كتاب «المقنع فى الحساب الهندى» قسمة الكسور واستخراج الجذور المربعة فى طريقة تقرب من الطريقة الحديثة • وقد اعتمد على الأرقام الهندية •

ومن المبرزين فى الرياضة والفلك عند العرب ممن تأثروا بالثقافة الهندية محمد بن ابراهيم الفزارى ، وهو أول من عمل اسطرلابا فى

---

(١) حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٤٥٦ ــ ٤٥٨ •

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ٢ ص ٢٦٣

الاسلام ، كما نقل « السند هند » الى العربية ، ومحمد بن موسى الخوارزمى ، وهو أبرز شخصية فى تاريخ الرياضيات القديمة عند العرب • وقد وضع كتاب « حساب الجبر والمقابلة » (١) • وما من عالم بالفلك من علماء المسلمين أراد التوسع فى علم النجوم والرياضيات الا طالع الكتب الهندية • وأكثر المسلمين عناية فى ذلك وأكثرهم اطلاعا على آداب الهند وعلومهم محمد بن احمد البيرونى الذى طوف بالهند واطلع على علومهم وآدابهم ونقد كتبهم فقال فى كتابه تحقيق ما للهند من مقولة : « انى ما أشبه ما فى كتبهم من الحساب ونوع التعاليم الا بصدف مخلوط بخزف أو بدر ممزوج ببعر أو بمهى معطوب بحصى ، والجنسان عندهم سيان ، اذ لا منال لهم لمعارج البرهان » • وقد ألف البيرونى كتبا كثيرة منها « الآثار البادية » وجوامع الموجود فى خواطر الهنود فى حساب التنجيم ، وكتاب فى المدارين المتحدين والمتساويين ويسمى « خيال الكسوفية عند الهند » وعمل تذكرة فى الحساب والعد بأرقام السند والهند فى ثلاثين ورقة كما هذب زيج الأركند (٢) •

ومن العلوم التى نقلها العرب عن الهند الالهيات أو المقالات الدينية أو الفلسفة الدينية • كان للهند فلسفة تختلف عن الفلسفة اليونانية ، فالأولى امتزجت امتزاجا تاما بالدين ولم تتدرج من المحسوس الى المعقول، ولم تنهج النهج العلمى الذى يتطلب التعبير بالحقائق الا بالمجاز ، بخلاف الأخرى فانها حاولت جهد طاقتها أن تعبر التعبير العلمى • الأولى حددت الغرض من الفلسفة بأنه خدمة الانسان ، أما الثانية فكانت تطلب المعرفة للمعرفة (٣) •

وقد أطال البيرونى فى وصف الفلسفة الدينية للهند من الاعتقاد بالله

---

(١) حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٤٦٣ •

(٢) حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٤٦٠ •

(٣) احمد أمين : الاسلام جـ ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ •

والموجودات العقلية والحسية وتعلق النفس بالمادة والأرواح وتناسخها ومواضع الجزاء من الجنة والنار وكيفية الخلاص من الدنيا • ومنبع السنن والنواميس والرسل ونسخ الشرائع وقارن فى كثير من المواضع بين عقائد الهند والاسلام والصوفية والنصرانية والفلسفة اليونانية والافلاطونية الحديثة (١) •

ومن خواص الهند التى تركت أثرا كبيرا فى المسلمين مسألة «تناسخ الأرواح» قال البيرونى : « كما أن الشهادة بكلمة الاخلاص شعار ايمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والاسبات علامة اليهودية • كذلك التناسخ علامة النحلة الهندية فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد من جملتها » (٢) • وقد لعبت نظرية التناسخ دورا هاما فى الفلسفة اليونانية وفى الديانات المانوية وفى المذاهب الاسلامية وفى التصوف والنصرانية • كما أن كثيرا من عقائدهم فى الحلول ووحدة الوجود دخلت فى التصوف الاسلامى • وقال صاحب الفخرى عن الراوندية انهم قوم من أهل خراسان كانوا يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم انتقلت الى رجل من كبارهم •

ومن مذاهب الهند القائلة بالتناسخ مذهب السمنية نسبة الى « سومنات » وهو اسم صنم • وقد عرف علماء المسلمين السمنية وناقشوهم طويلا فى كتب التوحيد أو علم الكلام وأكثر مناقشتهم كانت حول نظرية المعرفة (٣) •

وقد لخص صاحب كشاف مصطلحات الفنون مذهبهم هذا بقوله : « انهم يقولون بأنه لا يفيد العلم الا الحس » وبهذا يكونون قد سبقوا لوك ومن تبعه اذ يقولون « ان أداة المعرفة الصحيحة هى الادراك بالحس

---

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٤٩ •
(٢) البيرونى ص ٢٤ •
(٣) ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٤ •

وكل الأفكار الجليلة الراقية التى تفوق السحاب رفعة ، وتعلو علو السماء ، انما أصلها الحواس • يسبح العقل مسافات بعيدة ويفكر ويتأمل تأملات رفيعة وهو فى كل هذا لا يخرج قيد شعره عما أمدته به الحواس أو التأمل (١) • وهم يعارضون فى ذلك نظرية الذهنيين أو العقليين الذين يرون أن بعض المدركات ليس سببها الحواس انما سببها الادراك العقلى المحض كما فى الرياضيات أو الالهيات • وقد أثر أن السمينة كانوا يقولون « ان العلم أو المعرفة لا تحصل الا من باب الحواس فكل علم ليس أساسه الحس لا يكون علما صحيحا ، أما النظر المجرد غير المؤسس على الحس فلا يفيد علما سواء كان ذلك فى الالهيات أو غيرها » • والبيرونى فى المعتقدات الدينية الغريبة وخاصة فى الأديان الهندية آراء ، فقد أدرك أن المعتقدات الدينية مردودة لأسباب واحدة فى كل مكان • وكان يهتم بالفرق بين دين الخواص ودين العوام ولا يعترض ولا ينقد حينما يشرح العقائد الدينية بل يحافظ ما أمكن على العبارات التى يستعملها معتنقو كل دين ، واذا قارن دينا بدين آخر فانما يقارنهما مقارنة علمية محضة •

ومن العلوم التى ازدهرت فى بغداد الطب فقد كان فيها أطباء هنود يمثلون الطب الهندى بجانب الطب اليونانى • وكان قصب السبق فى هذا الميدان ليحيى بن خالد حفيد أبى خالد الذى نشأ فى بلاد قشمير وتعلم هناك « النجوم والطب » وأنواع الحكمة • وهو الذى جلب من الهند علماء وأدباء أمثال بهلة ومنكة وسندباد ، الذين أقاموا ببغداد • وربما أسلم بعض أولادهم مثل صالح بن بهلة ، وهم الذين عرفوا العرب الطب والبلاغة •

على أن أهم ما ينسب الى يحيى بن خالد أنه بعث رجلا الى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة فى بلادهم ، وأن يكتب له فى أديانهم • والتقرير

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٤ •

الذى وضعه هذا المبعوث ، ظل المرجع الذى اعتمد عليه العرب طيلة قرنين حتى ظهور ابى الريحان البيرونى • وقد أشار ابن النديم الى ذلك بقوله: « الذى عنى بأمر الهند فى دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة واهتمامهم بأمر الهند واحضارهم علماء طبها وحكمائها •• وهو مبعث هذه النزعة الى الهند وعلومها فى نفوس البرامكة » وقال ابن النديم أيضا « ان بلخ من اقليم خراسان وما وراء النهر ، كان أكثر ما وراء النهر قبل الاسلام على هذا المذهب أى البوذية » (١) • كما ذكر ابن النديم أن يحيى أمر بتفسير كتاب (سمرد حنكه) الهندى فى البيمارستان • ولم يقتصر فضله على الطب ، انما امتد الى مختلف فروع النهضة الثقافية • ومن أشهر أطباء الهند فى عهد الرشيد صالح بن بهلة الهندى (٢) • قال جعفر بن يحيى البرمكى لهارون الرشيد وقد مرض ابن عمه ابراهيم بن صالح فرآه جبريل بن بختيشوع وأخبر الرشيد بأنه لا أمل فى شفائه وسيموت فى المساء : يا أمير المؤمنين جبريل طبه رومى ، وصالح بن بهلة الهندى فى العلم بطريقة أهل الهند فى الطب مثل جبريل فى العلم بمقالات الروم • فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر باحضاره ويوجهه الى ابراهيم ابن صالح ليفهمنا عنه فعل » (٣) • وقد شفى ابراهيم بن صالح على يد صالح بن بهلة الهندى ومنحه الرشيد جائزة سنية وقربه اليه (٤) •

ومن أشهرهم أيضا منكة الذى قدم الى بغداد ونجح فى علاج الخليفة وحظى عنده ، وبقى يشرف على نقل الكتب من اللغة السنسكريتيه الى العربية • ومنهم أيضا صنجهيل وباكهر وغيرهما • وقد نقلت كثير من مؤلفاتهم فى النجوم والطب الى اللغة العربية رأسا ، أو نقلت الى الفارسيه ومنها الى العربية ، مثال ذلك كتاب سيرك الهندى فقد نقله من الفارسية الى

---

(١) أحمد أمين ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٤ •

(٢) أحمد امين ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٤ القفطى : أخبار الحكماء ص ٢١٥ •

(٣) أحمد أمين ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٤ •

(٤) أحمد أمين ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٨ •

العربية عبد الله بن على وكتاب آخر فى علامات الأدواء ومعرفة علاجها أمر يحيى بن خالد البرمكى بترجمته • وكتاب آخر فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحار والبارد وقوى الأدوية وكتب أخرى فى الطب •

ومن مشاهير الهنود شاناق ، وله كتاب فى السموم من خمس مقالات نقله من السنسكريتية الى الفارسية منكه الهندى ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبى حاتم البلخى بنقله الى العربية • ولجودر الحكيم كتاب فى المواليد نقل الى العربية أيضا •

ومن العلوم التى تأثرت بالثقافة الهندية الأدب ، فقد كان عند الهنود نحو وصرف وشعر • وكان للهنود ولع بالشعر والنظم حتى شكا البيرونى من نظمهم لقواعد الرياضة والفلك لأن ذلك يخرجهم أحيانا عن ضبط القواعد وما يستلزم ذلك من دقة فى التعبير لا يتسنى فى النظم ، ووضعوا للشعر بحورا وأوزانا عكف البيرونى على دراستها وبينها فى كتابه ثم قال : « ومن الممكن أن يكون الخليل بن أحمد سمع أن للهند موازين فى الأشعار كما ظن بعض الناس » (١) •

وقد استفاد الأدب العربى من الهند أمورا منها : أن ألفاظا هندية عربت ، وقد كان ذلك أيام العرب الذين تاجروا مع الهند ونقلوا سلعا هندية وحملوا مع هذه السلع أسماءها• وهناك ألفاظ هندية عربت وورد بعضها فى القرآن مثل زنجبيل وكافور والأبنوس والببغاء والخيزران • والأهليج وغير ذلك من أسماء النباتات والحيوانات الهندية (٢) •

يضاف الى ذلك آراء فى الأدب والبلاغة نقلت عنهم • فالذين أتوا بغداد من الأطباء الهنود جلبوا معهم كتبا فى موضوعات غير طبية • وكان العلماء يخالطونهم ويسألونهم فى جميع المسائل • وكان هنالك تراجمة

---

(١) البيرونى ص ٧١ •

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٨ •

يترجمون من السنسكريتية الى العربية • وكان عند العرب شغف لمعرفة ما عند كل أمة من جديد فى ميدان العلم • وقد اقتبس البلاغيون من الهنود ما سموه « بمقتضى الحال » (١) • وقد قارن التنوخى (٢) بين بلاغة الهند وبلاغة العرب بأن الأولى مطنبة مسهبة والثانية مختصرة موجزة •

وتأثر العرب بالقصص وأولعوا به وكان كليلة ودمنة هندى الأصل نقل الى الفارسية ثم نقل من الفارسية الى العربية مع زيادات على الأصل الهندى • وعندما نظم أبان بن عبد الحميد اللاحقى كليلة ودمنة افتتحه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنة — وهو الذى يدعى كليلة ودمنة
فيه احتيالات وفيه رشد — وهو كتاب وضعته الهند

وقصة السندباد هندية الأصل نقلت الى العربية ، وذكر ابن النديم فى الفهرست كتبا كثيرة للهند فى الخرافات والأسفار والأحاديث ، منها كليلة ودمنة والسندباد الكبير والسندباد الصغير ، وكتاب هابل فى الحكمة، وكتاب الهند فى قصة هبوط آدم وكتاب حدود منطق الهند ، وكتاب ملك الهند القتال والسياح ، وكتاب شاناق فى التدبير وكتاب بيدبا فى الحكمة (٣)

كما أن فى كتاب ألف ليلة وليلة قصصا دل البحث على أن أصلها هندى ، هذا الى قصص صغيرة تناثرت فى الكتب العربية وأغلبها نقل عن الهنود (٤) •

وقد أخذ العرب عن الهنود الكثير من الحكم ، وهو فن يتفق والذوق العربى ، لكنه أشبه بالأمثال العربية وجملها القصيرة ذوات المعانى الغزيرة التى أحبها العرب « فهى حصيلة تجارب كثيرة ركزت فى جملة بليغة

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٩ •
(٢) نشوار المحاضرة جـ ١ ص ٥٢٧ •
(٣) الفهرست ص ٣٠٥ •
(٤) أحمد أمين ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٦١ •

والعقل يميل اليها قبل أن يميل الى مثل الفلسفة اليونانية المنظمة فى أبواب وفصول وموضوعات فالبحث العميق الفصل المتسلسل لا يصل اليه العقل الا بعد أن يمر بطور يعجب فيه بالنظرات المنشورة والحكم المأثورة » (١) وقد شاعت هذه الحكم الهندية فى مؤلفات العصر • وعقد صاحب كتاب سراج الملوك فصلا فى حكم شاناق الهندى يتضمن نصحا للملوك والولاة بالعدل فى الرعية مع ضرب الأمثال وقال : « ان هذا الفصل مأخوذ من كتاب لشاناق اسمه منحل الجواهر » (٢) •

وتأثر الأدب العربى بأقوال الهنود فى علم الطبائع فقال أبو نواس :

سخنت من شدة البرودة حتى ... جرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتى ... كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة وهذا الشعر يدل على نظرة فى علم الطبائع لأن الهنود يزعمون أن الشيء اذا فرط فى البرد عاد حارا مؤذيا (٣) • كما تأثر الشعراء بأقوال الهنود فى الفلك فقال أبو نواس فى الخمر •

تحيرت والنجوم وقف ... لم يتمكن بها المدار

ولا يفوتنا أن نذكر أن الهنود هم واضعوا الشطرنج ومنهم انتشر فى العالم ومنهم أخذه المسلمون • وانتشرت هذه اللعبة عند المسلمين وقد أهدى هارون الرشيد شطرنجا الى شرلمان امبراطور الفرنجة ، واشتهر قوم بلعبه حتى نسبوا اليه مثل الصولى الشطرنجى وأبى حفص الشطرنجى • وتكون حوله أدب فارسى وأدب عربى والفردوسى نظم فيه صفحات فى شعر جميل ، ونظم العرب فيه الشعر الجميل ونظم ابن الرومى قصيدة فى أبى القاسم التوزرى الشطرنجى (٤) •

---

(١) أحمد أمين ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ •
(٢) سراج الملوك ص ٣٣١ •
(٣) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٦١ •
(٤) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٦١ •

الدور الطورانى :

كانت فتوح محمود الغزنوى المتتابعة فى الهند فيصلا فى تاريخ الحضارة الاسلامية فى تلك البلاد ، فقد كانت انهاء للدور العربى القديم وبداية للدور الجديد ، الدور الطورانى أو التركى الافغانى • ونشأت مقومات جديدة ساعدت على هذا التغير وخلقت مجتمعا اسلاميا جديدا قد يختلف فى كثير عن مقومات المجتمع الهندى فى الدور السابق •

من هذه المقومات ما يتعلق بالعنصر الجديد الذى حمل الاسلام الى الهند ، فقد حمله العنصر التركى الذى أسلم حديثا وتحمس للاسلام وانفعل به ، ذلك الانفعال غزير النبع الذى أشرنا اليه • كما حمل هذا العنصر المتحمس للاسلام عامة والمتمسك بأهداب السنة خاصة معه التقاليد الاسلامية التى هى أميل الى التزمت منها الى السماحة العربية القديمة • ولم تعد لغة التعبير الاسلامى هى عربية الأمس ، انما أصبحت الفارسية الجديدة التى ظهرت فى حجر الدولة الغزنوية • وقد فتح هؤلاء الأتراك الأفغانيون السبيل الى تدفق المتصوفة الفرس والترك • وكان العنصر التركى من ذلك الجيل قد اشرب الاسلام مع النزعة الصوفية • ولعل فتح هذا الباب قد مكن للاسلام من نفوس الهنود الذين تميل قلوبهم الى مثل هذه النزعات الصوفية • وسرعان ما غدت الهند بعد أن استقرت أحوالها وهدأت ريح الفتنة فيها موئلا لأهل العلم من المشرق الاسلامى الذين لم يطب لهم المقام فى ايران أو تركستان بسبب ما سادها من اضطرابات سياسية • وعاشوا فى الهند فى رحاب الأمراء والسلاطين بمنأى عن الفتن والاضطرابات فكانوا من عوامل اذكاء الثقافة الاسلامية فى الهند •

ولم تعد هندوكية تلك الأيام هندوكية الأمس العتيدة التى قاومت الاسلام فى عنف ، وحصرته فى اقليم السند الفقير وأفادت من سماحة الاسلام واباحته الحرية الدينية لها لتزيد انطواء على نفسها ، وبعدا عن التيار الاسلامى الوافد • لكن هندوكية اليوم كانت قد اختارت سبيل

المقاومة العنيدة التى لا تعترف اللين فأصابتها الهزائم التى ذكرت وأصيبت الحياة الهندية فى الصميم ، واهتز نفوذ البراهمة • وضاعت أغلب المعابد التى كانت قد انتشرت فى شمال الهند ، وبدأت تضيع معها بعض معالم الهندوكيـة القديمـة • فلم يكن من الطبيعى أن تقف هذه الهندوكيـة الجريحة فى وجه الاسـلام الدافق المسـتند الى حماسـة الترك وروحهم المحاربة •

وفقد الفكر الهندى ذلك الينبوع القديم الذى طالما بهر أنظار العرب فى العصر العباسى الأول ، وأفادوا منه الكثير • بل اضمحل الفكر الهندى وفقد الأدب أصالته القديمة واهتزت القيم الروحية للهند • وفقدت تلك البلاد اشعاعها القديم •

هذا والفتح التركى الجديد لم يقنع باقليم السند بعد أن طردوا منه امراءه الاسماعيلية وأخضع شمال الهنـد كله ، وأبقى على من أطاع من أمراء الهند • وانتشر المهاجرون الترك وأقاموا فى أغلب المدن • واحتلوا أمنع الحصون ، فكأنهم هذه المرة قد اقتحموا صميم الحياة الهندية • ولم يترك هذا النفوذ الاسلامى فى الهند نهبا للعزلة والضياع ، كما كان شأن السند ، انما كانت الصلة وثيقة جدا بين افغانستان وبلاد البنجاب والشمال الهندى • ولم يفقد السلاطين اهتمامهم بالهند رغم اقامتهم خارج حدودها فى بعض الأحيان فكان لهم نوابهم الحريصون على تنفيذ سياستهم ، كمـا قامت سلطنات اسلامية فى حواضر هندية مكتسبة الكثير من مقومات الحياة الهندية •

ولم يعد للهند الاسلامية دور تؤديه خـارج حدودها شـبيه بالدور الذى لعبه أهل السند فى تاريخ الاسلام فى الدور السابق • انما اصبحت عملية الامتزاج الحضارى بين المقومات الوافدة والمقومات القديمة فى أرض الهند ذاتها •

ثم بدت فى هـذا الدور ظروف أو أسـباب جعلت الهنـد تطرح

بالتدريج سياسة العزلة القديمة . وبدأت مقـومات الاختلاط بين الثقافة الاسلامية الوافدة مع الترك ، والمقـومات الهندية الأصيلة تمهيدا لظهور ما يمكن أن نسميه بالحضارة الاسلامية (١) .

من هذه الأسباب أن الاسلام منتهزا فرصة انهزام الهندوكية وضعفها وتداعي نفوذها فى شمال الهند ، بدأ ينتشر انتشـارا على نطاق واسع . ولم يعد غزوه مقصورا على الطبقات المنبوذة وحدها ، انما بدأ يغزو الطبقات الممتازة نفسها (٢) . واشتد ظهور جماعات المولدين التى كانت من أهم عوامل الاندماج بين التقاليد الهندية والاسلامية . وكان يشد من أزر هذا الانتشار أن انجابت هزة الجيل الأول من الغـزاة الترك وبدأ السـلاطين يظهرون مزيدا من التسامح مع شعب لم ينعم بحـرية العبـادة كاملة فى بلده (٣) .

ومن الأسباب الأخرى التى شدت من أزر هذا التقارب استخدام الهنود على نطاق واسع فى وظائف الدولة . لا شك فى أن الترك احتكروا المناصب الكبرى كمنصب السلطنة مثلا ، لكن سرعان ما وصل الهنود الى أرفع المراتب فى الدولة ، فتولوا مناصب الوزارة والكتابة والقيادة . كما اعتمدت الحكومة فى السلم الوظيفى على أغلبيـة هنـدية واضحة . حتى أصبحت الحكومات تركية الرئاسة فقط هندية فى الواقع (٤) .

وأهم هذه الأسباب أن الهنـدوكية لم تسـتطع أن تبتلع الحضـارة الاسلامية وتذيبها فى بوتقتها الهائلة ، كما أذابت الاغريق والساكا والهون من قبل . فاضطرت الهندوكية بعد استعصاء التقاليد الاسلامية على الذوبان أن تأخذ وأن تعطى (٥) . وقد تأثرت الهندوكية فى الحقيقة بناحيتين نتيجة

---

(١) لوبون . حضارة الهند ص ٤١٧ .

(٢) Advanced Hist. of India, p. 201

(٣) Rawlinson, p. 2000 الساداتى ج ١ ص ٢٥٢ .

(٤) Advanced Hist., p. 390; Rawlinson, p. 244

(٥) Advanced Hist., p. 401; Rawlinson, p. 242

احتكاكها بالاسلام • فقد أثارت روح الاسلام التبشيرية نوعا من التزمت بين زعماء الهنادكة • وبدءوا مرة أخرى يطورون شرائعهم لتقاوم هذا الخطر الشديد ، كما طوروها بالأمس لتتصدى للبوذية وتنتصر عليها • كما بدأت بعض المبادىء الديموقراطية الاسلامية تتسرب الى الحياة الاجتماعية الدينية عند الهنود وظهرت حركات تحررية • وظهر كثيرون من المصلحين الذين دعوا الى المساواة بين الأديان ووحدة العقيدة وأن قدر المرء ليس بنسبه انما بعمله • وهاجموا الطقوس البرهمية الجافية (١) •

ومن أمثال هؤلاء نامديو كبير ونانك اللذين أنكرا عبادة الأصنام والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأيامى وممارسة عادة الساتى والطبقية الجامدة ، وقالوا بأن الله هو رب الناس جميعهم (٢) •

وكان من أثر ذلك كله مضافا اليه ان الحضارتين عاشتا جنبا لجنب القرون الطويلة أنه لا بد أن يوجد نوع من التقارب وأن يؤثر كل منهما فى الآخر (٣) • وقد كان كل منهما يحترم تراث الآخر وثقافته منذ دخول العرب الهند للمرة الأولى • وبدأ الهندوس يحترمون أولياء المسلمين خاصة المتصوفة منهم ، ويحتفلون بالأعياد الاسلامية ، كما بدأ المسلمون يحترمون رهبان الهند وحكماءها • كما أقبل المسلمون على دراسة الفلسفة الهندية بفهم جديد خاصة اليوجا والفدانتا • واستعار الفلكيون الهنود الكثير من المصطلحات الاسلامية التى نقلها عرب الجيل الأول • ونشأت اللغة الأردية التى هى خليط من الهندية والعربية والفارسية والتركية • المهم أن كلا من الغالب والمغلوب تأثر بالآخر ، وتم ما يمكن أن نسميه توطن الحضارة الاسلامية فى الهند ، واكتسبت طابعا هنديا مع الاحتفاظ بروحها وجوهرها •

---

(١) Advanced Hist. of India, p. 401

(٢) الساداتى ج ١ ص ٢٦٣

(٣) Advanced Hist. of India, p. 401

(٤) Pawlinson, p. 244

ويمكننا أن نبين في ايجاز معالم الحضارة الاسلامية التي ظهرت في هذا الدور ، وما اذا أفاد الهنود منها ، والى أي حد أسهموا في بنائها ؟ ومما يلاحظ مثلا ان المجتمع الهندي قد تأثر بعمق بعادات الأتراك القادمين وتقاليدهم ، فشاعت الأزياء الاسلامية واحتفل الناس بأعياد المسلمين ومواسمهم (١) . وانتشر الحجاب بين الطبقات العليا من الهنود الذين بقوا على دينهم . كما أفاد المجتمع الهندي من الحرب الطبقية التي أعلنها الأتراك المسلمون على الطبقية الجامدة . وتحرر الكثيرون من أفراد الطبقة المنبوذة . وفتحت أمامهم آفاق العمل السياسي والاقتصادي . واختلطت دماؤهم بدماء المسلمين الوافدين . ولعب المولدون دورا بارزا في الحياة الاجتماعية ، وان كانوا قد احتفظوا ببقية من تقاليد الهند القديمة . وقد ظل كثيرون منهم يأنفون من أكل لحوم البقر أو الزواج من الأيامى (٢). واستطاع الاسلام أن يخفف من غلواء الكثير من الانحرافات الاجتماعية التي شاعت في بيئة الهند ، وذلك بابطال بدعة عدم الزواج من الأرامل وتحريمه بدعة للساتي .

وجلب الوافدون معهم التقاليد الاسلامية الموروثة في نظم الحكم . وكانت السلطنات التي نشأت في الهند تقليدا للسلطنات الأخرى التي عرفتها الحياة الاسلامية فحافظوا على التقاليد نفسها في الولاية على البلدان والتنظيم الاداري . فكانت الأقاليم الكبرى يعهد بها الى نواب السلطان . وكانت الولاية تقسم الى أقسام أصغر يتولاها المقطع أو العامل ثم الشقدار. وكان لنائب السلطان السلطات الادارية نفسها التي كانت للسلطان . كما حافظوا على التقاليد نفسها التي عرفها المجتمع الاسلامي عن النظم المالية، فطبقت السلطنات فقه ابي حنيفة في الأموال. وكانت أهم الايرادات من الخراج وخمس الغنائم والجزية على غير المسلمين والعشور والصدقات. ونظم ديوان الخراج الذي يسمى مستوفي ممالك ويشرف على نفقات

---

(١) Rawlinson, p. 244

(٢) Rawlinson, p. 244

الدولة ومستوفى ممالك آخر يراقب الدخل والمنصرف ، والمجمودار الذى يشرف على مستحقات الدولة وخازن بيت المال • وعرفت الحكومات الاسلامية منصب صاحب ديوان الجند وأمير البحر • واعتمد التنظيم العسكرى على الاقطاعية العسكرية التى عرفها اتراك القرن الرابع الهجرى • وكان الجيش الاسلامى فى الهند يتألف من حرس السلطان وجيش الحضرة والفرق الهندية ثم جيوش المقطعين التى يجندونها كلما حدث اشتباك مسلح •

ولم تختلف النظم القضائية كثيرا عما عرفته الحياة الاسلامية • فكان هنالك قاضى القضاة يساعده بعض القضاة الأصاغر ويسمون بالمفتيين ، ثم المحتسب وصاحب الشرطة ويسمى الكتوال وصاحب البريد • هذا النموذج من الحكومة ذات السلطات السياسية والدينية وذات الطابع العسكرى الاقطاعى أصبح النموذج المثالى فى نظم الحكم الذى يحقق الادارة الناجحة والحكومة المستقرة ويرضى جماهير الناس • فكان فى نظر الهنود من المسلمين وغيرهم النموذج الصالح فى الحكم • وقد قلدته الامارة الهندوكية خاصة امارات الراجبوت (١) •

وقد شهدت الحياة الاسلامية فى الهند نشاطا خصبا للأدب الفارسى بدأ بفاتح الهند محمود الغزنوى الذى امتلأ بلاطه بالشعراء والمؤرخين منهم البيهقى والمعتبى وأبى الريحان والفارابى ونهج خلفاؤه على منواله • وأصبحت اللغة الفارسية لغة البلاط فى سلطنات الهند الاسلامية • شهدت الهند ظهور مدرسة قوية للأدب الفارسى هى مدرسة دهلى التى عملت على تشجيع الأدب الفارسى واذاعته بين الناس وأصبحت دهلى فى مستوى بخارى وسمرقند • وشجع الملوك أدباء الفرس الذين رحلوا الى الهند • كما أنشأ الملوك المدارس والمكتبات (٢) •

---

(١) Advanced Hist. of India, p. 396

(٢) Ibid., p. 409

هذا وكانت لغة التأليف والكتابة هى الفارسية ، وألف خسرو الدهلوى مؤلفاته بالفارسية مثل اعجاز خسروى وخزانة الفتوح • وعاصر الدهلوى بدر الدين المعروف ببدر شاخ والقاضى عبد المقتدر الشانهى • واشتهر من كتاب النثر مولانا خواججى واحمد تنيسرى وعين الملك الملتانى • ومن المؤرخين أبو عمر عثمان منهاج السراج صاحب طبقات ناصرى • وضياء الدين برنى صاحب تاريخ فيروز شاه • واشتغل كثيرون بالحكمة والفلسفة والفقه مثل القاضى شهاب الدين الدولتابادى ، والفقيه اله داد والفيلسوف مغيث حسنوى (١) • وبذلك نافست مدرسة دهلى القاهرة وبغداد (٢) •

ويبدو أن النهضة الفارسية لم تشمل المسلمين فحسب ، بل كانت من العمق والقوة بحيث شملت الهنود أنفسهم • وبدأ بعض الكتاب الهنود يكتبون بالفارسية كما فعل راى باناامال (٣) •

وقد نشأت اللغة الاردية من أثر ذلك الاختلاط بين المؤثرات الفارسية والهندية فهى من لهجات غرب الهند المختلطة بمفردات عربية وفارسية وتركية (٤) ، ثم انتقلت اليها النهضة الأدبية فكتب المسلمون بالاردية عن تقاليد الهند وحياتها كما فعل ملك محمد جياشى (٥) • كما نظم الهنود الشعر بها (٦) •

واشتدت العناية بالأدب السنسكريتى ومن أجل التفاهم المشترك بين المسلمين والهنود بدأ الأدب السنسكريتى يلخص ويدرس فى بلاط الملوك ، ونظم المسلمون الشعر بالسنسكريتية كما فعل خسرو الدهلوى « عزيز الهند » فألف ديوانا بهذه اللغة • وكان يترجم للشيخ نظام الدين اوليا • وبدأت حركة للترجمة من السنسكريتية الى الفارسية • وكان المسلمون

---

(١) الساداتى ج ١ ص ٢٦٣ •

(٢) Advanced Hist. of India, p. 409

(٣) Ibid., p. 402

(٤ ، ٥) Rawlinson, p. 144

(٦) Advanced Hist. of India, p. 402.

فى الهند هم الذين قاموا بها فلما ظفر فيروز تغلق بمكتبة سنسكريتية فى حصن نكركت عهد الى عز الدين خالد خانى بأن ينقل الى الفارسية كتب الفلسفة والفلك. وتعرف هذه المجموعة باسم دلائل فيروز شاه، كما نقلت كتب طبية سنسكريتية الى الفارسية وكذلك أقسام من المهابهارتا وغيرها من الكتب الدينية والتاريخية القديمة (١) .

وقد جلب الترك معهم تأثيرات جديدة فى الفن والعمارة كالعقود والقباب والمآذن ، واختلطت هذه التأثيرات بالفن الهندى ، فقد استعان السلاطين بالفنانين الهنود الذين استخدموا الأساليب نفسها التى شاعت فى بلادهم . وكانت بعض المساجد تنشأ من بقايا المعابد الهندوكية والجينية ، كما كانت بعض المعابد تحول الى مساجد (٢) .

ولعل مما أحدث هذا التقارب بين الفنين ما بينهما من تشابه كبير. فالمعابد الهندوكية والمساجد الاسلامية تتفق فى أن كلا منها به صحن كبير تحيط به بوائك الأعمدة (٣) . وثمة حقيقة أخرى هى أن الفن الاسلامى والهندى فنون زخرفية ، الزخرفة حيوية لها (٤) .

على كل حال كان الفن الهندى الاسلامى خليطا من الطرز الهندية والاسلامية . يقول السير جون مارشال « ان الفن الهندى الاسلامى ليس صورة محلية من الفن الاسلامى وليس صورة معدلة من الفن الهندى ، انما هو خلية منهما معا وان لم يكن هذا المزج قد تم بدرجة متساوية » (٥)

وأقدم الآثار الاسلامية مسجد قوة الاسلام الذى بناه قطب الدين أيبك تخليدا لذكرى سقوط دهلى سنة ١١٩٣ م . وقد تجلت فيه التأثيرات الاسلامية الهندية (٦) .

---

(١) Advanced Hist. of India, p. 412

(٢) Ibid., p. 413

(٣) Idem

(٤) Ibid., p. 414

(٥) Ibid., p. 410

فهرس

الموضوع **الصفحة**

تقديم ٣

مقدمة ٧

الباب الأول

انتشار الاسلام فى ايران ١٢

الفصل الأول

ايران قبيل الفتح العربى ١٣

الفصل الثانى

الفتح العربى للعراق وايران ٢٢

الفصل الثالث

انتشار الاسلام فى ايران ٣٥

١ ــ العوامل التى مكنت الاسلام من الانتشار ٣٦

٢ ــ تطور الحركة الاسلامية فى ايران ٥٨

الفصل الرابع

نتائج انتشار الاسلام فى ايران ٦٩

١ ــ النتائج السياسية ٧٠

(أ) التقدم السياسى للعناصر الايرانية تحت علم الخلافة ٧١

(ب) ظهور الامارات الايرانية المستقلة ٧٧

الموضوع	الصفحة
الطاهريون بخراسان	٧٨
الصفاريون	٨٣
السامانيون فى خراسان	٨٧
الزياريون	٨٧
ظهور مرداويج بن زياد	٨٩
قيام الامارات المستقلة والقومية الايرانية	٩١
(ج) العصر البويهى	٩٥
٢ ــ النتائج الحضارية	١٠٧
٣ ــ التطورات الاجتماعية	١١٢
٤ ــ الحياة الثقافية	١١٣
الباب الثانى	
انتشار الاسلام فى تركستان	١٣٣
الفصل الأول	
تركيا قبيل الفتوح العربية	١٣٥
الغارات التعرية من خراسان	١٣٨
الفصل الثانى	
فتوح العرب فى تركستان	١٤٥
الفصل الثالث	
الأمويون والعباسيون وانتشار الاسلام فى تركستان	١٥٢
العباسيون وانتشار الاسلام فى البلاد	١٥٩
الفصل الرابع	
الحركات الاستقلالية الطاهريون والسامانيون	١٦٥

الموضوع الصفحة

الفصل الخامس

نتائج اسلام الأتراك الشرقيين ظهور القراخانيين ١٧٨

انتشار الاسلام صوب المغرب فى بحر الخزر وحوض الفولجا .. ١٨٨

الباب الثالث

انتشار الاسلام فى شمال الهند ١٩٥

الفصل الأول

أحوال الهند قبيل الفتح العربى ١٩٧

الفصل الثانى

الفتوح العربية فى السند والملتان ٢٠٨

الفتوح المنظمة ٢١٣

تثبيت الفتوح ٢١٩

الفصل الثالث

انتشار الاسلام فى السند والملتان ٢٢٤

مظاهر الحركة الاسلامية ٢٣٤

الفصل الرابع

انتشار الاسلام فى شمال الهند ٢٣٨

الفصل الخامس

الهنود والحضارة الاسلامية ٢٥٢